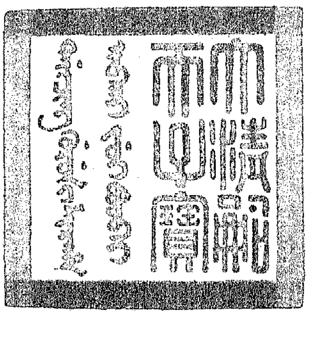
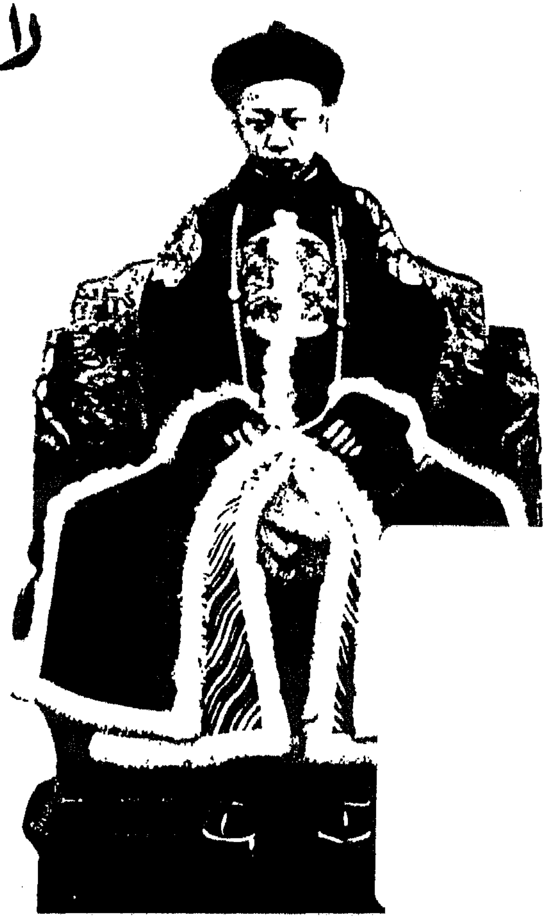
من امبراطور الى مواطن

السيرة الذاتية
رآيشين - جيولوه
بويي





المجلد الثاني

ان كتاب « من امبراطور الى مواطن » يحكى السيرة الذاتية للرجل الذى كان آخر امبراطور فى الصين ، والذى اصبح فيما بعد امبراطورا عميلا لـ " امبراطورية منشوريا " الخاضعة للامبريالية اليابانيـة فى شمال شرقى الصين .

فى المجلد الأول من هذا الكتاب يقدم المؤلف صورة واضحة للحياة فى بلاط تشينغ المتفسخ فى اخريات ايامه ، يكشف كيف قام ، بعد الاطاحة بالاسرة ، هو والقوى الاقطاعية الاخـرى بالتآمـر مع السلطات الاجنبية لاعادة الملكية ، وكيف اصبح عميلا للامبرياليين اليابانيين . وفى المجلد الثانى يصف بو يى حياته فى بلاط منشوريا ، ويتحدث كيف وقع فى قبضة الحكومة الشعبية ، ويقدم وصفا حيا لاعادة تكوين نفسه عبر العمل والدراسة داخل سجون مجرمى الحرب ، وكيف تغير تفكيره . وفى الفصل الاخير من الكتاب يصف كيف عاش بعد العفو عنه ، بوصفه مواطنا عاديا فى جمهورية الصين الشعبية .

من امبراطور الى مواطن

السيرة الذاتية

آيشين - جيولوه بويي

المجلد الثاني

دار النشر باللغات الاجنبية بكين

الطبعة الاولى . . . . عام ١٩٨٥

ترجمة : محمد نمر عبد الكريم

دار النشر باللغات الاجنبية
٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين – الصين

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

الفهرس

الفصل السادس اربعة عشر عاما من حكم " امبراطورية منشوريا" ١

الدور العميل يبدأ ٣

سلطان بلا سلطة ٨

توقيع المعاهدة السرية وما بعدها ١٣

« تقرير لجنة التحقيق التابعة لعصبة الامم » ١٨

" امبراطور" للمرة الثالثة ٢٥

نهاية الوهم ٣٧

يوشيوكا ياسونورى ٤٨

" مراسيم امبراطورية " ٥٢

حياة البيت ٦١

الانهيار ٧١

الفصل السابع فى الاتحاد السوفياتى ٨٣

خوف ووهم ٨٥

ما زلت ابدى كبرياء مصطنعة ٨٧

ارفض الاعتراف بذنبى ٩٠

الفصل الثامن من الخوف الى الاعتراف ٩٥
اتوقع ان اموت ٩٧
الوصول الى فوشون ١٠٤
مفصولا عن اسرتى ١١٠
الانتقال الى هاربين ١١٨
كتابة سيرتى الذاتية وتقديم اختامى ١٢٣
تغييرات فى اسرتى ١٢٩
اعتراف ولين ١٣٧
صنع الصناديق ١٤٤
وصول المحققين ١٥٣
معاناة وحقد الشعب فى الشمال الشرقى ١٦٠
" انك لا تستطيع ابدا ان تنجو من عواقب خطاياك " ١٦٦

الفصل التاسع اقبل اعادة تكوين نفسى ١٧٣
كيف اصبح انسانا ؟ ١٧٥
ذلك يعتمد على ١٨٣
لماذا كل هذه الشهامة ١٨٩
التغيرات توضح كل شىء ١٩٩
لقاء الاقرباء ٢٠٥
مجرمو الحرب اليابانيون ٢١٦
" المجد العالمى " ٢٢٣
زيارة اخرى ٢٣٢
عمل وتفاؤل ٢٤٣

الاختبار	٢٤٩
عفو خاص	٢٥٩
فصل جديد	٢٦٧
ملاحظات	٢٨١

الفصل السادس

اربعة عشر عاما من حكم
" امبراطورية منشوريا "

الدور العميل يبدأ

كانت مشاعري مضطربة ومتناقضة وانا اجلس على المائدة الخاصة التي اقامها لي الكولونيل اتاجاكي مساء ٢٤ فبراير ١٩٣٢ احتفالا بموافقتي على ان اصبح " رئيسا تنفيذيا لدولة منشوريا " العميلة اليابانية الجديدة . وقدم اتاجاكي مومسات يابانيات الضيوف ، وقد لاطفهن وعانقهن دون ان ينزعج بخصوص تقاليد السلوك المهذب . ونظرا الى انه شرب بحرية وجلجل صوته بالضحك فانه لم يحاول اخفاء سروره بنجاحه في اجباري على القبول بشروطه . وفيما كان ما يزال يسيطر على نفسه الى حد ما شرب نخبي بمنتهى الاحترام ، متمنيا لي مستقبلا باهرا وتحقيقا تاما لمطامحي ، وقد سررت غاية السرور لسماعي ذلك . ولكن مع انقضاء المساء وشربه المزيد المزيد من الخمر ازداد وجهه شحوبا ، وبدأت الامور تسوء . وسألتني مومس يابانية بصينية متكلفة : " هل عندك تجارة ؟ " وعندما سمع اتاجاكي ذلك انفجر بضحك غريب ، وادركت انه ليس هناك ما يسر .

وفي ٢٨ فبراير وبأمر من جيش قواندونغ الياباني اتخذ " مجلس جميع منشوريا " في شنيانغ قرارا بخصوص اعلان استقلال الشمال الشرقي وتعييني " رئيسا تنفيذيا للدولة الجديدة " . واخبرني كايسومي وتشنغ شياو شيوي بأن مندوبي هذا " المجلس " سيأتون الى ليويشون كي يدعوني الى قبول المنصب ، وسنحتاج الى اعداد جواب او جوابين . الاول سيكون رفضا والثاني قبولا ، ليكون هذا الجواب جاهزا عندما يضغط على المندوبون مرة ثانية . وفي ١ مارس وصل الوفد المكون من تسعة رجال الى ليويشون ، وسامهم تشنغ شياو

شيوى الذى قابلهم باسمى بالجواب الاول . وبعد ذلك قابلتهم بنفسى ، والقى كلا الطرفين الخطب التى طلب منه القاؤها ؛ و" توسلوا الى بحماسة " ولكننى " رفضت بتواضع " ، وقبل ان تنقضى عشرون دقيقة انتهى اللقاء . وفى ٥ مارس ازداد عدد " الوفد " الى تسعة وعشرين عضوا بأمر من القسم الرابع (١) لجيش قواندونغ وجاء مرة اخرى كى " يتوسل الى بحرارة " ، وهذه المرة انجز الوفد مهمته ، وكان جوابى النهائى كما يلى :

نظرا الى انكم تعهدون الى بهذه المسؤولية العظيمة ، كيف يسعنى ان اتجرأ على الرفض بدافع التوانى والراحة ؟ ولكن بعد تفكير عميق اشعر اننى قد اخيب آمال الجماهير . . . سوف اعتصر امكاناتى الضعيفة واعمل لمدة سنة رئيسا تنفيذيا مؤقتا ؛ واذا كانت نواقصى مفرطة فاننى سأتقاعد باحترام بعد مرور تلك السنة . واذا ما تم ايجاد دستور خلال تلك السنة واقر شكل الدولة وفقا لمقصدى الاصلى فسأعيد حين ذاك النظر بدقة فى فضلى وقوتى واقرر ماذا افعل .

وانتهت هذه الفترة الفاصلة ، وغادرت الى تشانغتشون فى اليوم التالى مع وان رونغ وتشنغ شياو شيوى وتشانغ جينغ هوى والآخرين . ولدى توقف قطارى فى محطة تشانغتشون فى الساعة الثالثة بعد الظهر من ٨ مارس ، سمعت صوت الفرق الموسيقية العسكرية وهتاف الحشود . وعندما خطوت على رصيف المحطة محاطا بتشانغ جينغ هوى وشى تشيا واماكاسو وكايسومى وغيرهم رأيت رجال الدرك اليابانيين وصفوفا من الناس يلبسون مختلف انواع الملابس ؛ بعضهم بستر واثواب صينية ، وبعضهم ببدلات غربية ، وآخرون بملابس يابانية تقليدية ، وكانوا جميعا يمسكون بأيديهم اعلاما صغيرة فتأثرت بذلك ، وفكرت فى اننى ارى الآن المشهد الذى افتقدته عند الميناء . وفيما كنت امر بهم اشار شى تشيا الى صف من اعلام التنين بين الاعلام اليابانية وقال ان الناس الذين يمسكون بهذه الاعلام هم من رجال الرايات المانشويين الذين

كانوا ينتظرون قدومي منذ عشرين سنة . فدمعت عيناي لسماع هذه الكلمات ، وازددت قناعة ان مستقبلي سيكون مشرقا .

وعندما صعدت سيارتي عادت بي افكاري الى مدينتي المحرمة وطردي منها وسرقة المدفن الشرقي والعهد الذي قطعته على نفسي نتيجة ذلك . وشغلني التفكير في آمالي واحقادي عن الانتباه الى الشوارع التي مررت بها او عن ملاحظة الترحيب الفاتر الذي لقيني به اهالي تشانغتشون ، وهم صامتون رعبا وبغضا . وبعد رحلة قصيرة دخلت السيارة الى رحبة مبنى قديم . وهو الذي سيكون "مقر الرئيس التنفيذي" ، مع انه لم يكن كما بدا لي واحدا من افخم المنازل في المدينة .

وفي اليوم التالي تسلمت المنصب وفقا للمراسم المتبعة في قاعة استقبال كبيرة رتبت على عجل . وكان بين الحاضرين اوتشيدا ، مدير سكة حديد جنوبي منشوريا اليابانية ، وهونجو ، قائد جيش قواندونغ ، ومايبلك ، رئيس اركانه ، وضابط الاركان اتاجاكي . وحضر كثير من "وزرائي القدامى" : وكان بينهم ، بالاضافة الى تشنغ شياو شيوى واوه تشن يوى وهو سي يوان وتشن تسنغ شو ، عدد آخر من موظفي اسرة تشينغ السابقين ومن الامراء المنغوليين . وكان هناك ايضا عدد من رجال عصبة فنغتيان السابقين مثل تشانغ جينغ هوى وتسانغ شي يي وشي تشيا وتشانغ هاى بنغ ؛ وكان هناك كذلك ضابط اركان سابق لدى الجنرال ابو لحم الكلب تشانغ تسونغ تشانغ .

ولبست بدلة رسمية غربية . وتحت نظر ذوي المقامات الرفيعة من اليابانيين انحنى لي "مؤسسو الوطن" ثلاث مرات وانحنيت لهم مرة واحدة . ومن ثم قدم لي تسانغ شي يي وتشانغ جينغ هوى باسم "شعب منشوريا" "ختم الرئيس التنفيذي" ملفوفا بقطعة من الحرير الاصفر . وبعد هذا قرأ تشنغ شياو شيوى "بيان الرئيس التنفيذي" نيابة عني :

ينبغي للنوع البشرى ان يحترم الاخلاق ، ولكن نظرا لوجود تمييز عنصرى فان الناس يضطهدون الآخرين ليرفعوا من شأن انفسهم ، مضعفين بذلك القيم الخلقية . كما ينبغي للنوع البشرى ان يحترم نزعة الخير ، ولكن بسبب النزاع الدولى فان بعض الناس يحاول ايذاء الآخرين من اجل المصلحة الشخصية ، مضعفا بذلك نزعة الخير . والاخلاق ونزعة الخير هما المبدءان اللذان تؤسس عليهما دولتنا ، التى من المحتم ان تصبح بازالة التمييز العنصرى والنزاع الدولى جنة على الطريقة الملكية . وآمل ان يسعى جميع ابناء شعبى الى تحقيق ذلك .

وعندما قابلت الضيوف الاجانب بعد انتهاء المراسم القى مدير سكة جنوبى منشوريا اليابانية خطاب تهنئة ، وقرأ لوه تشن يوى جوابى . وبعدها دخلنا الفناء لرفع العلم الجديد والتقاط الصور ، وانتهى ذلك بمأدبة .

وبعد ظهر ذلك اليوم جاء تشنغ شياو شيوى ببعض " الاعمال الرسمية " الى " مكتب الرئيس التنفيذى " . وانحنى قائلا بصوت رقيق ورأسه الاصلع يلتمع :

— ان الجنرال هونجو قد اوصى بأن يصبح خادمكم رئيس وزراء ويؤلف وزارة . وهذه قائمة للتعيينات (٢) فهل تسمح جلالتكم بأن توقعوا عليها .

ونظرا الى ان الوكيل اليابانى اماكاسو كان قد ناقشنى بها قبل ذلك فى ليويشون تناولت فرشتى ووقعت . وبذلك قمت بأول عمل من اعمال " دولة منشوريا " .

وقد تأثرت تأثرا عميقا بالجوقة العسكرية واعلام التنين فى محطة تشانغتشون وبمراسم تسلم المنصب وبخطاب التهنئة الذى القى عندما قابلت الضيوف الاجانب ، وشعرت انى بتسلمى المنصب على المكشوف قد وضعت نفسى فى موضع لا انسحاب منه . وفوق ذلك قد يساعدنى اليابانيون فى استعادة لقبى

الامبراطورى اذا انا مضيت فى التعاون معهم . وعندما نظرت الى الجانب المشرق فى ذلك ، بدا لى كونى " رئيسا تنفيذيا " ليس امرا هينا بل خطوة نحو العرش الامبراطورى . وكانت المشكلة التى اعطيتها انتباهى الآن هى كيف استفيد من هذا المنصب الى ابعد حد . وبعد ان فكرت فى ذلك عدة ايام اعلنت خلاصة ما توصلت اليه على تشن تسنغ شو وهو سى يوان اللذين اصبحا الآن من امنائى :

" ان عندى عهدين وامنية ، واننى اود ان اخبركما بها . اولا ، اننى سأعمل على التخلص من جميع اخطائى السابقة ، وقد عاهدت نفسى ألا اكون كسولا قط او عابثا كما وصفنى تشن باو تشن قبل عشر سنوات . ثانيا ، عاهدت نفسى بأن لا استريح حتى اتغلب على جميع العقبات واعيد ميراثى السلفى . ثالثا ، ارجو ان ترسل لى السماء وريثا ليتابع مسيرة اسرة تشينغ العظيمة . واذا تحققت هذه الاشياء الثلاثة فسيكون بوسعى ان اموت سعيدا . "

بعد شهر تقريبا من تسلمى المنصب انتقل " مقر الرئيس التنفيذى " الى مبنى اعيد تزيينه ، كان فى السابق مكتب مكوس الملح لمقاطعتى جيلين — هياونغجيانغ . وفى البداية اخذت انهض باكرا كل صباح واذهب الى مكتبى مباشرة ، ولا اعود الى مسكنى حتى المساء . واتبعت تعليمات جيش قواندونغ فى عملى ساعات طويلة تحت وهم ان اصبح قادرا على استخدام السلطة بصفتى رئيس دولة ، آملا خلال ذلك ان انجز العهدين اللذين قطعتهما على نفسى واعود الى العرش . ولكن هذا الاجتهاد لم يستمر طويلا لأنه لم يكن هناك عمل اقوم به ، وسرعان ما اكتشفت ان سلطات " الرئيس التنفيذى " ليست الا حبرا على ورق .

سلطان بلا سلطة

لقد حددت المواد الثلاث عشرة من القسم الاول من « قانون دولة منشوريا التنظيمي » سلطاتي بكل وضوح . وقد نصت المادة الاولى على ان " الرئيس التنفيذي يحكم دولة منشوريا " ، والثانية الى الرابعة على ان لي سلطة تشريعية وتنفيذية وقضائية . والمواد الاخرى نصت على ان بلاغاتي سيكون لها قوة القانون ، وانني انا الذي اقرر بنية الادارة والتعيينات الرسمية ، وانني القائد الاعلى للقوات البرية والبحرية والجوية ، وان لدي السلطة في اصدار قرارات الصفح والعفو العام ، وفي تخفيف العقوبات واعادة الحقوق الى ذويها من الناس الذين كانت قد جردت منهم ، وما الى ذلك .

والواقع انني لم اكن املك حتى السلطة التي تخولني ان اقرر الخروج من بوابات مسكني الداخلية متى شئت . وذات يوم فكرت في الخروج للتمشي ، فأخذت زوجتي وان رونغ واثنتين من شقيقاتي للقيام بنزهة في " منتزه داتونغ " ، ولكن لم تمض علينا عدة دقائق في المنتزه حتى جاء رجال الدرك الياباني ورجال " مكتب الامن التابع لمقر الرئيس التنفيذي " في سيارة وطلبوا مني ان اعود ، حيث ان غيابي عن مقري قد بلغ عنه فورا ، فحشدت اعداد كبيرة من الجند ورجال البوليس للتفتيش عني ، مثيرين اهتياجا عظيما في كافة انحاء المدينة . وبعد انتهاء الامر قال لي مستشاري كايسومي انه من اجل هيبتي وامني يجب ألا اخرج وحدي مرة ثانية . ومنذ ذلك الحين لم اجتز البوابة الامامية قط الا في الارساليات التي رتبها جيش قواندونغ .

وقد صدقت في البداية التوضيح الذي قدم لي بخصوص وجوب عدم خروجي من تلقاء نفسي ، ولكن بعد بضعة ايام من القيام بـ " اعمال الدولة " في مكتبي بدأت تنتابني الشكوك . وعلى الرغم من انني بدوت مشغولا جدا باستقبال زوار كثيرين ، معظمهم من الوزراء والمستشارين ذوي المراتب

العالية ، كانوا يعبرون عن ولائهم ويقدمون الهدايا الى ، الا انهم لم يناقشوا معي اى عمل رسمى قط . واذا ما سألتهم عن امور رسمية كان جوابهم اما " نائب الوزير يهتم بذلك " ، واما " يجب ان اسأل نائب الوزير عن ذلك " . ونواب الوزراء كانوا يابانيين ، وهم لم يحضروا مطلقا لرؤيتى .

وكان هو سى يوان اول من فقد صبره . فقد وضح لتشنغ شياو شيوى الذى اصبح الآن رئيس وزراء النظام العميل بأن الوزراء يجب ان تكون لهم السيطرة على وزاراتهم ، وان القرارات الهامة يجب ان يتخذها اولا الرئيس التنفيذى ومن ثم ينفذها الوزراء ، وانه لمن الخطأ تماما ان يقرر نواب الوزراء كل شيء . فكان جواب تشنغ " اننا نطبق حكما وزاريا مسؤولا ، وشؤون الدولة يجب ان تقرر اولا فى اجتماعات مجلس الدولة . ان مجلس الوزراء مسؤول امام الرئيس التنفيذى ، وكل اسبوع يعكس رئيس الوزراء الاقتراحات التى تبناها فى اجتماعاته الى الرئيس التنفيذى لاتخاذ القرار . وهذه هى الطريقة المتبعة فى اليابان . " ووافق تشنغ على ضرورة ان يضبط كل وزير وزارته ، وقال انه سيعرض هذه النقطة على قائد جيش قواندونغ . وقد واجه فى الواقع نفس المشكلة فى علاقته بالرئيس اليابانى لمكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة .

لا ادرى كيف كانت محادثة تشنغ شياو شيوى مع قائد جيش قواندونغ فى هذا الموضوع ، ولكننى علمت ما قصد حقا بعبارة " الحكم الوزارى المسؤول " وبالعلاقة بين الوزراء ونواب الوزراء من الوصف الذى قدمه لى هو سى يوان عن احد اجتماعات مجلس الدولة .

كان موضع البحث هو رواتب الموظفين . وكالمعتاد اعد الاقتراح من قبل مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة ، وسلمت نسخة مطبوعة منه لكل من الوزراء . وكان قد سبق للوزراء ان وافقوا فورا على لوائح بشأن الاستيلاء على ممتلكات حكومة الشمال الشرقى السابقة وتزويد الجيش اليابانى بالحبوب

والعلف ومصادرة مصارف الشمال الشرقى الرئيسية الاربعة : ولكنهم هذه المرة لا يمكن ان يكونوا غير مبالين لأن الموضوع يمس مصالحهم مباشرة فدققوا فيه وعندما وجدوا ان درجات رواتب الموظفين اليابانيين اعلى من درجات الموظفين " المانشوبين " بحوالى ٤٠ فى المئة ، اعربوا عن استيائهم بوضوح فى النقاش الغاضب الذى يلى ذلك . واحتج شى تشيا ، وزير المالية ، ان الرواتب الاعلى لليابانيين متناقضة مع المساواة العرقية والصداقة اللتين يفترض ان الدولة قد اسست عليهما . ولما رأى رئيس مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة ، كوماى توكوتسو الاتجاه المزعج الذى يتجه اليه الاجتماع ، اوقف النقاش وارسل فى طلب الذى وضع مسودة الاقتراح ، وهو الرئيس اليابانى لدائرة شؤون الموظفين ، ليجيب عن اسئلتهم . فوضح المذكور بهدوء ان على المرء ان يكشف اولا ما اذا كان الناس متساوين فى المقدرة قبل ان يفكر فى المساواة بينهم . ونظرا الى ان اليابانيين مقتدرون جدا فمن البديهى ان تدفع لهم رواتب اكثر ؛ كما انهم قد اعتادوا على مستوى معيشى اعلى ، فاعتادوا اكل الرز لا الذرة الرفيعة مثل " المانشوبين " . اما بالنسبة للصداقة ، فهى من باب اولى توجب اعطاء اليابانيين رواتب اعلى . ولكن هذا الخطاب لم ينجح فى ارضاء الوزراء ، فاضطر كوماى الى تأجيل الاجتماع لليوم التالى .

وفى اليوم التالى افتتح كوماى الاجتماع بقوله انه قد بحث المسألة مع نواب الوزراء ، وان جيش قوانادونغ قد وافق على رفع رواتب الوزراء الى نفس مستوى رواتب نواب الوزراء . واضاف يقول : " ولكن نظرا الى ان الموظفين اليابانيين سيقيمون بعيدا عن موطنهم وسيقومون ببناء فردوس على الطريقة الملكية للمانشوبين ، فعلينا ان نكون ممتنين لهم . ولذلك فاننا سنعطيهم علاوات خاصة . وهذا القرار قرار نهائى لا ضرورة للمزيد من المناقشة . " وشعر معظم الوزراء انهم حصلوا على نقودهم وان خلق المزيد من المتاعب لن

يجديهم نفعا ، ولكن شى تشيا الذى رأى انه على علاقة جيدة بقائد جيش قواندونغ لم يرض بأن يصده كوماى فعلق قائلا :

— اننى لن اناقش فى مسألة بعض النقود ، ولكننى اود ان اسأل اين سيقيم اليابانيون هذا الفردوس ان لم يكن فى منشوريا . وهل يمكنهم ان يقيموه من دون المانشويين ؟

فاستاء كوماى وقرع الطاولة ، وجأر بصوت عال :

— هل تعرف تاريخ منشوريا ؟ ألا تدرك ان اليابانيين قد دفعوا مقابلها دماءهم وعرقهم عندما اخذوها من الروس ؟

فرد عليه شى تشيا وقد شحب وجهه :

— هل تسمح لى بالتحدث ؟ ان الجنرال هونجو لم يصرخ فى وجهى قط .

فرد كوماى مزمجرا :

— اننى اقول لك ان هذا قد قرره الجيش .

ولم يبق هناك ما يمكن ان يقوله شى تشيا ، وعم الصمت القاعة .

ومنذ ذلك الحين و" الحكم الوزارى المسؤول " و" اجتماعات مجلس الدولة " لم تخدع احدا . ولم يكن رئيس الوزراء الحقيقى هو تشنغ شياو شيوى بل كوماى ، رئيس مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة . وحتى اليابانيين لم يخفوا هذا ، وقد اشارت مجلة « الاصلاح » اليابانية الى كوماى صراحة على انه " رئيس وزراء دولة منشوريا " . وهو بدوره اعتبر قائد جيش قواندونغ رئيسه الاعلى ، وليس الرئيس التنفيذى الاسمى . وكانت الاقتراحات التى نوقشت فى اجتماعات مجلس الدولة يتم تقريرها فى النقاشات الاسبوعية التى يعقدها نواب الوزراء الذين شكلوا مجلس الوزراء الحقيقى فى " دولة منشوريا " وهو المسؤول امام " الحاكم الاعلى " قائد جيش قواندونغ . وكان القسم الرابع من جيش قواندونغ يشترك دائما فى مثل هذه المناقشات ،

وكثير من الاقتراحات كانت تصاغ وفقا لمطالب مندوبيه .

وهذا كله سرعان ما اصبح واضحا لكل شخص وكان يجب ان يبدد اوهامي ، ولكنها لم تتبدد . وكان الثرثار هو سي يوان يذكرني دائما بوضعي الفريد ، ولقد تذكرت رأيا كنت اعتقدته خلال اقامتي في تيانجين : " من دوني انا الامبراطور الحقيقي ، سيصبح اليابانيون في وضع صعب جدا . " ان الطريقة القائمة على الاحترام الظاهري التي عاملني بها اليابانيون جعلتني اعتقد خطأ انني مختلف تمام الاختلاف عن شي تشيا ، وان اليابانيين مضطرون الى معاملتي باحترام . وهذا ما ظننته في ايام تأسيس " جمعية الوئام " .

ذات يوم ، بعد شهر تقريبا من تسلمي المنصب ، اخبرني تشنغ شياو شيوي في مجرى احد تقاريره المنتظمة بأن جيش قواندونغ يريد ان يشكل حزبا سياسيا ويسميه " حزب الوئام " . وكان هدف الحزب " تنظيم الجماهير للتعاون في بناء الوطن " وايجاد روح " احترام الشعائر الدينية وتقبل الأوامر السماوية بابتهاج " . وكانت كلمة " حزب " تفزعني دائما ، لذلك كان ذعري لدى سماعي هذه الاخبار اكثر منه عندما بلغت بقرع كوماي للطاولة . فقطعت حديث تشنغ ولوحت بيدي مشيرا الى عدم الموافقة . وقلت :

— لماذا يريدون حزبا ؟ ما الفائدة التي يمكن ان يقدمها الحزب ؟ ألم يكن سقوط الاسرة من جراء عمل الحزب ؟ هل نسيت ان كونفوشيوس قال بأن الرجل الكريم لا حاجة به الى التحزبات ؟

فقال تشنغ شياو شيوي وقد امتقع وجهه :

— ان جلالتكم على صواب تام ، ولكن الجيش قد اتخذ قراره .

وكان يأمل ان يسكتني بهذا الكلام ، ولكنه دهش عندما رآني اعتبر هذا الامر مسألة حياة او موت وارفض الموافقة عليه . لقد آلمني سماع ان كل شيء قد قرره الجيش . وقلت في غضب :

— اما ان تذهب وتبلغ اليابانيين ، واما ان تطلب منهم القدوم الى .

وبعد يومين جاء اتاجاكى وضابطان آخران من القسم الرابع لجيش قواندونغ ليقدموا لى توضيحات ، ولكنهم اخفقوا فى اقناعى ، لذلك ظلت المسألة دون حل .

وفى يوليو ، بعد ثلاثة اشهر ، ظننت اننى انتصرت . فقد قرر جيش قواندونغ ان يشكل " جمعية وئام " لا " حزب وئام " ومهمتها ان تدعم الحكومة . وكانت الجمعية والمنظمات الملحقة بها تشمل كافة سكان " دولة منشوريا " فوق سن العاشرة .

ان السبب الحقيقى فى تغيير جيش قواندونغ اسم " حزب " الى " جمعية " لم يكن له اية علاقة بى . فقد رأى الجيش ان الجمعية اكثر فاعلية من الحزب السياسى بالنسبة للدعاية والتجسس واستعباد الناس . وانا بالطبع لم ادرك هذا ، وظننت انهم استجابوا لرغبتى . ونظرا الى اننى كنت مقتنعا بهذا الوهم فلم يكن من المدهش ان لا يبقى لى موقع بعد توقيع المعاهدة السرية بين " دولة منشوريا " واليابان .

توقيع المعاهدة السرية وما بعدها

منذ زمن يرجع الى اقامتنا فى ليويشون اتفق تشنغ شياو شيوى مع هونجو على الشروط التى سأتسلم بها منصب الرئيس التنفيذى حيث سيكون هو رئيسا للوزراء . وقد اخبرنى تشنغ بذلك عشية استقالة هونجو .

وفى ١٨ اغسطس ١٩٣٢ جاء تشنغ شياو شيوى الى مكتبى يحمل رزمة من الوثائق ، وقال :

ــ هذه اتفاقية عقدها تابعكم مع الجنرال هونجو ، فهل لجلالتكم ان تتفضلوا بالموافقة عليها ؟

فنظرت الى الاتفاقية ، وقلت غاضبا :

ـ من طلب منك التوقيع عليها ؟

فأجاب ببرود :

ـ هذه هى جميع الشروط التى اقرها اتاجاكى فى ليويشون . وقد اخبر اتاجاكى جلالتكم بها منذ وقت طويل .

ـ هراء ! لم يخبرنى مطلقا ، وحتى اذا كان قد اخبرنى لا يحق لك ان توقع قبل ان تستشيرنى .

ـ لقد فعلت ذلك وفقا لتعليمات اتاجاكى . فقد قال انه يخشى ان تحدث متاعب اذا رآها هو سى يوان والآخرون مقدما وهم لا يفهمون الوضع .

ـ من المسؤول هنا ؟ انت ام انا ؟

ـ ما كان لتابعكم ان يتجرأ على ذلك . ان هذه الاتفاقية اجراء مؤقت . فكيف يمكن لجلالتكم ان ترفضوا توقيعها اذا كنتم تريدون مساعدة اليابانيين ؟ كل ما تقدمه الاتفاقية لليابانيين من سلطات هو ما يتمتعون به فى الواقع ، ويمكننا ان نوقع فى المستقبل معاهدة اخرى تنص على ان تستعيدوا هذه الحقوق بعد بضع سنوات .

وكان محقا فى قوله ، فان اليابانيين كانوا قد حصلوا على الحقوق التى نصت عليها الاتفاقية . وكان جوهر الاتفاقية هو ان اليابان ستكمل سيطرتها على " دفاع وامن " " دولة منشوريا " ؛ وانها ستدير خطوط السكك والموانئ والطرق المائية والطرق الجوية فى " دولة منشوريا " وتنفذ المزيد من الانشاءات ؛ وان " دولة منشوريا " ستزود القوات اليابانية بالامدادات والمعدات اللازمة ؛ وان اليابانيين سيكون لهم الحق فى فتح المناجم واستغلال المصادر الطبيعية ؛ وانه سيسمح لهم بتسلم مناصب فى " دولة منشوريا " ؛ وان اليابان سيكون لها الحق فى نقل المهاجرين الى " دولة منشوريا " ؛ واشياء اخرى كثيرة . وانتهت الاتفاقية الى النص على انها ستكون اساسا لمعاهدة رسمية بين البلدين . وكان تشنغ شياو شيوى مصيبا فى قوله اننا لا بد ان ندفع ثمن " دعم "

اليابان لنا . ومع ذلك لم يسعنى الا ان اشعر بالاستياء . لقد احسست ان تشنغ شياو شيوى قد اشتط كثيرا فى مبادرته ببيع " بلادى " لليابانيين . وغضبت كذلك من اليابانيين على خداعهم اياى . فمع انهم رفضوا اعطائى عرشا امبراطوريا ، الا انهم كانوا ما يزالون يريدون اخذ المزيد منى .

وعلى الرغم من اننى غضبت ، الا انه لم يكن امامى ما استطيع فعله ، لأن المسألة كانت قد انتهت . فوقعت الاتفاقية السرية ، واخذها تشنغ معه . ودخل هو سى يوان ، واستشاط غضبا عندما اخبرته بما جرى :

— ان تشنغ شياو شيوى رجل مخزى . لقد قال تشن باو تشن عنه منذ وقت طويل انه يعطى من مال غيره ، وها هو الآن قد تجرأ على ان يفعل ذلك من تلقاء نفسه .

فقلت مكتئبا :

— فات الأوان لعمل شيء بخصوص ذلك .

— يمكن ان لا يكون الامر كذلك . يجب ان ننتظر الاخبار التى نحصل عليها من طوكيو .

وقبل ذلك ببعض الوقت كنا قد علمنا ان هونجو ، قائد جيش قواندونغ سوف يحل محله قائد آخر ، وان اليابان سوف تعترف بـ " دولة منشوريا " . وعلق هو سى يوان اهمية كبيرة على هذه الاخبار ، لأنه رأى ان تغيير القيادة قد يشير الى تغير طفيف فى موقف طوكيو ، ورأى ان علينا ان نرسل شخصا الى اليابان لاستغلال هذه الفرصة . وكان من المستحيل فى رأيه تجنب اعطاء اليابان بعض الامتيازات مثل السيطرة على تعدين البلاد وسككها ومواردها الطبيعية ودفاعها ، ولكن كان ضروريا جدا ان اظل محتفظا بتعيين الموظفين فى يدى . وبناء على توصية هو سى يوان ارسلت مبعوثين الى طوكيو لرؤية بعض العسكريين الكبار ، فقدما مطالبى الى رئيس اركان الجيش اليابانى والى كاشى ، القائد اليابانى السابق فى تيانجين ، والى موتو نوبويوشى ، قائد

جيش قواندونغ لاحقا . وبناء على نصيحة هو سى يوان غاليت فى مطالبى لأترك مجالا للتنازل دون التخلى عن الموضوع الاساسى — التحكم بالتعيينات . وكانت المطالب الاضافية هى ان يكون للوزراء السيطرة الحقيقية على وزاراتهم ، وان يلغى نظام ادارة اليابانيين لمكاتب الشؤون العامة ، وان تدرب قوات جديدة ، وان يقرر المجلس التشريعى شكل الدولة ، وان يكون مسموحا لى باعادة تنظيم مجلس الوزراء .

وبعد يومين اخبرنى هو سى يوان وهو ثائر بأن رسالة قد جاءت من مبعوثى الاثنين فى طوكيو يقولان فيها ان بضعة من رجال الدولة اليابانيين الكبار والعسكريين ممن تعاطفوا معى ولم يعجبهم موقف هونجو منى راغبون فى تأييد جميع مطالبى . ومضى يقول ان هذا يبين ان الامور ستتغير مع وصول قائد جيش قواندونغ الجديد ، واننى سأصبح قادرا على اختيار موظفى وحكم بلادى . ولكن سأحتاج حتى احكمها بنجاح الى رئيس وزراء مطيع . فوافقت ، وقررت ان اطرد تشنغ شياو شيوى واستبدل به تسانغ شى يى الذى سيشعر نحوى بالامتنان ويطيع توجيهاتى . وارسلت فى طلب تسانغ شى يى ، ولكن جاء بدلا منه تشنغ تشوى ليرانى ويحتج على التقرير الذى يشير الى رغبتى فى اعادة تنظيم مجلس الوزراء . وبعد ذلك بقليل رفض تسانغ شى يى ان يصبح رئيسا للوزراء . فقد ادرك انه سيجلب المتاعب لنفسه اذا هو وافق دون اذن من جيش قواندونغ .

وعندما سمع تشنغ شياو شيوى بأن تسانغ شى يى قد رفض ، قرر ان يسلك خطة طلب اذن بالاستراحة بحجة انه موعوك . وكنت قد تقويت بالأخبار المشجعة القادمة من طوكيو ، فانتهزت الفرصة للتخلص منه ، وقلت دون ان ابذل ادنى جهد لاقناعه فى البقاء :

— لقد حان وقت تقاعدك . لن احتفظ بك . ارجو ان ترشح خلفا لك .

فخبا البريق من رأسه الاصلع وقال :

— خادمكم اراد فقط اذن مرض لبضعة ايام :
— حسن جدا .

وحالما غادر تشنغ شياو شيوى ارسلت فى طلب تسانغ شى يى وكلفته بأن يصبح رئيس وزراء بالنيابة ، ظانا اننى استطيع ان اجد طريقة للتخلص من تشنغ شياو شيوى فيما بعد . ولكن قبل ان يتعهد تسانغ شى يى بذلك عاد تشنغ الى منصبه .

وقررت ان اقدم مطالبى شخصيا عندما يصل قائد جيش قواندونغ الجديد . وايدنى هو سى يوان فى ذلك ، وذكرنى بالاصرار على ازاحة تشنغ شياو شيوى :

وهذا كله حدث فى بداية سبتمبر : وفى منتصف الشهر وصل الى تشانغتشون موتو نوبويوشى ، القائد الجديد لجيش قواندونغ و " السفير " اليابانى الاول لدى " دولة منشوريا " . وفى اليوم الخامس عشر وقع موتو وتشنغ شياو شيوى « بروتوكول اليابان — دولة منشوريا » . وكانت هذه هى المعاهدة العلنية المبنية على اساس الاتفاقية السرية . وبعد ان انتهت المراسم وشربنا الشامبانيا كنت فى غاية التعجل لاجراء حديث خاص مع موتو . وكنت واثقا من نتيجة هذا الحديث ، حيث ان مبعوثى فى طوكيو قد بلغانى بتعاطفه مع مطالبى ورغبته فى النظر فى اعادة لقبى الامبراطورى . كان موتو قد قاد القوات اليابانية التى احتلت سيبيريا خلال الحرب العالمية الاولى . وقد جاء الى الشمال الشرقى هذه المرة بمناصبه الثلاثة — قائد جيش قواندونغ ، وحاكم " اراضى قواندونغ المؤجرة " و " سفير لدى دولة منشوريا " . وكان الحاكم الفعلى للشمال الشرقى ، الامبراطور الحقيقى لـ " دولة منشوريا " . وقد لقبته الصحافة اليابانية " الاله الحارس لمنشوريا " ، وكان هذا العجوز الابيض الشعر ذو الخمسة والستين ربيعا قويا فى نظرى كاله . وعندما انحنى لى فى المرة الاولى انحناءة تطفح بالأدب الجم ، تملكنى شعور بأننى مدعوم من السماء . وبعد

ان سمع كلامى اجاب فى كياسة : " سأبحث اقتراحات جلالتكم بمنتهى الدقة . "

واخذ معه قائمة الطلبات التى كتبها لى هو سى يوان ، ولكن مرت الايام دون ان اسمع نتائج هذا البحث المتروى . ولما كان من المفروض ان اقابل قائد جيش قواندونغ ثلاث مرات فى الشهر ، فقد قابلته ثانية بعد عشرة ايام . وسألته عن النتائج التى توصل اليها ، فأجاب بأنه ما زال يدرس المطالب . وفى كل مرة رأيته فيها كان يبدو لطيفا على نحو ناجح ، فينحنى بشدة ويبتسم قائلا : " سعادتكم " ، ويتحدث عن كل واحد من اسلافى بعظيم الاحترام ، ولكنه لم يشر مرة واحدة الى مطالبى . وكنت اذا ما حاولت توجيه المحادثة الى تلك الوجهة يقبر الموضوع فورا . وبعد ان زاغ على هذا النحو مرتين لم تعد عندى اعصاب تمكننى من ان اسأله حول المطالب مرة اخرى . ومنذ ذلك الحين والى موته فى يوليو ١٩٣٣ لم نكن نتحدث كلما التقينا الا حول البوذية والكونفوشية و " الصداقة " . وقد بدت لى سلطته تزداد يوما بعد يوم بينما لم يكن هناك اى نمو فى سلطتى .

« تقرير لجنة التحقيق التابعة لعصبة الامم »

فى مايو ١٩٣٢ وصلت لجنة التحقيق لعصبة الامم الى الشمال الشرقى : فعلق تشنغ شياو شيوى وتشنغ تشوى آمالا كبيرة على هذه اللجنة ، وعندما نشر تقريرها فى اكتوبر من تلك السنة ، تأكدا من ان حلمهما فى الادارة الدولية سيتحقق فى المستقبل المنظور . ولكننى لم اشاركهما هذا التفاؤل ، بل علمت الكثير عن الشؤون الدولية من مناقشاتهما . وخلافا لهما اصبح اعتقادى بقوة اليابان اقوى منه باللجنة .

كان تشنغ وابنه كثيرا ما يتكلمان عن موقف القوى الغربية من " مسألة

منشوريا " ، وما قالاه كان عادة كما يلى : " لا تظهروا ادنى اهتمام للاجتماعات الصاخبة (اجتماعات عصبة الامم) فى جنيف وباريس . فلا احد من هذه البلدان مستعد فى الواقع لصدام مباشر مع اليابان ؛ وامريكا ، الدولة القوية الوحيدة منذ الحرب العالمية ، لا تريد ان تتخذ موقفا مشددا ازاء اليابان كذلك . " وكثيرا ما كان تشنغ تشوى البارع فى الانكليزية واليابانية يخبرنى بما تقوله الصحافة الاجنبية . فقال ان عددا لا بأس به من الصحف الامريكية موالية لليابانيين ، وكشف لى ذات مرة عن اتفاقية سرية بين الولايات المتحدة واليابان ورد فى احد بنودها ان امريكا تتفهم نشاطات اليابان فى الشمال الشرقى . واخبرنى ايضا بمزيد من التفصيل انه قبل احداث ١٨ سبتمبر عام ١٩٣١ نصحت شخصية امريكية هامة تشيانغ كاى شيك ببيع منشوريا لليابان حتى تجلب اليابان الى نزاع مباشر مع الاتحاد السوفياتى .

قال تشنغ شياو شيوى : " لقد جاءت لجنة التحقيق بدعوة من الكومينتانغ . ان الكومينتانغ يأمل بأن تساعده اللجنة على تدبر شأن اليابان ، ولكنه سيصاب بخيبة امل حيث ان اللجنة مهتمة بالباب المفتوح ، وبتساوى الفرص ، وبمقاومة روسيا السوفياتية ، وهذا ما كانوا قد ناقشوه مع اوتشيدا (٣) فى طوكيو . ولا حاجة الى القلق ؛ فعندما يحين الوقت ستحتاجون فقط الى قول بضع كلمات لهم . ان الكومينتانغ ، فى رأى تابعكم ، يعرف ان اللجنة لن تحقق شيئا ، وربما يدرك جيدا فوائد الادارة الدولية لمنشوريا . " وفيما بعد اظهرت الاحداث ان تشنغ وابنه لم يكونا مخطئين كثيرا فيما قالاه .

وبعد نشوب القتال فى الشمال الشرقى فى ١٨ سبتمبر ١٩٣١ ابلغ تشيانغ كاى شيك تشانغ شيوه ليانغ مرارا بأن يأمر جنده فى الشمال الشرقى " بألا يقاوموا تحت اى ظرف من الظروف لكى يتجنبوا توسيع القتال " . وبعد اربعة ايام ، فى ٢٢ سبتمبر ، اعلن تشيانغ كاى شيك فى اجتماع حاشد للكومينتانغ فى نانجينغ (نانكين) ان الصين يجب " ان تقابل القوة بالحق ،

وتقابل الوحشية بالسلم ، وتتحمل الاذلال الذى لحق بها ، وتكبح غضبها ، وتقبل موقتا ما لا يقبل الى ان تعطى العدالة الدولية حكمها " . ولكنه فى الوقت نفسه كان يواصل الحرب الاهلية داخل الوطن بمنتهى الوحشية ضاربا بـ " السلم " و" الحق " عرض الحائط .

وفى ٣٠ سبتمبر طلب الكومينتانغ من عصبة الامم ان ترسل لجنة تحقيق حيادية الى الشمال الشرقى . وبعد نقاشات مطولة وافقت اليابان على ذلك فى ١٠ ديسمبر ، وصدر قرار بالدعوة الى انشاء لجنة تحقيق . وقد شكلت اللجنة من مواطنى خمسة بلدان وهم اللورد ليتون من بريطانيا (رئيسا) واللواء فرانك روس مكوى من الولايات المتحدة الامريكية والفريق هنرى كلوديل من فرنسا والكونت آلدروفانى من ايطاليا والدكتور هانرتش سناى من المانيا . وتحركت هذه اللجنة فى ٣ فبراير ١٩٣٢ ، وبعد زيارة انحاء من الصين وطوكيو وصلت الى الشمال الشرقى فى مايو . وكان اليابانيون فى ذلك الحين يشنون اوسع حملاتهم العدوانية بينما كانت حكومة نانجينغ تقدم المزيد من التنازلات .

وفى ٣ مايو اجتمعت بلجنة التحقيق مدة استغرقت حوالى ربع ساعة سألونى خلالها سؤالين : كيف جئت الى الشمال الشرقى ؟ وكيف اسست " دولة منشوريا " ؟

وقبل ان اجيبهم اومضت فى ذهنى فكرة . لقد تذكرت ان جونستون اخبرنى فى الماضى ان بوابات لندن مفتوحة لى ، وتساءلت ان كانوا يوافقون على اخذى الى لندن اذا انا اخبرتهم بأننى لم اصبح " الرئيس التنفيذى لدولة منشوريا " الا نتيجة لخداع دويهارا وتهديدات اتاجاكى . ولكننى تذكرت ان اتاجاكى ورئيس اركان جيش قواندونغ ، هاشيموتو تورانوسيولك ، كانا جالسين بجانبى . وبنظرة الى وجه اتاجاكى البغيض شرعت اقول فى اذعان ما قيل لى مسبقا : " لقد جئت الى منشوريا بعد ان اختارتنى الجماهير المانشوية . ان بلادى مستقلة تماما . . . "

فهز اعضاء لجنة التحقيق جميعا رؤوسهم وابتسموا ، ولم يسألوا اى سؤال آخر . ومن ثم التقطنا صورة جماعية وتبادلنا معا انخاب الشامبانيا . وبعد ان غادرت اللجنة تهلل وجه اتاجاكى الشاحب الفاتر بالابتسامات وهو يشيد بأدائى : " ان اسلوب سعادتكم رائع جدا ؛ لقد تكلمتم على نحو ممتع . " وهنأنى كذلك تشنغ شياو شيوى .

عرضت على فيما بعد ترجمة لمقالة نشرها كوماى فى المجلة اليابانية « تشوكورون » فى اكتوبر ، وبعد تلك المقالة مباشرة وقع « تقرير لجنة التحقيق » بين يدى . وكلتا الوثيقتين تؤكد رأى تشنغ وابنه بأن المسألتين اللتين جذبتا انتباه اللجنة حقا هى " الفرص المتساوية " و " الباب المفتوح " .

كان عنوان مقالة كوماى « دولة منشوريا تتحدث الى العالم » ، وقد تضمنت وصفا لمحادثاته مع اللورد ليتون والآخرين . وقال كوماى ان السؤال الاول الذى سأله ليتون هو : " ألم يكن تأسيس دولة منشوريا سابقا لأوانه بعض الشيء ؟ " فأجاب فى شيء من الهذيان انه كان متأخرا جدا لا مبكرا . واستمرت المحادثة كما يلى :

سألنى الجنرال مكوى : " هل اعلان دولة منشوريا لمبدأ الباب المفتوح مطبق ؟ " فأجبت فى الحال ان الباب المفتوح والفرص المتساوية هما من المبادئ الاساسية فى البلاد . واستطردت : " من بين جميع البلدان التى كان لها تعامل فى السابق مع الصين ، كانت امريكا الروح المرشدة فى مبادرتها الى اتباع هذه السياسة . ولكن بينما هذا المبدأ يقبل الآن فى كل مكان من العالم ، اغلقت الصين ابوابها . أيمكن ان توجد فى الصين الآن ابواب مفتوحة ؟ لقد فتحنا الآن ابواب دولة منشوريا بمفتاح قوى جدا ، واننا لنستحق الشكر على ذلك لا احتجاجاتكم ايها السادة . . . ويجب ان اضيف ايضا انه ليس هناك باب مفتوح عندما يصبح الامر متعلقا بالدفاع الوطنى ، ان هذا لا مثيل له فى اى بلد آخر فى العالم . "

ثم سألنى ليتون : " هل تضع دولة منشوريا مبدأ الفرص المتساوية موضع التطبيق ؟ "

فأجبت دون تردد : " ان بلادك هى التى سبقت الى تطبيق الفرص المتساوية فى الصين . ففى اواخر اسرة تشينغ السابقة ، حيث جلب الانحلال السياسى فى الصين البلاد الى حافة التجزئة ، حذر روبرت هارت بلاط تشينغ من انه اذا ما استمرت الصين فى الطريق الذى تسلكه ، فانها ستتوقف عن اداء اى دور فى الشؤون الدولية . وسيكون من الافضل لها ان تعتمد على الغرب ، كما ان الادارة الجمركية ضرورية تماما . وعندها عينت حكومة تشينغ هارت هذا مفتشا عاما لجمارك الملاحة البحرية الامبراطورية . واسست بذلك ادارة جمارك الملاحة البحرية الامبراطورية . ونظرا الى ان هذه الادارة استخدمت كثيرا من الانكليز والفرنسيين واليابانيين ، فقد عرفت بأنها من اكثر المؤسسات الحكومية المعتمد عليها فى الصين ، وبسببها قدمت الدول قروضا للصين كانت بمثابة مساعدة مالية كبيرة . واعتبر البريطانيون الجمارك تساويا فى الفرص ، ولكن اذا اردنا نحن اليابانيين ان نعمل للجمارك فعلينا ان نجتاز امتحانا قاسيا فى اللغة الانكليزية يتعذر اجتيازه تقريبا .

" . . . ان دولة منشوريا دولة اسست من خلال تعاون المانشويين واليابانيين ، ولهذا السبب تنشر جميع وثائق الدولة باللغتين المانشوية واليابانية . واننا سنرحب ترحيبا حارا بأى شخص من اية جنسية يجيد اللغتين المانشوية واليابانية ويقبل بالشروط التى تقدمها دولة منشوريا . هذا ما نعنيه بتساوى الفرص . "

وسألتهم ان كانت لديهم اية اسئلة اخرى ، فأجابوا جميعا : " لا حاجة لطرح اى سؤال آخر حيث اننا فهمنا تماما وضع دولة منشوريا . واننا راضون تماما . "

وعندما كنت فى وداع اعضاء لجنة تحقيق عصبة الامم فى محطة شينجينغ (تشانغتشون) صافحنى ليتون بحرارة وقال فى خفوت : " اتمنى للدولة منشوريا الجديدة تطورا سليما . "

وسرت هذه المحادثات تشنغ شياو شيوى وابنه سرورا كبيرا ، حتى ان تشنغ تشوى قدر ان عصبة الامم ربما تتخذ قرارا للعمل على ايجاد ادارة دولية لمنشوريا . بل كانا متأكدين اكثر فأكثر من ان هذا سيحدث عندما نشر تقرير لجنة التحقيق . وقد نصت هذه الوثيقة صراحة على ان الصين يجب ان تقبل باشراف دولى . ووصفت رغبة اليابان فى انشاء " حكومة مستقرة " بأنها رغبة ليست " غير معقولة " ، ولكنها اضافت تقول : " انه لفى مجرد جو من الثقة الخارجية والسلم الداخلى . . . سيتحصل وشيكا رأس المال اللازم للتطور السريع فى اقتصاد منشوريا . " وبدا كأن تشنغ وابنه كانا مصيبين فى توقعهما ان تؤيد اللجنة الادارة الدولية مع تأمين حصص لجميع الدول.

تحققت كذلك نبوءة تشنغ شياو شيوى وابنه بمعاداة السوفيات . فقد عبرت اللجنة عن تعاطفها مع اليابان فى اعتبار منشوريا " شريان حياتها " . واعترفت بـ " مصلحة اليابان فى منع منشوريا من ان تكون قاعدة للعمليات الموجهة ضد اراضيها وحتى برغبتها فى ان تكون قادرة على اتخاذ جميع الاجراءات المناسبة اذا ما اخترقت دولة اجنبية فى ظروف معينة حدود منشوريا . " ولكن اللجنة مضت تقول : " انه لمن الممكن ان يسأل ان كان الاحتلال العسكرى لمنشوريا لمدة غير محددة مع ما يستلزم من عبء مادى ثقيل ، هو حقا الطريقة الاكثر فاعلية فى الضمان من هذا الخطر الخارجى ؛ وان كان . . . الجنود اليابانيون لن يصابوا بارتباك شديد اذا هم احيطوا بسكان حرونين او متمردين مدعومين من صين معادية . " ان اليابان " قد تجد من الممكن ، مع تعاطف وارتياح بقية بلدان العالم وعدم تكبدها اية خسارة ، ان تحقق امنا افضل من الذى تحققه بالوسيلة المكلفة التى تسلكها فى الوقت الحاضر " اذا هى اهتدت الى حل " مشابه للترتيبات التى توصلت اليها الدول العظمى الاخرى فى اجزاء متعددة من العالم . "

وعارضت اللجنة العودة الى الوضع السابق او المراهنة على الوضع الراهن

واقترحت بدلا من ذلك ان " نظاما مرضيا للمستقبل يمكن ان ينشأ عن النظام الحالى (اى نظام " دولة منشوريا ") دون اى تغير عنيف " ، ويمكن ان يعطى درجة كبيرة من الحكم الذاتى ويضم اجانب من جميع البلدان للعمل مستشارين . ونظرا الى ان مصالح اليابان فى الشمال الشرقى اكثر من مصالح اية دولة اخرى ، فستكون هناك حصة كبيرة لليابانيين ، ولكن ستكون هناك ايضا حصص محددة للمواطنين من ابناء البلدان الاخرى . ولوضع هذا الشكل الجديد للحكومة موضع التنفيذ اقترحت اللجنة الخطوة الاولى وهى انشاء مؤتمر استشارى يتكون من ممثلى الحكومتين الصينية واليابانية ومن " مراقبين حياديين " . وهذا المؤتمر سيعكس الامر الى مجلس عصبة الامم اذا هو اخفق فى ان يتوصل الى تسوية . وكانت اللجنة مؤيدة للرأى القائل ان طريقة " التعاون الدولى " مناسبة لبقية اجزاء الصين كما هى مناسبة لـ " منشوريا " . والسبب الذى قدموه لذلك هو السبب الذى قدمه تشنغ وابنه : ان الصين تملك فقط قوة عاملة ، واذا هى لم تستورد رأس المال والتكنولوجيا والمواهب فستكون عاجزة عن بناء نفسها .

بعد ايام قليلة من الاطلاع على تقرير اللجنة اخبرنى تشنغ شياو شيوى بنشوة عظيمة ان الامور " تبشر بالخير " . وقال ان هو شى قد نشر مقالة اعلن فيها ان التقرير عبارة عن " حكم عالمى " .

ولكن تشنغ وابنه اصيبا باكتئاب شديد من جراء ردة الفعل اليابانية . فمع ان اللجنة قد ركزت مرارا على انها تحترم حقوق اليابان ومصالحها فى الشمال الشرقى حتى انها وصفت " حادثة ١٨ سبتمبر " بأنها اجراء دفاعى من اليابان ، الا ان ناطقا باسم وزارة الخارجية اليابانية لم يتفق مع اللجنة الا فى نقطة واحدة : " اقتراحات لجنة التحقيق بخصوص منشوريا قد يمكن تطبيقها على العلاقات بين الصين والقوى الاخرى والاستفادة من ذلك كخطة الاشراف الدولى على سبيل المثال . " ولكن اليابان لم تكن مهتمة ابدا

بالخطط الخاصة بالادارة الدولية للشمال الشرقى . وكما ذكرت آنفا ان تحمس تشنغ شياو شيوى لـ " الباب المفتوح " و" الفرص المتساوية " هو السبب فى خسارته فيما بعد عطف اليابانيين ونبذهم له فى النهاية .

وقبل اعلان تقرير اللجنة تخيلت انه اذا ما وضع الشمال الشرقى تحت اشراف دولى كما امل تشنغ وابنه ، فسيكون هذا افضل بكثير بالنسبة لى من ان اكون مع اليابانيين وحدهم . ولكن ظل عندى امران مقلقان . الاول هو ان حكومة تشيانغ كاى شيك فى نانجينغ يمكن ان تشترك فى " الاشراف الدولى " ، وهذا سيجعلنى فى وضع صعب ؛ والثانى هو انه حتى اذا تركتنى حكومة نانجينغ وشأنى ، فان لجنة الاشراف الدولية لا تريدنى امبراطورا اذا لم تكن " الحكومة الذاتية الحكم " ملكية . ولكن الاكثر خطورة هو الانطباع العميق الذى شكلته عن وحشية اليابان التى لم يكبح جماحها اى اجراء دولى . وعندما تذكرت الفكرة التى اومضت فى ذهنى عندما قابلت اللجنة رأيت ان من حسن الحظ اننى لم اتصرف تصرفا احمق ، والا فان اجلى كان قد انقضى . واهم شيء الآن هو عدم ازعاج اليابانيين ، ذلك لأننى لن اكون قادرا على ارتقاء العرش من جديد دون مساعدتهم .

" امبراطور " للمرة الثالثة

وكان قد تم الاتفاق على انه اذا لم يقم جيش قواندونغ بتأسيس ملكية بعد ان تمضى على سنة رئيسا تنفيذيا ، فبوسعى ان استقيل . ولكننى لم افعل ذلك حيث كنت افتقر الى الشجاعة اللازمة ، وحتى اذا سمح لى جيش قواندونغ بذلك فليس امامى مكان اذهب اليه .

وبعد بضعة ايام من الذكرى السنوية لتسلمى المنصب دهشت لقيام

موتو قائد جيش قواندونغ بطرح هذه المسألة خلال احد اجتماعاتنا المنتظمة ؛ وقال ان اليابان تبحث فى شكل " دولة منشوريا " ، وان هذه المشكلة ستحل عندما يحين الموعد الملائم .

وبعد ذلك بوقت قصير ، فى ٢٧ مارس ١٩٣٣ ، انسحبت اليابان من عصبة الامم لتزيد من حريتها فى التحرك . وفى الوقت نفسه انطلقت فى هجوماتها العسكرية على الصين ، مقتحمة جنوب السور العظيم ومطوقة بكين وتيانجين . وفى نهاية مايو قدمت حكومة نانجينغ المنهمكة فى الحرب الاهلية ضد الشيوعيين مزيدا من التنازلات لليابان فى توقيعها على " اتفاقية تانغقو " . وبموجب هذه الاتفاقية انسحب الجنود الصينيون من منطقة واسعة جنوب السور العظيم حيث اشتد تحكم اليابان بشمالى الصين . وكانت هذه الاحداث حافزا قويا لمؤيدى اعادة الملكية الذين نشطوا ثانية فى الشمال الشرقى وفى شمالى الصين . وفى يوليو استقال كوماى ، رئيس مكتب الشؤون العامة فى " مجلس دولة منشوريا " ، من منصبه ليذهب ويعمل سرا من اجل " استقلال " شمالى الصين . واخبر تشنغ شياو شيوى بأنه ذاهب للعمل على اعادة ملكى فى انحاء البلاد كلها . وهذه الاخبار كلها جعلتنى وزملائى مسرورين غاية السرور .

واصبحت احلامى بالامبراطور اكثر حيوية . وتتبعت الاخبار ببالغ الاهتمام معلقا آمالى على الجنود اليابانيين الذين كانوا يذبحون ابناء وطنى . وبعد احتلال اليابانيين لمقاطعة رخه (٤) عام ١٩٣٣ اقمت مأدبة لتهنئة موتو والضباط الآخرين الذين اشتركوا فى القتال ، ولأتمنى لهم دوام الانتصارات العظيمة . وعندما توقف الرتل اليابانى بعد احتلاله مييون ، على بعد خمسين كيلومترا فقط عن بكين ، اصبت بخيبة امل شديدة . واخبرنى تشنغ شياو شيوى ان الاحتلال العسكرى اليابانى لشمالى الصين وحتى لجنوبيها ليس الا مسألة وقت ، والمسألة الملحة حاليا هى اقرار شكل " دولة منشوريا " وقال ان

هذا لا يقرره جيش قواندونغ بل طوكيو ؛ فقد سمع ان كثيرا من رجال الدولة اليابانيين الكبار مؤيدون لعودتى الى العرش . لذلك شعرت بضرورة ان يكون لى شخص فى طوكيو يعمل على كسب تأييدهم ، او ليزودنى على الاقل بآخر الاخبار :

وكان الرجل الذى اخترته لهذه المهمة هو حارسى كودوتيتسو سابورو ، اليابانى الذى رافقنى من تيانجين الى الشمال الشرقى . فقد اعطانى انطباعا عن عدم ارتياحه لموقف جيش قواندونغ ، وكان اليابانى الوحيد الذى يخاطبنى بعبارة " جلالتكم الامبراطورية " بعد ان اصبحت رئيسا تنفيذيا . وقد اظهر ذات مرة ولاءه لى بتذوقه كوب شاى شككت فى انه يحتوى سما ومنحته الاسم الصينى تشونغ (" مخلص ") وعاملته على انه واحد من ابناء اسرتى . وعندما عاد من اقامته القصيرة فى اليابان اخبرنى بأنه رأى مينامى جيرو وبعض الاشخاص القياديين فى جمعية التنين الاسود ، وانه سمع بأن السلطات العسكرية مؤيدة للملكية . وهذه الاخبار جعلتنى اعتقد بأن فرصتى قد اصبحت وشيكة .

وتأكدت تقارير كودو فى اكتوبر ١٩٣٣ . فقد ابلغنى هيشيكارى تاكاشى ، قائد جيش قواندونغ الجديد ، رسميا بأن الحكومة اليابانية على وشك الاعتراف بى " عاهلا لامبراطورية منشوريا " .

فطرت فرحا ، واول ما خطر لى ان احدد ملابس التنين الامبراطورية .

وقد جلبت هذه الملابس من بكين حيث كانت محفوظة عند احدى الزوجات العليات ، ولكننى لم استطع لبسها لأن جيش قواندونغ وضح لى ان اليابان اعترفت بى " عاهلا لامبراطورية منشوريا " وليس لأسرة تشينغ العظيمة . وتعين ان البس بدلا من ذلك " بزة القائد العام للقوات البرية والبحرية والجوية لامبراطورية منشوريا " . فقلت لتشنغ شياو شيوى :

— هذا لا يمكن ان يتم اطلاقا . اننى سليل آيشين — جيولوه ، لذلك سأستمر فى النظام الامبراطورى . واضافة الى ذلك ماذا سيقول ابناء عشيرة

آيشين ــ جيولوه اذا رأونى ارتقى العرش ببزة اجنبية الطراز ؟

فقال تشنغ شياو شيوى وهو ينظر الى ثياب التنين الموضوعة على الطاولة :

ــ ان جلالتكم على صواب تام ، ولكن ماذا سيقول جيش قواندونغ ؟

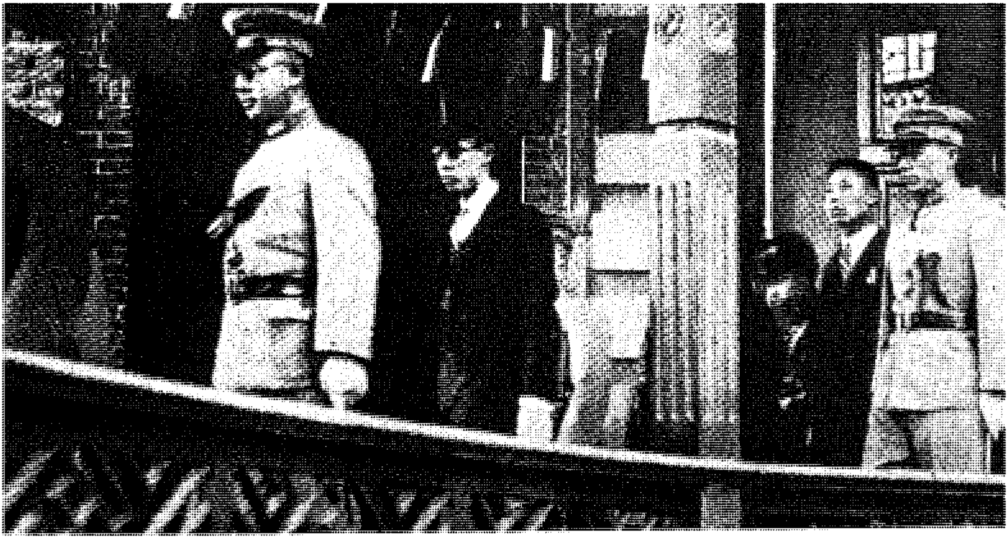
ــ اذهب وحدثهم نيابة عنى .

وبعد ان غادر حدقت الى ثياب التنين بعاطفة مشبوبة ، تلك الثياب التى حفظتها الزوجة العلية رونغ هوى اثنتين وعشرين سنة . لقد كانت ثياب تنين امبراطورية حقيقية لبسها قبلى الامبراطور قوانغ شيوى ، ثيابا ظللت احلم بها اثنين وعشرين عاما . سوف البسها لأرتقى العرش من جديد ، وهذا سيحدد اعادة ملكية اسرة تشينغ .

ورجع تشنغ شياو شيوى قبل ان يعاودنى الهدوء ، وقال ان جيش قواندونغ يصر على ان البس بزة عسكرية من اجل التتويج . فلم ارض بذلك ، وارسلت تشنغ للتفاوض معهم مرة ثانية . وفيما بعد وافقوا على السماح لى بلبس ثياب التنين لأداء مراسم " اعلان الارتقاء الى السماء " ، فرضيت بذلك .

وفى ١ مارس ١٩٣٤ اديت الشعائر القديمة لاعلان ارتقائى فوق " مذبح سماوى " ترابى نصب فى ضاحية تشانغتشون الشرقية ، وبعد هذا عدت الى مقرى حيث بدلت ثياب التنين الى بزة " القائد العام " لأؤدى مراسم التتويج . وقد اعطى " مكتب الرئيس التنفيذى " اسما جديدا هو " مكتب القصر " ، واصبح المكان الذى كنت اقيم فيه يدعى " قصر الامبراطور " . (عبارة " القصر الامبراطورى " لم يكن ممكنا استخدامها لأن ذلك كان اسم القصر للامبراطور اليابانى .) وباستثناء مبنى جديد آخر فان القصر كان بالضبط هو " مقر الرئيس التنفيذى " بعد ان اعيد تزيينه واعطى اسما جديدا . وفى احدى قاعاته اقيمت حفلة التتويج .

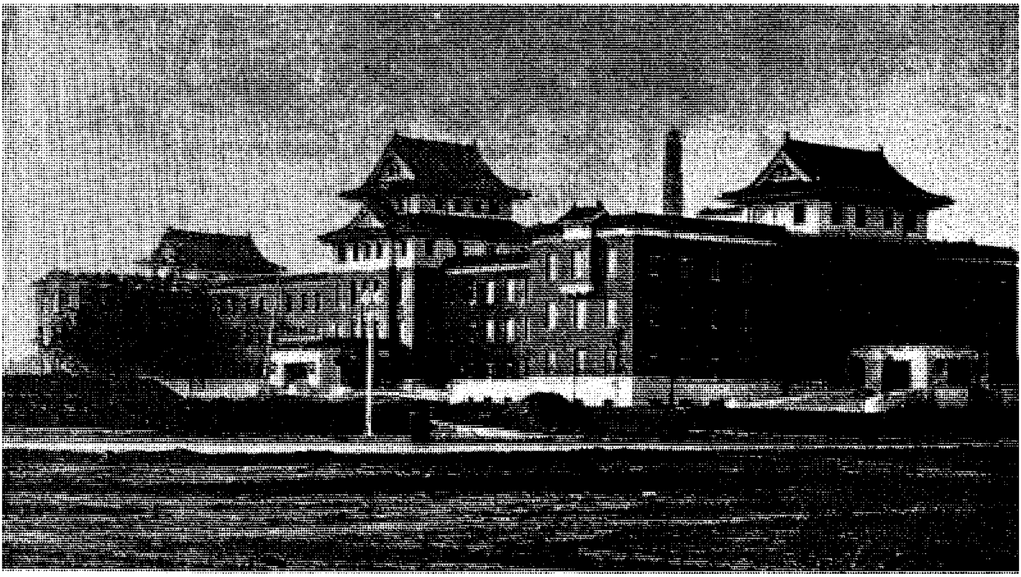
فرشت الارض بسجادة قرمزية . وعلق على جزء من الجدار الشمالى ستائر حرير وضع امامها كرسى عالى الظهر نقش عليه " الشعار الامبراطورى "



فى الطريق لتسلم منصبى "رئيس تنفيذى
لدولة منشوريا" فى ٩ مارس ١٩٣٢

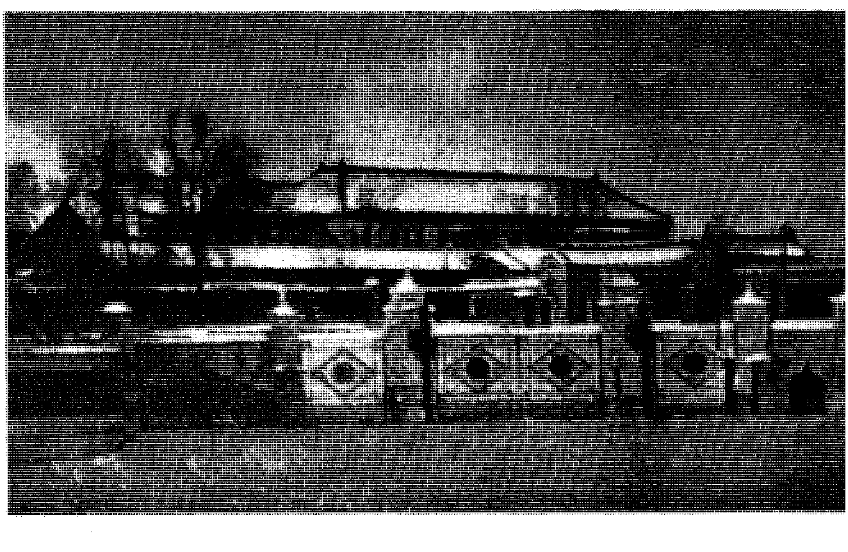
التوجه لتقديم القرابين للسماء قبيل الاحتفال بـ "ارتقائى"
عرش "امبراطورية منشوريا" فى ١ مارس ١٩٣٤

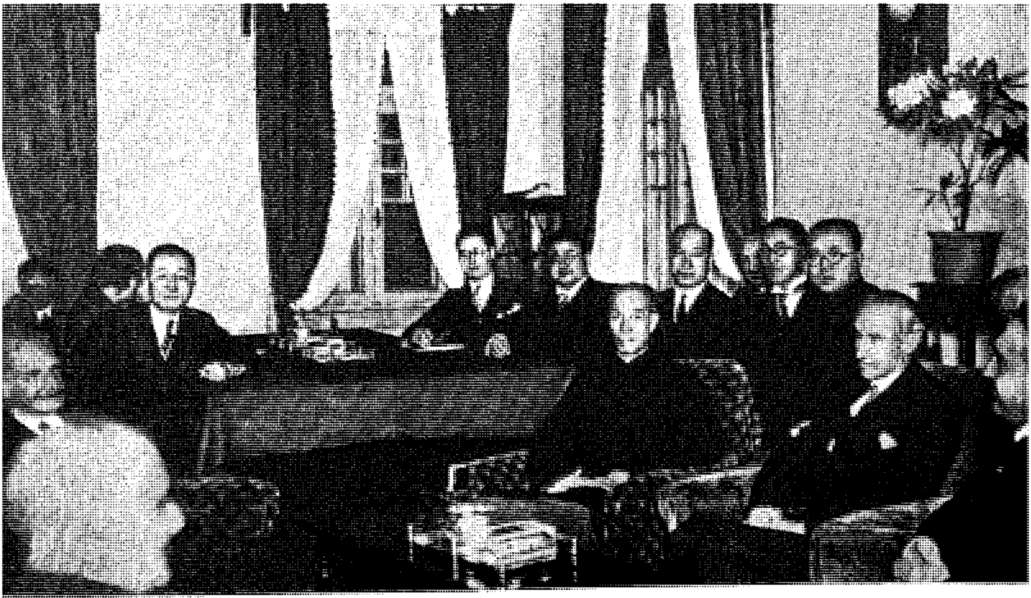




المقر العام لجيش قواندونغ الياباني

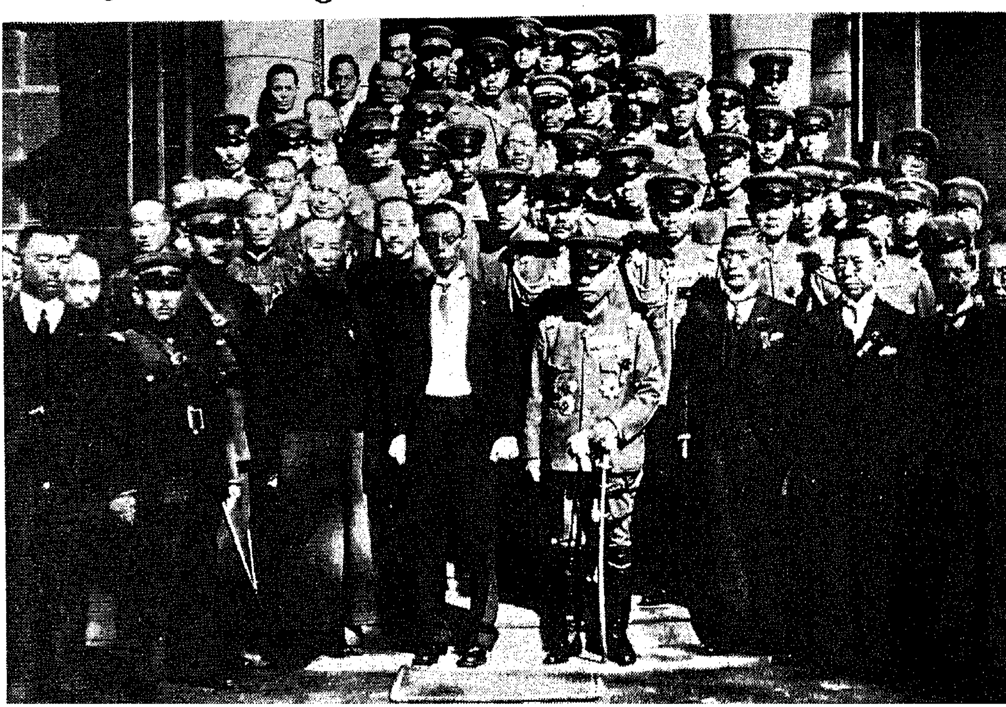
" قصري " في تشانغتشون

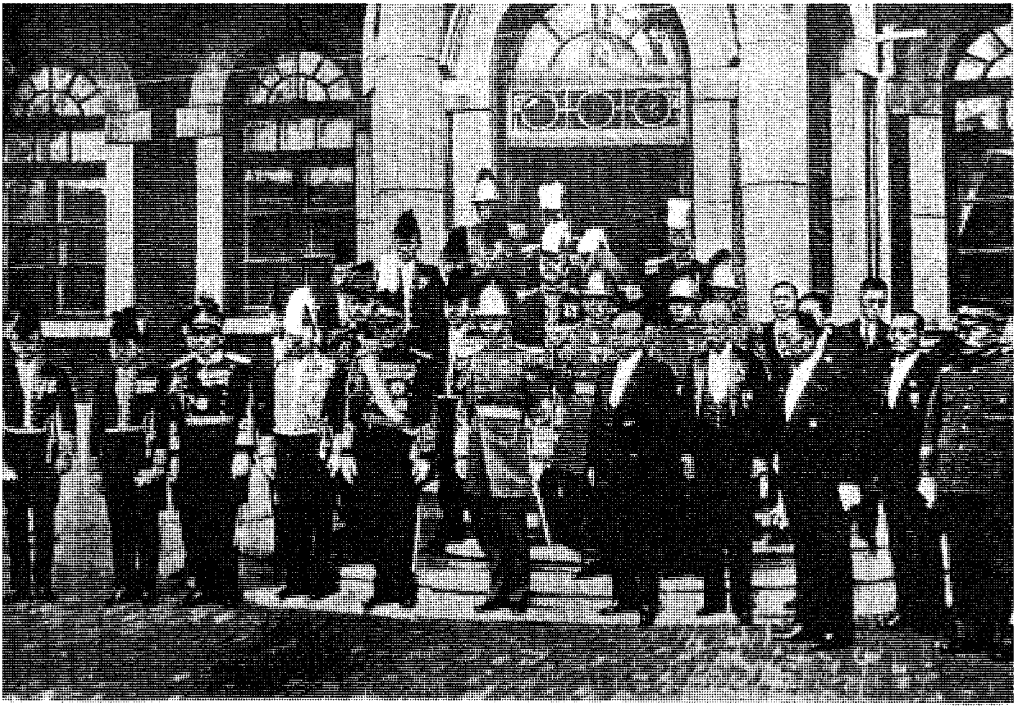




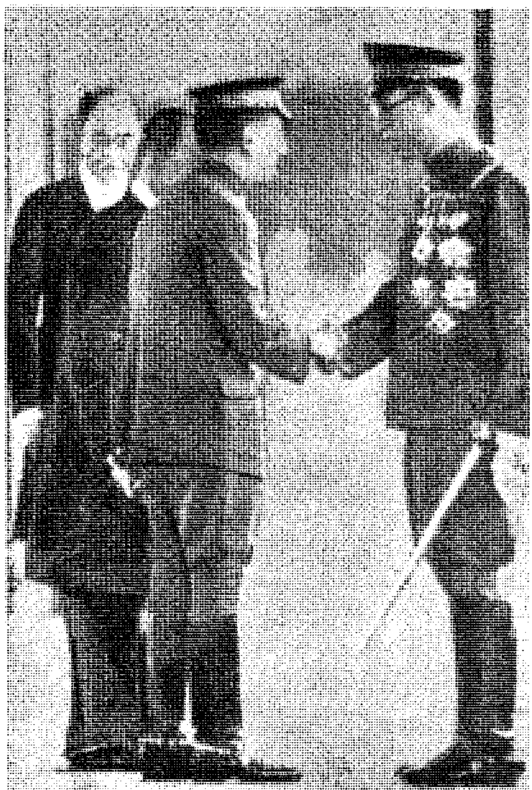
تشنغ شياو شيوى يقابل لجنة ليتون . الثانى من اليمين : اللورد ليتون ، السادس من اليمين :
تشنغ تشوى ، السابع من اليمين : تشنغ شياو شيوى ، العاشر من اليمين : كوماى توكيوزو

بعد توقيع " بروتوكول اليابان — امبراطورية منشوريا ". الصف الامامى ، الرابع من اليمين : موتو نوبويوشى ، قائد
جيش قواندونغ . السابع من اليمين : تشانغ جينغ هوى . الصف الثانى ، السابع من اليمين : اتاجاكى سايشيرو





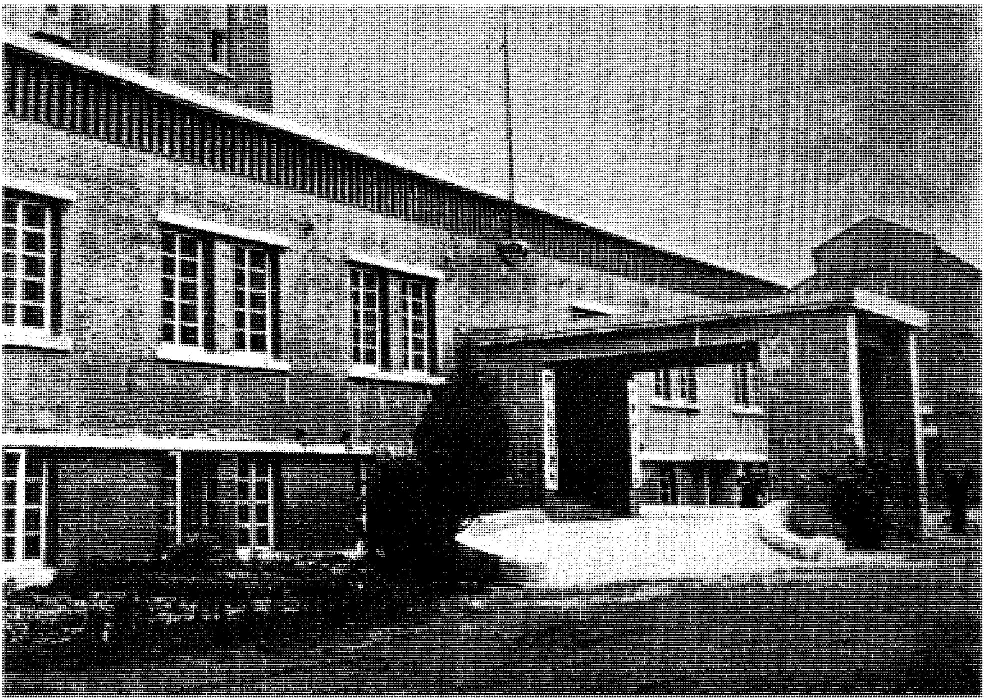
صورة جماعية تضم "امبراطورى الاعلى" ، قائد جيش قوأندونغ هيشيكارى تاكاشى (الخامس من اليسار) ، التقطت بعد تتويجى امبراطورا عميلا



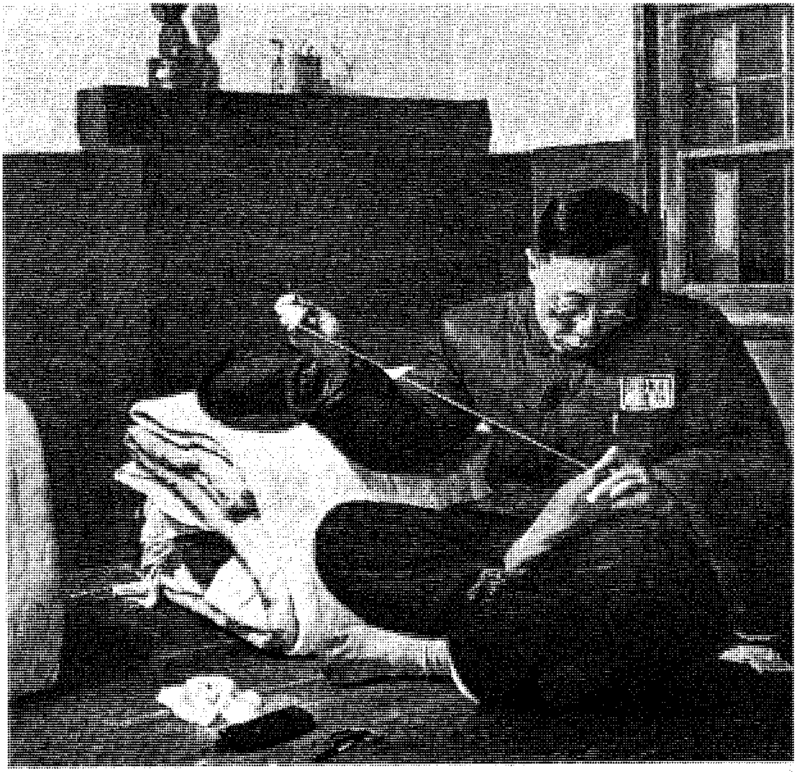
لقائى مع الامبراطور اليابانى هيروهيتو خلال زيارتى الى اليابان عام ١٩٣٥

التعبد فى " معبد التأسيس الوطنى "





سجن مجرمي الحرب في فوشون



التعلم من لا شيء

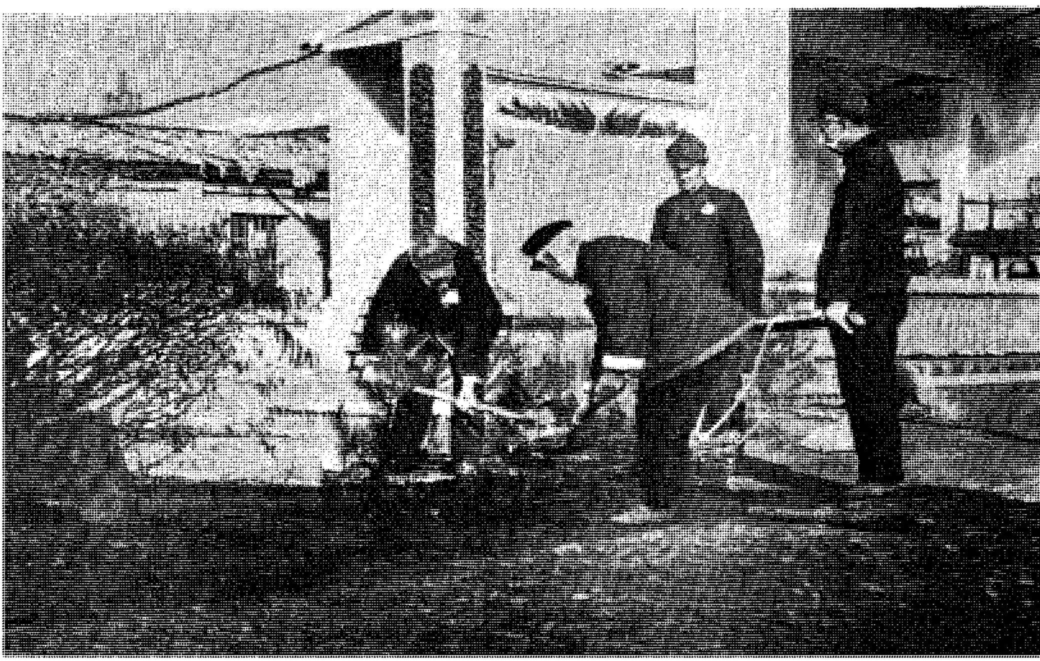




سقى النباتات
داخل الدفيئة

العمل

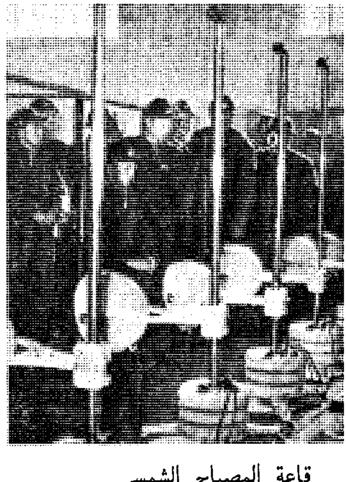
تحسين الفناء





حانوت تحت الارض

زيارتنا الى مناجم فوشون



قاعة المصباح الشمسى



دار العمال العجزة







الدراسة والحياة اليومية

فى الاعلى : مراجعة المصادر

فى الوسط : مطالعة آخر عدد من صحيفة الحائط

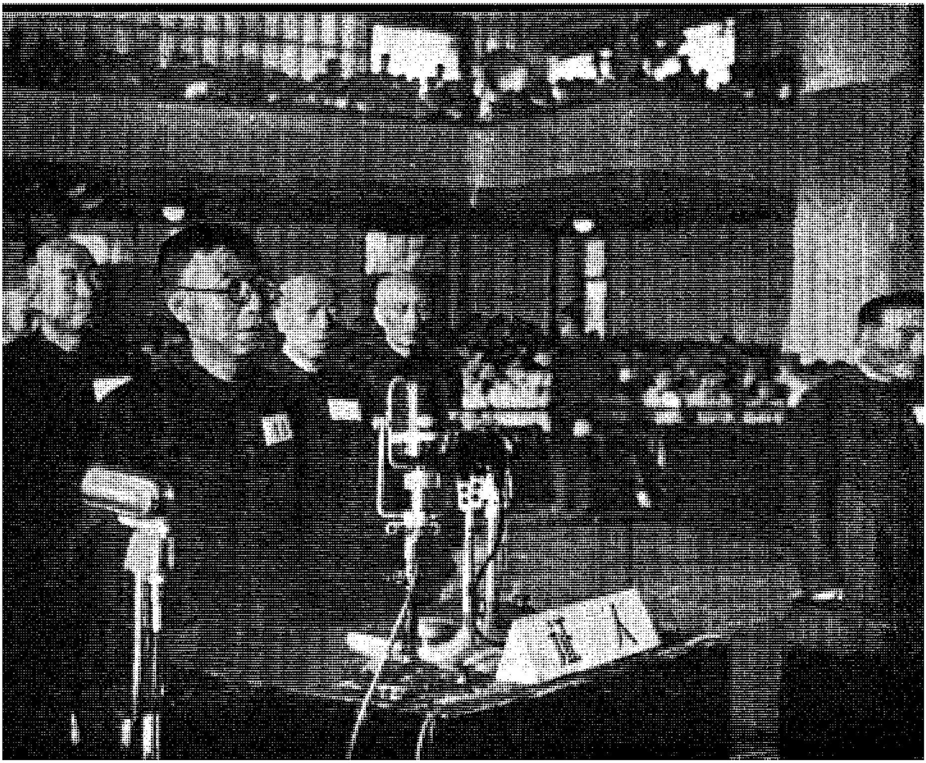
فى الاسفل : دراسة الطب التقليدى الصينى



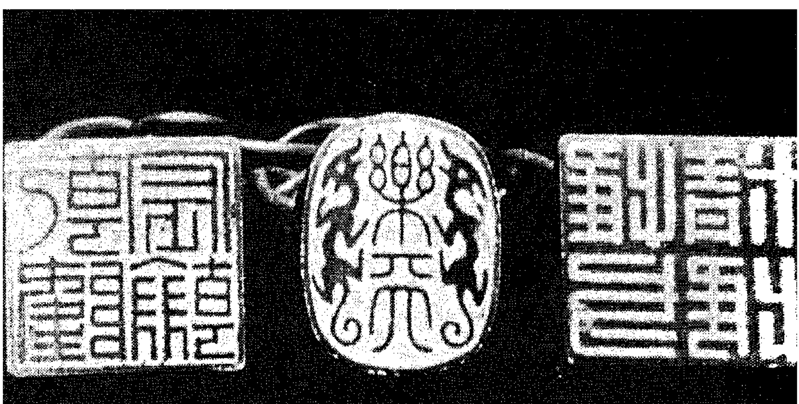
التمارين الصباحية



لعبة ويتشى مع بو جيه



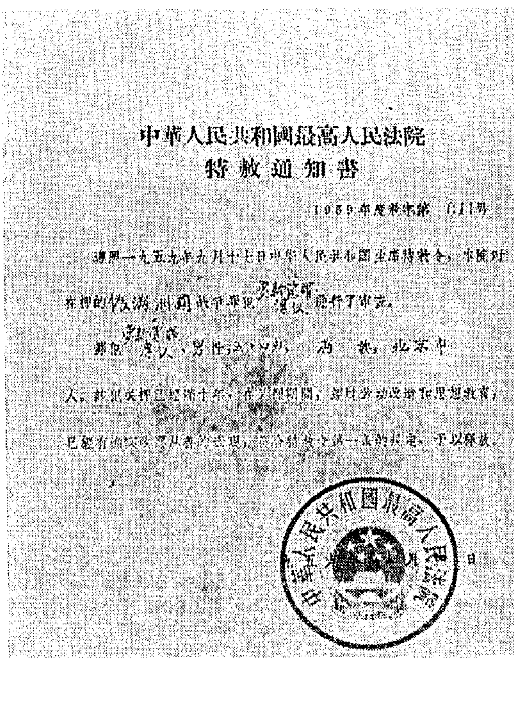
الظهور شاهداً فى المحكمة العسكرية للمحكمة الشعبية العليا . واقفاً على اليمين فورومى تادايوكى



تراث الاسرة الذى سلمته للدولة :
الأختام الامبراطورية من حجر "تيانهوانغ"



استلام العفو الخاص
فى ٤ ديسمبر ١٩٥٩



中華人民共和國最高人民法院
特赦通知書

1959年度赦字第011号

遵照一九五九年九月十七日中华人民共和国主席特赦令，本院对

在押的伪满洲国战争罪犯 爱新觉罗 溥仪 进行了审查。

[illegible]

人。[illegible]

[illegible]，予以释放。

الاشعار الرسمى المتضمن العفو الخاص



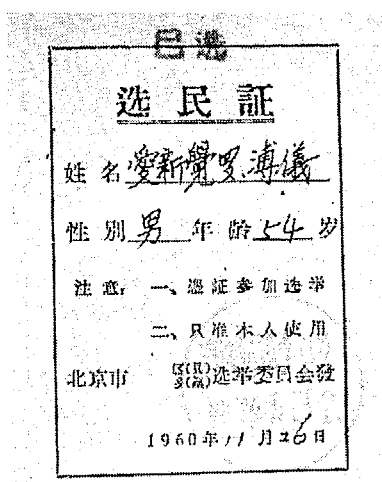
العمل فى حديقة
بكيـن للنباتـات



دراسة الأدب والتاريخ مع
زميلى يانغ بوه تاو (الاول
من اليسار) ووانغ ياو
وو (الثانى من اليسار)



ثلاثة اجيال من عشيرة آيشين — جيولوه يمضون عيد الربيع عام ١٩٦١ فى بيت تساى تاو . تساى تاو يلينى الى اليمين ، و بو جيه خلفى



已選

选民証

姓名 愛新覺罗溥儀

性别 男 年龄 54 岁

注意：一、憑証参加选举

二、只准本人使用

北京市 区(县)选举委员会發

1960年11月26日

بطاقتى الانتخابية



صورة اخذت بمناسبة الذكرى السنوية الخمسين لثورة ١٩١١ .
من اليسار : لو تشونغ لين ، من اليمين : شيونغ بينغ كون

جانب من الزفاف يوم عيد العمال عام ١٩٦٢ ، عروستي لي شو شيان وانا ، الثاني والثالث من اليمين ، الصف الاوسط





التوجه الى العمل فى الصباح مع زوجتى لى شو شيان

من نبات السلحب ووقفت امام هذا الكرسى وعلى جانبى الاثنين موظفو القصر . ووقف الموظفون المدنيون والعسكريون ، وعلى رأسهم رئيس الوزراء تشنغ شياو شيوى ، فى صف امامى وانحنوا لى انحناءة شديدة ثلاث مرات . وانحنيت ردا على انحناءاتهم . ومن ثم قدم لى هيشيكارى قائد جيش قواندونغ اوراق اعتماده " سفيرا " يابانيا وهنأنى . وانتهت المراسم ، وجلست على كرسى العرش ، فأدى لى ابناء عشيرة آيشين — جيواوه الذين جاءوا من بكين وبعض اعضاء ادارة الاسرة السابقين السجدات التسع وانا جالس على الكرسى .

وارسل لى مخضرمو اسرة تشينغ من الصين جنوبى السور العظيم مذكرات التهنئة ، وكان زعيم عالم الرذيلة والاجرام فى شانغهاى تشانغ يوى تشينغ بين اولئك الذين اعلنوا عن انفسهم اتباعا لى .

وفى ٦ يونيو جاء الامير تشيتشيبو (تشيتشيبو — نو — ميا ياسوهيتو) ، ليهنئنى باسم شقيقه الامبراطور اليابانى . واعطانى الوشاح اليابانى الكبير الاقحوانى ، كما اعطى وان رونغ وسام التاج .

ولم احصل على جميع الحقوق التى كان هو سى يوان يذكرنى بالمطالبة بها دائما ، ولكننى كنت غافلا عن ذلك . وكانت الطريقة التى استقبلت بها والدى فى محطة تشانغتشون عندما جاء من بكين مع اشقائى وشقيقاتى بعد شهر ، صورة رائعة للنشوة العظيمة التى كنت استشعرها .

فقد ارسلت مجموعة من موظفى القصر والحرس ليصطفوا على رصيف محطة القطار لاستقباله ، بينما انتظرت انا ووان رونغ خارج بوابة القصر . ولبست هى ملابس البلاط بينما لبست انا البزة العسكرية ، وغطى صدرى بالنياشين اليابانية و" المانشوية " ونياشين من " امبراطورية تشينغ العظيمة " ارسلت فى طلبها من جنوب السور العظيم . ولما كنت لا اجرؤ على لبس نياشين تشينغ هذه امام جيش قواندونغ ، فقد سررت بهذه المناسبة لاظهارها .

وعندما وصلت سيارة والدي الى القصر حييته تحية عسكرية وركعت له

وان رونغ ، ومن ثم رافقته الى قاعة جاوس لم يكن فيها احد سوانا . فركعت له وحييته على الطراز القديم .

واقيمت فى ذلك المساء مأدبة كبيرة ، وكان اساوب الطبخ وقاعدة التشريفات غربيين ، وجلست انا ووان رونغ على رأس الطاولة بصفة مضيف ومضيفة . ورتبت الامور بحيث تعزف جوقة موسيقية منذ اللحظة التى ندخل فيها قاعة المأدبة ؛ ولا اذكر الآن ما عزفته تلك الجوقة ، وربما لم اختر اى مقطوعة خاصة لأننى كنت احب اى شيء يعزف على البوق .

وعندما حان وقت شرب الشامبانيا رفع اخى بو جيه كأسه ، وفقا لما رتبت مقدما ، وهتف : " عاش الامبراطور صاحب الجلالة ! " فاشترك جميع افراد اسرتى فى ترديد هذا الهتاف ، مما جعلنى اتيه زهوا .

.. وفى اليوم التالى اخبرنى موظف القصر الكبير ، باو شى ، ان القيادة العامة لجيش قواندونغ قد ارسلت شخصا ليحتج باسم السفير اليابانى على اختراقى للاتفاقية بين سلطات الشمال الشرقى السابقة واليابان والتى على " امبراطورية منشوريا " الالتزام بها ، وذلك بارسالى حرسا مسلحا الى المحطة . فبموجب هذه الاتفاقية اعتبر شريط الارض الذى على جانبى خط السكة الحديدية ارضا لادارة سكة حديد جنوبى منشوريا ، ولم يكن مسموحا لأى مسلح بدخولها ما عدا افراد الجيش اليابانى . وارادت القيادة العامة لجيش قواندونغ — لا ، السفير اليابانى — ضمانا بألا يتكرر مثل هذا التجاوز ثانية .

وكان هذا كافيا لأن يردنى الى صوابى ، ولكن اليابانيين ابقوا لى كثيرا من ماء الوجه . فلم يقوموا بأى احتجاج علنى ، ولم يقولوا عن تلك الحادثة اكثر من ذلك بعد ان ارسلت شخصا ليعتذر ويعد بأن لا يحدث ذلك ثانية . والأهم من هذا انهم رتبوا اشياء كثيرة من الابهة والحفاوة لارضاء غرورى وابقائى اعمى عن الحقيقة .

واكثر ما وجدته باعثا على النشوة فى نفسى هو تلك الزيارات والجولات

" الامبراطورية " ؛

فقد رأى جيش قواندونغ وجوب قيامي برحلة او رحلتين الى خارج تشانغتشون كل سنة ، وسموا هذه " الجولات الامبراطورية " . وتعين ان اشترك كذلك فى اربعة احتفالات رسمية سنويا فى تشانغتشون . احدها تقديم القربان عند " باغودا الارواح المخلصة " لليابانيين الذين قتلوا فى الحرب العدوانية ؛ والثانى تقديم القربان للجنود الموتى من جيش " امبراطورية منشوريا " العميل فى " معبد الارواح المخلصة التى اسست البلاد " ؛ والثالث زيارة مقر القيادة لجيش قواندونغ لتقديم التهانى فى عيد ميلاد الامبراطور اليابانى ؛ والرابع هو حضور الاجتماع السنوى لـ " جمعية الوئام " . ووصف زيارتى الى اجتماع " جمعية الوئام " يمكن ان يوضح الضجة السخيفة التى صاحبت هذه المناسبات .

لقد انطلقت الى هناك فى موكب من السيارات جدير بامبراطور . وتحركت فى البداية سيارات الدرك ، وتلتها على مسافة سيارة حمراء مكشوفة يجلس فيها مدير الشرطة . وخلفها اتت سيارتى ، وكانت حمراء ايضا ، وعلى كل جانب من جانبيها دراجتان ناريتان . وفى مؤخر الموكب سيارات اتباعى وسيارات اخرى للدرك .

وقبل يوم من خروجى كان بوليس ودرك تشانغتشون يقبضان على جميع " الشخصيات المريبة " و" المتشردين " القبيحين ، وفى اليوم نفسه انتشر رجال الدرك على طول الطريق التى سأسلكها ليمنعوا الناس من السير فيه ، ولم يكن يسمح لأحد بالدخول الى المحلات والمنازل المحاذية للطريق والخروج منها او حتى بأن يطلوا برؤوسهم من النوافذ ، وكان الرمل يذر على الطريق المؤدية الى " جمعية الوئام " . وقبل ان تغادر سيارتى القصر تعلن محطة الاذاعة على المدينة كلها باللغتين الصينية واليابانية ان " عربة الامبراطور صاحب الجلالة تغادر القصر " . ولدى سماع هذا الاعلان يخرج جميع

موظفى " جمعية الوئام " للقائى ، وعندما تصل سيارتى ينحنون لى انحناءة شديدة يرافقها عزف " النشيد الوطنى " . وبعد استراحة قصيرة اقابل "وز راثى" . وعندما ينتهى هذا الفصل اذهب الى القاعة الرئيسية واعتلى المنصة على انغام موسيقى ، وينحنى المجلس بكامله انحناءة شديدة ، وينحنى قائد جيش قواندونغ انحناءة خفيفة ، فأهز رأسى ردا على تحيته . ثم اتلو خطابا على اعضاء المجلس الذين يقفون جميعا ناكسى الرؤوس اذ لا يسمح لهم بالنظر الى الاعلى ، ويختم ذلك بانحناءة جماعية شديدة لدى مغادرتى القاعة . وعندما اتحرك عائدا الى القصر يذاع اعلان آخر من مكبرات صوت فى كافة انحاء المدينة ، واعلان ثالث لدى وصولى القصر .

وقيل ان هذا كله قد اخذ عن اليابان . وكانت الكلمات المطبوعة على صورتى الفوتوغرافية ايضا مأخوذة عن اليابان . وكان يكتب على صورتى " السيماء الامبراطورى " ، ولكن عندما اخذت اشجع اللغة الصينية ذات الطراز اليابانى ، التى مال اليها اليابانيون تحت اسم " اللغة الوئامية " اعيدت تسميتها الى " صورة الامبراطور الحقيقية " . وكانت هذه الصور تعرض فى الدوائر والمدارس ووحدات الجيش وجميع المؤسسات العامة . فمثلا كان يقام نوع من المشكاة فى قاعات اجتماع الدوائر ومكاتب مدراء المدارس ؛ وفى خارج المشكاة تعلق ستارة ، وخلفها تعلق صورتى مع نسخة عن " مرسوم الامبراطورى " . وكل من يدخل القاعة عليه ان ينحنى اولا نحو الستارة . ومع انه لم يكن هناك قانون يأمر المواطنين العاديين باقتناء " صورة الامبراطور الحقيقية " فى بيوتهم ، الا ان " جمعية الوئام " غالبا ما كانت تجبر الناس على شراء صورتى المشتركة مع صورة وان رونغ وتعليقها فى حجراتهم الرئيسية .

والمراكز الرئيسية التى كانت تنتشر فيها هذه الوثنية هى المدارس والقوات المسلحة . فكان يعقد اجتماع فى المدارس ووحدات الجيش كل صباح يترتب فيه على المشتركين الانحناء الشديد ، اولا فى اتجاه القصر الامبراطورى

فى طوكيو ، ومن ثم باتجاه قصرى فى تشانغتشون . وكلما مرت الذكرى السنوية لصدور احد " مراسيمى " ، كان يقرأ عاليا . وسأقول المزيد عن هذه " المراسيم " فيما بعد .

وان اخوض فى الحديث عن " الجولات الامبراطورية " التى بنى بها اليابانيون سلطانى . فقد قاموا بها على اكمل وجه ، وهذا بحسب خبرتى لم يكن لمجرد جعل الصينيين يتعودون الطاعة العمياء ويؤمنون بالمعتقدات الخرافية والاقطاعية ، بل لترك نفس التأثير فى الشعب اليابانى ايضا . فما زلت اذكر ان كبير العمال اليابانى فى احد مناجم الفحم قد تأثر حتى البكاء بسماع كلمات قلتها له على انها " وسام شرف " . وهذا جعلنى بالطبع اشعر اننى ذو شأن حقا .

بلغت اوهامى وافكارى الخاطئة اوجها عند زيارتى لليابان فى نيسان ١٩٣٥ حيث ظننت انى قد وصلت الى قمة السطعة . قام بكل ترتيبات هذه الزيارة جيش قواندونغ . وقالوا انها ستكون ضرورية لأعرب عن امتنانى للامبراطور اليابانى على ارساله الامير تشيتشيبو لتهنئتى بارتقاء العرش ، ولأتمكن من ابداء دليل شخصى على " الصداقة اليابانية — المانشوية " .

وشكلت الحكومة اليابانية لجنة استقبال من اربعة عشر عضوا يترأسها البارون هاياشى غونسيوك ، عضو المجلس الاستشارى . وارسلت البارجة " هاى مارو " لتحملنى ، وبصحبتها سفن حربية اخرى للحماية . وعندما ابحرت من داليان استعرضت المدمرات اليابانية وكانت هناك مائة طائرة تحلق تحية لى فوق سماء يوكوهاما . واذكر اننى نظمت قصيدة تملق وانا اعانى من دوار البحر واشعر بأننى غمرت بالتشريف الذى استقبلت به فى هذه الرحلة .

البحر منبسط كمرآة
وانا اقوم برحلة طويلة .

البلدان يرفعان ايديهما ،
من اجل عزة الشرق .

وفى اليوم الرابع من هذه الرحلة شاهدت مناورات قامت بها سبعون سفينة حربية ، فكتبت بعض الابيات الاخرى :

القوارب التى تبحر عشرة آلاف لى
تمخر عباب الامواج المحلقة ،
بينما السماء والارض
تمتزجان فى زرقة لازوردية واحدة .
لم اقطع هذه المسافات
لأتمتع بمرآى الجبال والمياه ،
ولكن لكى نجعل تحالفنا مشرقا
مثل الشمس والقمر .

وهكذا حتى قبل ان تطأ قدمى ارض اليابان اخذت بعظمتها ، واعتبرت جميع التشريفات التى لقيتها فى الرحلة دليلا على ان اليابان تحترمنى احتراما وديا وتساعدنى مساعدة حقيقية . وبدت لى جميع هواجسى الماضية لا اساس لها الآن .

وعندما وصلت الى طوكيو جاء الامبراطور هيروهيتو نفسه ليستقبلنى فى المحطة . ثم اقام لى مأدبة . وعندما ذهبت لزيارته ، رد لى الزيارة . واستقبلت ارباب دولة يابانيين كبار قدموا لى تهانيهم ؛ واستعرضت الجنود مع هيروهيتو ؛ وذهبت لزيارة ضريح الامبراطور ميجى ومستشفى عسكرى كان فيه بعض الجنود ممن جرحوا فى غزوهم الصين . وذهبت كذلك لأقدم احتراماتى لأم هيروهيتو . ووصفت الصحافة اليابانية نزهة خرجنا فيها معا ، قائلة ان الروح التى ساعدت بها ام الامبراطور اليابانى على صعود مرتفع من الارض هى نفس الروح التى ساعدت انا فيها والدى على صعود السلالم

داخل القصر فى تشانغتشون . والواقع اننى لم اساعد والدى مطلقا على صعود درجة واحدة ، وما اسندت والدة هيروهيتو الا لأفوز بالحظوة لديها . وفى اليوم الاخير من زيارتى كان ياسوهيتو (الامير تشيتشيبو) فى المحطة ليودعنى نيابة عن شقيقه الامبراطور .

وقال فى خطابه الوداعى : " ان زيارة جلالتكم الامبراطورية هذه لليابان اسهام عظيم فى تعزيز الصداقة بين اليابان وامبراطورية منشوريا وان املى ان تعود جلالتكم الى بلادكم مقتنعين الاقتناع الصحيح بأن الصداقة بين بلدينا يمكن ان تتحقق بالتأكيد . "

وكان جوابى متزلفا كالسابق : " لقد تأثرت تأثرا عميقا بالحفاوة الرائعة التى قدمتها لى الاسرة الامبراطورية اليابانية وبالترحيب الحار الذى قدمه لى الشعب اليابانى . اننى مصمم على ان ابذل كل ما فى وسعى لأكافح من اجل صداقة ابدية بين اليابان وامبراطورية منشوريا . "

وعندما صعدت متن سفينتى دمعت عيناى وانا اطلب من البارون هاياشى ان ينقل شكرى الى الامبراطور ووالدته ، واثاره ذلك ايضا فبكى . ولم يكن فى اى شىء صينى على الاطلاق .

ان المعاملة التى لقيتها من البيت الامبراطورى اليابانى قد اثرت فى نفسى حقا ، وبدا للهواء نكهة مختلفة بعد ان اصبحت الآن امبراطورا . وحسب منطقى كنت مساويا للامبراطور اليابانى ، وشعرت انى اشغل فى " امبراطورية منشوريا " المنزلة التى يشغلها هو فى اليابان ؛ لذلك ينبغى لليابانيين ان يعاملونى بنفس الطريقة التى يعاملون بها عاهلهم .

وامتلأ ذهنى بهذه الاوهام ، فعدت الى تشانغتشون واصدرت " المرسوم التذكيرى بمناسبة عودة الامبراطور " الذى دعم بتعابير التملق . ودعوت قائد جيش قواندونغ الجديد ، الجنرال مينامى جيرو ، ليأتى لزيارتى حتى اعبر له عن امتنانى ؛ وفى اليوم التالى (٢٩ ابريل) كنت مشاركا متحمسا

فى الاحتفال بعيد ميلاد هيروهيتو . وفى اليوم الثالث اصدرت امرا بأن يحضر الى جميع الموظفين الكبار فى العاصمة ، سواء منهم الصينيون ام اليابانيون ، ليستمعوا الى حديثى عن زيارتى الى اليابان . ولم اناقش هذا الامر مع اليابانيين مقدما ، كما لم احضر اية مذكرات آخذ عنها حديثى . وعندما حان الموعد تدفقت فى الحديث ارتجالا عن زيارتى ، واصفا بالتفصيل كيف قابلنى الامبراطور اليابانى ومتوسعا فى وصف الاحترام الذى عاملنى به اتباعه . وانتهى خطابى بالفقرة التالية :

ان الصداقة بين اليابان وامبراطورية منشوريا قد قادتنى الى الاعتقاد الراسخ بأنه اذا ما تصرف اى يابانى ضد مصالح امبراطورية منشوريا فسيرتكب بذلك ذنب عدم الولاء لصاحب الجلالة امبراطور اليابان ، وانه اذا ما تصرف اى مانشوى ضد مصالح اليابان فسيكون بذلك غير وفى لعاهل امبراطورية منشوريا . وان عدم الوفاء لعاهل امبراطورية منشوريا هو تماما كعدم الوفاء لامبراطور اليابان ، وعدم الوفاء لامبراطور اليابان يساوى عدم الوفاء لامبراطور منشوريا .

وبعد شهر من عودتى الى تشانغتشون اخبرنى مينامى قائد جيش قواندونغ فى احد اجتماعاتنا المنتظمة بأن " رئيس الوزراء تشنغ شياو شيوى يرغب فى ان يتقاعد لأنه مرهق من الجهود التى يبذلها . " ونصحنى بأن اوافق على الطلب واستبدل به رئيس وزراء جديدا . وكنت قد سمعت قبلها بأن اليابان غير راضية عن تشنغ واننى انا شخصيا كنت ابحث عن عذر ما للتخلص منه ، لذلك عندما عرض مينامى على هذه المسألة وافقت فى الحال واقترحت ان يكون تسانغ شى يى خلفا له . وظننت ان مينامى الذى سمع آرائى فى الصداقة اليابانية — المانشوية مرتين فى الايام الاخيرة سيستجيب حتما لأمرى ، ولكننى وجدت لدهشتى اننى اصطدم بجدار من الصخر . فقد اجابنى هازا رأسه :

— كلا ، ان جيش قواندونغ قد درس المسألة واختار رجلا مناسبا . فلا

داعى الى ان تقلق جلالتكم ؛ فكل شيء سيكون على ما يرام اذا انتم اخترتم تشانغ جينغ هوى لهذه المهمة .

والذي حدث انه منذ وقت غير طويل كان تشنغ شياو شيوى هذا قد ازعج سادته اليابانيين بقوله انه ما دامت " امبراطورية منشوريا " قد شبت فلم تعد هناك حاجة اليهم لممارسة تحكم شديد كهذا ؛ لذلك ركلوه جانبا . وجمد حسابه المصرفى ، ومنع من الخروج من تشانغتشون . واقام فى البيت يائسا تحت مراقبة الدرك اليابانى الى ان مات فجأة بعد ثلاث سنوات . وكان ابنه قد مات قبله بثلاث سنوات نفس الميتة . وقد اشيع ان موتهما كان من تدبير اليابانيين . وحتى اذا كان هذا غير صحيح فان سقوط تشنغ شياو شيوى كان كافيا بحد ذاته لتحطيم اوهامى ؛ ولكننى بقيت سادرا لمدة سنة اخرى قبل ان ابدأ رؤية ما كانت عليه حقيقة وضعى .

نهاية الوهم

منذ انسحاب اليابان من عصبة الامم فى بداية عام ١٩٣٣ وهى تندفع فى توسيع قواتها بأقل كبحا من السابق استعدادا للحرب . وقد افردت اهتماما خاصا لتعجيل ترتيباتها من اجل غزو الصين بكاملها . وحتى قبل وقوع حادثة لوقوتشياو فى ٧ يوليو ١٩٣٧ استأنفت اليابان استخدام القوة المسلحة واختلاق الحوادث فى شمالى الصين ، بينما قامت حكومة الكومينتانغ فى نانجينغ بتنازل اثر تنازل . فقد وقعت " اتفاقية خه — اميزو " عام ١٩٣٥ و " اتفاقية تشين — دويهارا " ومعاهدات سرية اخرى مكنت اليابانيين من التحكم بشمالى الصين ، وتغاضت عن نشاط " الحكومة العسكرية الذاتية الحكم فى منغوليا الداخلية " و " الحكومة الذاتية الحكم المعادية للشيوعيين فى شرقى خبى " وغير ذلك من الاجهزة العميلة . واكدت لليابانيين على نحو

متكرر " اننا ليس فقط لن نزج انفسنا فى نشاطات او افكار ضد اليابانيين ، بل ليس لدينا اى سبب يدعونا لأن نكون ضد اليابانيين " . واعلنت تعميما على الشعب بضرورة " الوئام مع الجيران " ، واصدرت كثيرا من اوامر الحظر على النشاطات المعادية لليابانيين تحت طائلة عقوبات شديدة . وهذا كله عزز كثيرا من وضع اليابان فى شمالى الصين ، وجعل من ضياع المقاطعات الخمس فى الشمال مسألة وقت ليس الا . وفى هذا الوقت كان المتعصبون لاعادة الملكية نشطين فى الشمال والشمال الشرقى ، وكنت انا نشوان بتتويجى الثالث . ولكن نظرا الى ان اليابان قد غرزت مخالبها على نحو اعمق فى شمالى الصين ، فقد شددت قبضتها على " امبراطورية منشوريا " ، الامر الذى بدأت احس به انا فى آخر المطاف .

ان عملية استعمار الشمال الشرقى كانت مربحة للخونة الصينيين . فعندما وضعت الملكية موضع التنفيذ مثلا حقق مؤيدوها اشياء اكثر من الرضى النفسى . فالخونة القياديون ، من تشنغ شياو شيوى فنازلا ، قدمت لهم " مكافآت على جهودهم فى انشاء الدولة " تراوحت من ٥٠ الف الى ٦٠٠ الف يوان لكل واحد وبلغ مجموعها ٨٫٦٠٠ الف يوان ؛ ومع كل عمل من اعمال النهب ، مثل " شراء الحبوب الاجبارى " او " التبرعات الوطنية " ، فان جميع الموظفين من رئيس الوزراء فنازلا كانوا يتلقون حصصهم . وبدلا من ان اخوض فى تفاصيل جميع الاجراءات اليابانية سأصف كيف تحولت احلامى باعادة الملكية الى ذعر شديد .

لقد اخبرنى جيش قواندونغ رسميا فى الوقت الذى قرروا فيه اقامة ملكية بأن هذا ليس اعادة لأسرة تشينغ . ولم يسمحوا لى بلبس ثياب التنين عند تتويجى ، وتجاهلوا رأيى فى اختيار رئيس وزراء . فتعين على ان اتحقق من مدى الخواء الذى كان عليه سلطانى ، ولكننى كنت شديد النشوة بحيث تعذر على حينذاك ان اعود الى صوابى ، الى ان جاءت الصدمة الاولى فى

حادثة لينغ شنغ :

كان لينغ شنغ ابن قوى فو — حاكم عسكرى سابق لأسرة تشينغ فى منغوليا ، وكان مستشارا فى القيادة العامة لجيش الحفاظ على الامن ، التابع لتشانغ تسوه لين . وكان واحدا من اعضاء الوفد الذى جاء الى ليويشون لدعوتى الى ان اصبح " رئيسا تنفيذيا " ، ومن جراء ذلك اصبح ضمن صفوف " مؤسسى الوطن " . وحين القى عليه القبض فجأة فى ربيع ١٩٣٦ من طرف جيش قواندونغ كان حاكما لمقاطعة شينغآن فى " امبراطورية منشوريا " .

ارسل جيش قواندونغ الكولونيل يوشيوكا ياسونورى ، " الملحق بالبيت الامبراطورى " ، ليخبرنى بأن لينغ شنغ قد انهمك فى نشاطات معادية لامبراطورية منشوريا واليابانيين . ووفقا للمعلومات التى بلغنى اياها تونغ جى شيوى فانه قد عبر عن تذمره فى الاجتماع المشترك الاخير لحكام المقاطعات ، مما اغضب اليابانيين . وكان من الواضح ان لينغ شنغ قد اتهم اليابانيين بعدم الوفاء بوعدهم ؛ فاتاجاكى كان قد اخبره اصلا فى ليويشون ان اليابان ستعترف بـ " امبراطورية منشوريا " دولة مستقلة ، ولكن اليابانيين فيما بعد تدخلوا فى كل مكان . واصبح لينغ شنغ لا سلطة له فى شينغآن ، لأن اليابانيين سيطروا على كل شيء . وبعد عودته من هذا الاجتماع الى شينغآن القى القبض عليه .

ووجدت ان هذا الخبر لا يمكن السكوت عنه ، لا سيما وقد تصاهرنا قبل ستة اشهر فقط حيث خطبت شقيقتى الرابعة لابنه . وفيما كنت اتساءل هل يجب ان اذهب واخبر جيش قواندونغ بذلك ، جاء يودا كنكيتشى ، القائد الجديد لجيش قواندونغ وسفير اليابان ، لرؤيتى وقال :

— قبل بضعة ايام امسكنا قضية كان المجرم فيها من معارف جلالتكم — لينغ شنغ ، حاكم مقاطعة شينغآن . لقد كان يدبر تمردا ومقاومة ضد اليابان بالتواطؤ مع البلدان الاجنبية . وقد ثبت للمحكمة العسكرية انه ارتكب

جرائم ضد اليابان وامبراطورية منشوريا ، وحكمت عليه بالاعدام :

فقلت مصدوما :

— اعدام ؟

فهز رأسه لمترجمه وهو يردد الكلمة ، قاصدا من ذلك التأكد من اننى فهمت :

— اعدام :

ومضى يقول :

— وهذا سيكون تحذيرا يا صاحب الجلالة . ان من الضرورى ان يقتل تحذيرا للآخرين .

وبعد مغادرة يودا اخبرنى الكولونيل يوشيوكا ان من الافضل ان افسخ الخطوبة بين اختى وابن لينغ شنغ فورا ، فاستجبت سريعا .

ونفذ الحكم بلينغ شنغ بقطع رأسه ، وقتل فى الوقت نفسه بعض افراد اسرته . وهذه كانت الحالة الاولى التى علمت بها من حالات اقدام اليابانيين على قتل موظف كبير من " امبراطورية منشوريا " ، وهو الرجل الذى اراد ان يصبح فى الوقت الاخير قريبا لى . ورأيت ان لينغ شنغ لا بد انه كان شديد الولاء لى ، ما دام قد اراد هذه المصاهرة ؛ ولكن المقياس الوحيد الذى حكمه به جيش قواندونغ هو موقفه من اليابان . ومما لا شك فيه انهم استخدموا نفس المقياس معى ايضا . ان عبارة يودا حول قتله — تحذيرا للآخرين — تبدو لى الآن نذير شؤم .

ثم تذكرت ان جيش قواندونغ كان قد سألنى فى ذلك الوقت عن بعض نشاطات " اعادة اسرة تشينغ " فى نهاية سنة ١٩٣٥ ، وقررت ان اكون اكثر حذرا فى المستقبل . كيف اذن يريد اليابانيون من الناس ان يتصرفوا ؟ وتذكرت رجلا كان مصيره مختلفا تماما عن مصير لينغ شنغ . انه تشانغ جينغ هوى ، رئيس الوزراء . ومن الواضح ان اليابانيين قد قصدوا ان يضعوا

امامى نموذجين مختلفين : تشانغ ولينغ . ويمكن للمرء ان يأخذ فكرة عن شخصية قاطع طريق تحول الى " رئيس وزراء " وعن التقدير الذى يكنه له اليابانيون من الطريقة التى يكررون بها احد اقواله : " ان اليابان وامبراطورية منشوريا مثل يعسوبين مربوطين بخيط واحد . " لقد استخدموا هذا القول لكى " يثقفوا " به الموظفين من حملة الجنسية " المانشوية " .

وعندما كان اليابانيون يطبقون سياستهم فى استيطان الشمال الشرقى ارادوا الحصول على مشروع قانون مصادق عليه من قبل " مجلس الدولة " يمكنهم من مصادرة الاراضى الزراعية فى الشمال الشرقى مقابل ربع او خمس ثمنها . فاحتج بعض " الوزراء " خوفا من ان يؤدى هذا الى تمرد او ان يفقدوا الكثير من الاراضى الواسعة التى تحت ايديهم . وابدى تشانغ جينغ هوى تعليقه قائلا : " ان لدى امبراطورية منشوريا مساحات كبيرة من الاراضى ، والمانشويون بسطاء جدا وجهلة . واذا ما جاء اليابانيون لاحياء ارض بكر ولتعليمهم التكنولوجيا الحديثة ، فان كلا الجانبين سيستفيد . " واقر المشروع . واصبحت عبارة " كلا الجانبين سيستفيد " ملاحظة اخرى مفضلة لدى اليابانيين .

وتلفظ تشانغ جينغ هوى بقول ثالث عندما كان اليابانيون يقومون بشراء اجبارى كبير للحبوب بحيث لم يترك لفلاحى الشمال الشرقى شيئا . وقد احتج بعض " الوزراء " ممن تأثرت مصالحه بتلك الاسعار المنخفضة فى " اجتماع مجلس الدولة " موضحا بأن الفلاحين يموتون جوعا ، واحدث ضجة بالمطالبة بأسعار اعلى . وهذا كان بالطبع شيئا ليس اليابانيون على استعداد للموافقة عليه . فقال تشانغ جينغ هوى : " ان جنود الجيش اليابانى الامبراطورى يبذلون ارواحهم فارسالنا نحن المانشويين بعض الحبوب لهم لا يعادل شيئا بالمقارنة الى عطائهم . ان الجياع سيكونون على ما يرام اذا هم شدوا الاحزمة على بطونهم . " واصبحت عبارة " شد الاحزمة " تعبيرا

مألوفا لدى اليابانيين ، مع انهم لم يستجيبوا هم انفسهم لهذا المطلب .

كان قائد جيش قواندونغ يشيد لى دائما بتشانغ جينغ هوى على انه رئيس وزراء جيد و" رجل يضع الصداقة اليابانية المانشوية موضع التطبيق " . ولم افكر فى السابق فى مغزى ذلك كله بالنسبة لى ، ولكننى الآن بعد ان عرفت مصير لينغ شنغ فهمت تمام الفهم .

وبعد حادثة لينغ شنغ ازعجنى جدا اجتماع لى مع الامير ده :

كان الامير ده ، او دمتشوك دونغرب ، اميرا منغوليا استخدمه اليابانيون لانشاء " الحكومة العسكرية الذاتية الحكم فى منغوليا الداخلية " . وكان قد ارسل لى نقودا ابان اقامتى فى تيانجين ، واعطى اخى بو جيه خيولا منغولية اصيلة ، وابدى ولاءه لى بوسائل اخرى كثيرة . ثم جاء لرؤية جيش قواندونغ فى امر ما ، وحصل منه على اذن بالمجىء لزيارتى ، فحدثنى عن خبرته خلال السنوات القليلة الماضية وعن تأسيسه " الحكومة العسكرية الذاتية الحكم". ثم اخذ يتذمر ويتشكى من ان اليابانيين فى منغوليا الداخلية مستبدون للغاية وان جيش قواندونغ لم ينفذ وعدا واحدا من سلسلة الوعود التى وعده اياها قبل تأسيس " حكومة " منغوليا الداخلية . وكان ما جعله فى غاية الغضب هو افتقاره التام الى السلطة . ووجدت نفسى استجيب لتذمراته واحاول التخفيف عنه . وفى اليوم التالى ارسل جيش قواندونغ يوشيوكا ، الملحق بالبيت الامبراطورى ، ليسألنى وعلى وجهه تعابير الامتعاض :

— ماذا ناقشتم يا صاحب الجلالة مع الامير ده البارحة ؟

ولما ادركت ان فى الامر ما يسوء قلت اننا كنا نتحدث احاديث عابرة . فتابع سؤاله دون ادنى تراخ :

— هل عبر عن عدم ارتياحه لليابان ؟

فأخذ قلبى يخفق بشدة . وادركت ان بوسعى ان اقوم بانكار ثابت او من الافضل " ان اتراجع عن طريق التقدم " . فقلت :

ـــ لا بد ان الامير ده قد اخبركم بكثير من الكذب .

ومع ان يوشيوكا لم يتتبع هذه المسألة معى اكثر من ذلك ، الا اننى بقيت فى حالة من الذعر عدة ايام . واستبدت بى الظنون ، وفكرت باحتمالين . الاول ان يكون اليابانيون قد وضعوا فى غرفتى جهاز تنصت ، والثانى ان يكون الامير ده قد اخبرهم بكل شيء . وامضيت وقتا طويلا لحل هذا اللبس ، مفتشا الغرفة لعلى اجد جهاز تنصت . وعندما لم اجد شككت فى ان الامير ده قد خاننى ، ولكن لم يكن لدى دليل على ذلك ايضا . ووقعت فى حيرة تامة .

علمتنى هذه الحادثة اكثر مما علمتنى حادثة لينغ شنغ . فلم اعد منذ ذلك الحين اتكلم صراحة مع اى شخص خارجى ، وتصرفت بكل حذر ازاء جميع الزوار . والناس الذين كانوا يأتون من تلقاء انفسهم لرؤيتى اصبحوا اقل فأقل منذ اليوم الذى القيت فيه خطابى بعد ان عدت من اليابان ، ولقد توقفوا عن المجيء تقريبا بعد زيارة الامير ده . ثم استنبط جيش قواندونغ قاعدة جديدة عام ١٩٣٧ فأصر على ان " الملحق بالبيت الامبراطورى " يجب ان يكون حاضرا عندما استقبل شخصا غريبا .

واخذت اشعر بالتوتر اكثر فأكثر بدءا من ذلك العام . لقد انتهى اليابانيون من استعداداتهم لغزو واسع النطاق للصين خلال الاشهر الستة الاولى من تلك السنة ، ومارسوا قمعا واسع النطاق للوطنيين المعادين لهم فى الشمال الشرقى . واصدروا باسمى قانون عقوبات وشكلوا نظام " باو ـــ جيا " للاشراف المتبادل ، واجبروا كل فرد على الانضمام الى " جمعية الوئام " ، واصلحوا الطرق وبنوا الحصون ، ووحدوا القرى . واستخدموا عشرين فرقة تقريبا ليحاولوا التصدى للجيش المتحالف المعادى لليابانيين الذى يعد بـ ٤٥ الف شخص والذى كان يقوم بعملياته فى الشمال الشرقى ، بينما القوا القبض فى الوقت نفسه على اعضاء جمعية انقاذ الوطن المعادية

لليابانيين وعلى غيرهم من الناس " المضطربين " . ولم تكن تلك العمليات ناجحة تماما فاضطروا الى تكرارها على نطاق اوسع فى السنة التالية باستخدام مليون من الجنود اليابانيين والعملاء . ولكن وفقا لما قاله تونغ جى شيوى فان الناس قد اختفوا فى كل مكان من الشمال الشرقى على حين ان عمليات القبض لم تنته قط .

لم اسمع فى هذه الاثناء مطلقا اى خبر صادق لا من محادثاتى مع قائد جيش قواندونغ ولا من تقارير " رئيس مجلس الوزراء " . وكان تونغ جى شيوى الشخص الوحيد الذى ظل يطلعنى على حقيقة ما جرى . فقد اخبرنى بأن تقارير الانتصارات فى حملات " التأديب " التى اعطانى اياها قائد جيش قواندونغ لم تكن موضع ثقة ، وان من الصعب القول من كان حقا " قطاع الطرق " الذين ابادهم اليابانيون . وقال ان احد اقربائه قد اخذ لأداء العمل الالزامى فى بعض المشاريع السرية ، وانه بعد ان انتهى العمل ذبح جميع العمال باستثنائه هو وقلة معه كانوا محظوظين اذ تمكنوا من الهرب . وفى رأيه ان احدى عصابات " قطاع الطرق " الذين اعلن عن سحقهم بزهو عظيم فى الصحافة كانت هذه المجموعة من العمال .

ولم يمض وقت طويل بعد ان سمعت بهذا حتى اختفى مترجم لغة انكليزية سابق عندى . ولم اعرف مصيره حتى اخبرنى شقيقى بو جيه ذات يوم انه قد القى القبض عليه بسبب صلته بالامريكان عندما كان يعمل فى " سفارتنا " فى طوكيو ، وقتل على يد رجال الدرك اليابانيين . وقال لى بو جيه ايضا ان هذا المترجم قد بعث اليه برسالة عن طريق حارسه يرجوه فيها ان يطلب منى التوسط له ، ولكنه لم يجرؤ ان يخبرنى بهذا فى ذلك الوقت . فطلبت من بو جيه ألا يقول اية كلمة اخرى حول هذا الامر .

كثير من السياسات والقوانين التى وافقت عليها فى تلك الايام كانت متعلقة باستعدادات اليابان الحربية وبتقوية حكمها فى مستعمرتها الشمال ــ

شرقية : وقد تضمنت هذه الموافقات : " الخطة الخمسية الاولى لتطوير الانتاج" و" قانون ضبط الممتلكات" و" اعادة تنظيم الحكومة " لتقوية حكم اليابانيين ، واعتبار اللغة اليابانية " لغة وطنية " ؛ ولكن لم يترك اى من ذلك تأثيرا كبيرا على كالذى تركه زواج بو جيه .

بعد ان انهى بو جيه دراسته فى مدرسة لصبيان النبلاء اليابانيين انتقل الى مدرسة الطلبة العسكريين التابعة للجيش اليابانى . وعاد الى تشانغتشون فى شتاء ١٩٣٥ واصبح ملازما اول فى الحرس الامبراطورى . ومنذ ذلك الحين وزملاؤه فى جيش قواندونغ يسعون فى زواجه ويشيدون بفضائل الزوجات اليابانيات . وقد اخبرنى يوشيوكا ، الضابط اليابانى الذى كان ملازما لى ، بأن جيش قواندونغ يأمل بأن يتزوج بو جيه من فتاة يابانية تعزيزا للصداقة بين البلدين .

وذعرت ذعرا شديدا لسماعى هذا الخبر وقررت ان احصل لبو جيه على زوجة من بكين لأحبط مسبقا هذه المؤامرة اليابانية . فمن الواضح انهم قصدوا وضع بو جيه تحت سيطرتهم الكاملة ، والاهم من ذلك ، قصدوا ان ينجب طفلا من اصل يابانى يمكن ان يحل محلى فى المستقبل . ووافق بو جيه على خطتى ، ولكن عندما ضغط عليه يوشيوكا باخباره ان الجنرال هونجو يعمل وسيط زواج له فى طوكيو ، اطاع . وفى ٣ ابريل ١٩٣٧ تزوج من ساجاهيرو ، ابنة الماركيز ساجا . وبعد اقل من شهر اقر " مجلس الدولة " مدعوما من جيش قواندونغ لائحة تنص على ان بو جيه وابنه سيكونان خالفين للعرش اذا انا لم ارزق بذرية ذكور .

وبعد عودة بو جيه من طوكيو قررت ألا اتكلم امامه بصراحة بعد ذلك او آكل طعاما ترسله لى زوجته الا اذا حين يشاركنى بو جيه فى طعامى وبشرط ان يذوق هو اولا طبخ زوجته . وعندما اوشك بو جيه ان يصبح ابا اصبحت شديد الاهتمام بأمنى وبأمنه كذلك لأن جيش قواندونغ بدا

قادرا تماما على قتل كلينا من اجل الحصول على امبراطور من اصل يابانى ؛ وتنفست الصعداء عندما تكشف المولود عن بنت .

وكنت قلقا كذلك حول ما سيحدث اذا رزقت ولدا، لأن جيش قواندونغ جعلنى اوقع وثيقة تقول اننى يجب ان ارسل اى ولد لى الى اليابان عندما يصبح فى سن الخامسة ليربى لدى اناس معينين لديهم .

وفى ٢٨ يونيو ، قبل تسعة ايام من قتال ٧ يوليو فى لوقوتشياو ، اصبت بالذعر مرة اخرى . وهذه المرة كانت بسبب حادثة " حرس القصر " .

كانت هذه القوة مختلفة عن " الحرس الامبراطورى " الذى كان تحت سيطرة " وزارة الدفاع " ، فقد انفقت عليها من جيبى الخاص ، وكانت غايتى من تأسيسها ليست مجرد حمايتى بل لتكون تحت سيطرتى الشخصية ايضا قوة عسكرية اساسية . وقد تلقى رجالها البالغ عددهم ٣٠٠ جميعهم تدريبا خاصا بالضباط . وفى حينها اخبرنى تونغ جى شيوى الذى كان مسؤولا عن القوة ان جيش قواندونغ لم يكن مسرورا بها ، ولو انى لم اكن قبل الآن قادرا على فهم تحذيرات تونغ .

فى ٢٨ يونيو ذهب عدد من حرس القصر ليرفهوا عن انفسهم فى احد المنتزهات ، وراحوا يتجادلون مع بعض اليابانيين المرتدين ثيابا مدنية حول استئجار قوارب ، واذا بحشد من اليابانيين يطوقهم ويبدأ فى ضربهم . واضطر الحرس الى الدفاع عن انفسهم فضربوا اليابانيين ، ولكن الأخيرين افلتوا عليهم الكلاب . فأخذ حرسى يضربون الكلاب وقتلوا قسما منها ، ثم خرقوا الطوق من حولهم وعادوا الى ثكنتهم . ولم يخطر فى ذهنهم قط ان هذا سيتسبب فى وقوع كارثة . فبعد ذلك بوقت قصير ظهر رجال الدرك اليابانيون خارج مكتب القصر مطالبين بأن يسلم تونغ جى شيوى جميع افراد الحرس الذين ذهبوا الى المنتزه ، فاستجاب تونغ الى مطلبهم مذعورا . فأخذهم رجال الدرك اليابانيون وحاولوا اجبارهم على الاعتراف بأنهم كانوا

مشتركين فى نشاطات معادية لامبراطورية منشوريا واليابانيين . وعندما رفض افراد الحرس الاعتراف انزل بهم اليابانيون مختلف ألوان التعذيب ، وادرك افراد الحرس حينذاك ان تلك الحادثة كانت عبارة عن مؤامرة متعمدة دبرها جيش قواندونغ . فاليابانيون ذوو الملابس المدنية ارسلهم جيش قواندونغ الى هناك ، واثنان من ضباط هذا الجيش قد اصيبا فى ذلك العراك ، والكلاب التى ركلت حتى الموت كانت كلاب جيش قواندونغ كذلك .

وعندما سمعت بالقبض عليهم ظننت انهم لا بد ان يكونوا قد احدثوا بعض المتاعب على نحو عرضى ، ولذلك طلبت من يوشيوكا ان يذهب مباشرة الى مقر القيادة لجيش قواندونغ ويحدثهم بالامر . فعاد بثلاثة شروط يمكن بموجبها ان يطلق سراحهم : ان يعتذر تونغ جى شيوى للضابطين الجريحين ؛ ان يرحل افراد حرس القصر الذين " سببوا هذه المشكلة " ؛ وان اتعهد انا بألا تتكرر هذه الحادثة ابدا . وبعد ان استجبت لهذه الشروط اجبرت على طرد تونغ جى شيوى من منصبه كقائد لحرس القصر وتعيين يابانى خلفا له ، واضطررت كذلك الى خفض عدد حراس القصر وتبديل بنادقهم الى مسدسات .

كنت فى السابق قد ارسلت عددا من الشبان الى الاكاديميات العسكرية فى اليابان لأبنى لنفسى قوة عسكرية ، ولكن عندما عادوا نسبتهم " وزارة الدفاع " الى اعمالهم ، كما نسبت اخى بو جيه ، ولم يكن لى اى رأى فى هذا الموضوع . وتبين لى من ثم ان خططى لانشاء جيش تحت سيطرتى مباشرة لم تكن الا حلما .

عندما نشب قتال ٧ يوليو وادى الى احتلال اليابانيين لبكين كان بعض الامراء والشخصيات المخضرمة فى بكين يتطلعون لاعادة النظام القديم ، ولكننى ادركت الآن ان هذا مستحيل . ولم يبق من اهتماماتى سوى المحافظة على سلامتى من اليابانيين واتقان التعامل مع يوشيوكا " الملحق بالبيت

الامبراطورى" والذى كان تجسيدا تاما لجيش قواندونغ ؛

يوشيوكا ياسونورى

اذا شبه المرء جيش قواندونغ بمصدر تيار كهربائى عالى التحميل وشبهنى بمحرك كهربائى ، فان يوشيوكا سيكون عبارة عن سلك ذى ايصالية عالية .

كان رجلا قصيرا له شارب قصير ووجنتان ناتئتان لازمنى طيلة السنوات العشر منذ بداية قدومه الى القصر عام ١٩٣٥ الى استسلام اليابانيين عام ١٩٤٥ ، حيث اسره الجيش السوفياتى فى نفس الوقت الذى اسرنى فيه ايضا . وفى تلك السنوات ترفع من رتبة مقدم الى فريق . وكان لديه منصبان : احدهما ضابط اركان عالى الدرجة فى جيش قواندونغ ، والثانى " ملحق بالبيت الامبراطورى لامبراطورية منشوريا " . وهذا المنصب الثانى كان مصطلحا يابانيا ، ولكن لم يكن هناك فرق كبير فى كيفية ترجمته لأن الكلمات لا تصف وظيفته الحقيقية . كان هو السلك الذى ينقل لى جيش قواندونغ من خلاله نواياه . وان التجولات التى قمت بها والزوار الذين استقبلتهم ونظام التشريعات الذى تقيدت به والنصائح التى قدمتها الى اتباعى والانخاب التى شربتها حتى هز رأسى وابتساماتى ، كل ذلك كان تحت ارشادات يوشيوكا . وكان يقرر الاجتماعات التى احضرها ويكتب لى خطاباتى فى لغته الصينية اليابانية الطراز .

وبعد ان اطلق اليابانيون العنان لأنفسهم فى غزوهم الواسع النطاق للصين فى يوليو ١٩٣٧ احتاجوا الى الحبوب والرجال والامدادات من " امبراطورية منشوريا " فأمرت تشانغ جينغ هوى ان يقرأ فى اجتماع حكام المقاطعات العملاء تعليما كتبه يوشيوكا . وفى تلك الوثيقة حثثتهم على " تنفيذ واجباتهم

باجتهاد لدعم الحرب المقدسة " . ان حرب الباسيفيك قد واجهت اليابان بنقص بالجنود ، وانهم ارادوا من جند " امبراطورية منشوريا " ان يحلوا محل بعض الوحدات اليابانية المنشغلة فى الصين . وقرأت تعليما آخر من صياغة يوشيوكا وكان هذه المرة فى مأدبة تقام لقادة المناطق العسكرية المختلفة ، عبرت فيها عن تصميمى على " ان اعيش او اموت مع اليابان ، وان اتحد معهم فى القلب والفضيلة . وان احطم نفوذ بريطانيا وامريكا " .

وفى كل مرة اخبرنى فيها يوشيوكا بأن اليابانيين قد احتلوا مدينة صينية رئيسية كان يضطرنى الى ان انهض معه وانحنى انحناءة شديدة فى اتجاه ميدان المعركة علامة للحداد على الجنود اليابانيين الذين قتلوا فى المعارك . وبعد ان جعلنى افعل ذلك عدة مرات ، لم اجد حاجة الى الحث لأقوم بانحناءتى عندما اخبرنى بالاستيلاء على ووهان .

وكان كلما حققت المزيد من التقدم يزيد فى عدد الدروس التى يلقننى اياها . فبعد سقوط ووهان مثلا اقترح على ان اكتب رسالة تهنئة الى السفاح اوكامورا الذى استولى على المدينة وارسل برقية الى الامبراطور اليابانى .

وبعد ان بنى " معبد التأسيس الوطنى " اصبحت اذهب اليه كل شهر لأصلى من اجل انتصار الجنود اليابانيين ، وهذا ايضا كان بعد تلقى دفعة قوية عبر السلك الكهربائى نفسه .

لم يتدخل جيش قواندونغ كثيرا فى شؤونى الشخصية والخاصة قبل حادثة ٧ يوليو ، ولكن الامور تغيرت بعد ذلك . فقبل الحادثة كان بعض الأقارب يأتينى من جنوب السور العظيم كل سنة لزيارتى فى عيد ميلادى وفى مناسبات اخرى ، ولكن بعد حادثة ٧ يوليو لم يسمح جيش قواندونغ الا لعدد قليل بالقدوم الى تشانغتشون فى فترات محددة . واصر الجيش اليابانى ايضا ان على اقربائى هؤلاء ان يكتفوا بالركوع لى دون التكلم معى ، عدا الحميمين منهم . وبريدى كله كان يقرأه اعوان يوشيوكا اليابانيون فى مكتب القصر ، وهو

الذى يقرر ما يمكن ان اطلع عليه من هذا البريد وما لا يمكن . وكان جيش قواندونغ بالطبع مدركا تماما اننى لم اكن ضد " امبراطورية منشوريا " او ضد اليابانيين ، ولكنه كان يخشى ان اشترك فى خطط لاعادة اسرة تشينغ جنوب السور العظيم ، وهذا كان مصدر ازعاج بالنسبة له .

لقد كان من المستحيل على تماما فى تلك الايام ان اقابل شخصا خارجيا او اتلقى رسالة دون علم يوشيوكا . وكان فى القصر مكتب للدرك غاص برجال درك يابانيين يلبسون بزات خضراء قاتمة ؛ ولا احد يمكن ان يدخل او يخرج دون ان يروه ، وكانوا يسمعون كل شىء مما يجرى داخل الفناء . يضاف الى هذا كله ان اليابانيين الذين فى مكتب القصر كانوا ادوات فى يد يوشيوكا ، يعنى اننى كنت تحت رقابة مشددة .

لقد اظهر يوشيوكا براعة هائلة فى الحصول على منصبه فى القصر ، مقيما صداقة مع بو جيه عندما كان احد معلميه فى مدرسة الطلبة العسكريين فى اليابان . وبعض الكتب تقول انه كان صديقا لى ايضا قبل ذهابى الى الشمال الشرقى ، والواقع انه قد حدثنى بضعة احاديث فقط عن الشؤون الجارية فى تيانجين . ومع ذلك فقد سعى للاستفادة من صداقته لبو جيه فى اقناع جيش قواندونغ بأنه صديق شخصى لى ، وهو بفعل ذلك حصل على هاتين الوظيفتين " ملحق بالبيت الامبراطورى لامبراطورية منشوريا " وضابط اركان عالى الدرجة لجيش قواندونغ .

واثناء وجوده معى قام بزيارات متعددة لليابان ، وكان ينقل غالبا هدايا صغيرة بينى وبين الامبراطورة اليابانية الام . وقد اقنعنى ذات مرة بأن اسجل بعض التحيات باللغة اليابانية الى الامبراطور اليابانى .

وكان اذا تكلم يقبع بـ " اه " " ها " ويرتعش حاجباه ، وازدادت هذه العادة سوءا مع مضى الوقت ، وكنت اجدها تزيد فى اغضابى ، اذ ان ازدياد التقلص فى عضلات وجهه يعنى تغير موقفه من علاقتنا .

وبعد زيارتى الى اليابان عام ١٩٣٤ كتبت لى الامبراطورة الام بعض قصائد " واكا " ، وما قاله يوشيوكا حينذاك كان بمثابة موسيقا فى اذنى :

" ان صاحبة الجلالة الامبراطورة الام مساوية لأم جلالتكم ، وما دمت انا واحدا من اقربائكم تقريبا فاننى اشعر بأن هذا شرف كبير لى . "

وفى ذلك الوقت قال لبو جيه : " انت وانا قريبين الى بعضنا بعضا كاليد والقدم ، ومع اننى لا استطيع ان ادعى قرابة كهذه مع جلالة الامبراطور ، الا اننى استطيع ان اشعر اننى بالنسبة اليه مثل اصبع القدم لأصبع اليد . اننا انسباء تقريبا . "

وفى عام ١٩٣٦ تقريبا قال لى :

" ان اليابان مساوية لوالد جلالتكم ، اه ، وجيش قواندونغ يمثل اليابان ، اه ، لذلك فان قائد جيش قواندونغ مساو لوالد جلالتكم ، ها . "

ولما كان جيش قواندونغ يواجه المزيد المزيد من المتاعب على الجبهة ، فان مركزى كان ينخفض فى اعين جيش قواندونغ . ومضى يوشيوكا فى النهاية بعيدا فقال : " ان جيش قواندونغ والدك ، وانا ممثل جيش قواندونغ ، اه . "

وكان من عادة يوشيوكا ان يقوم بزيارات متكررة الى القصر اثناء النهار . واحيانا كان يمكث عشر دقائق ثم يغادر ليعود بعد خمس دقائق فقط . وكان يقدم اسبابا سخيفة لهذا المجيء والذهاب المتكررين ، كأن يدعى مثلا بأنه نسى ان يقول شيئا ما ، او لم يتذكر ان يسألنى ان كنت بحاجة الى اى شيء منه ليفعله لى فى اليوم التالى . وبالطبع خفت من انه كان يستخدم هذه الاقتحامات المفاجئة وسيلة للتجسس على ؛ ورأيت ان الطريقة الوحيدة التى استطيع بها تجنب الريبة هى ان اوافق حالا على كل ما يقترحه ولا ادعه ينتظر مطلقا . وكنت اراه دائما فى منتصف وقت الاكل .

" مراسيم امبراطورية "

جميع الذين درسوا فى مدارس " امبراطورية منشوريا " اجبروا على حفظ " مراسيمى الامبراطورية " عن ظهر قلب . وفى الذكرى السنوية لصدور كل مرسوم تحتشد جميع المدارس والمكاتب الحكومية ووحدات القوات المسلحة لتستمع الى المرسوم يقرأ بصوت جهورى . ففى المدارس مثلا يقف جميع العاملين والطلبة ببزات " الوئام " الشديدة الاخضرار وقفة اجلال امام المنصة . ويدخل موظف المدرسة المسؤول عن الايديولوجية والانضباط لابسا قفازات بيضاء رافعا بيديه فوق رأسه علبة خشب صفراء ملفوفة بقماش اصفر . وينحنى الحشد كله حين يصعد بالعلبة الى المنصة ، ويضعها على طاولة ويفتحها . ثم يخرج منها المرسوم ويناوله بيديه الاثنتين الى مدير المدرسة الذى يستلمه بيدين فيهما قفاز ، ويبسط هذا المرسوم ثم يقرأه بصوت جهورى . واذا صادف ان كان التاريخ ٢ مايو فانه يقرأ " المرسوم التذكيرى بمناسبة عودة الامبراطور " :

منذ ان ارتقيت العرش وانا اتشوق الى القيام بزيارة شخصية للبيت الامبراطورى اليابانى لكى ابدى من خلال تعزيز صداقتنا والتمتع بصحبتهم اعجابى العظيم بهم . وبقيامى بهذه الرحلة الى الشرق تمكنت من تحقيق طموحى الذى يعمر نفسى منذ امد طويل .

وكان البيت الامبراطورى اليابانى فى اقصى درجات الكرم لدى استضافته لى حيث قام بالاستعدادات الرائعة ، على حين استقبلنى رعيته وودعونى بحماسة صادقة ، وهم جميعا دون استثناء على اقصى درجات اللطف والاحترام . ولقد انطبع هذا فى قلبى ، فلن انساه ابدا .

اننا مدركون ادراكا عميقا منذ تأسيس دولتنا الى اليوم الحاضر اننا معتمدون خلال ذلك كله على الانصراف التام للاستقامة ، وعلى الجهود العظيمة لهذا البلد الصديق فى تعزيز الاساس العظيم ؛ وفى هذه المناسبة كنا محظوظين

بما فيه الكفاية حيث تمكنا من التعبير عن تشكرنا القلبي . وفوق ذلك تأكدنا من خلال الملاحظة الدقيقة ان الحكومة فى ذلك البلد قائمة على الخير والحب ، بينما تشديد التربية قائم على الولاء والطاعة البنوية ؛ فالناس يحترمون امبراطورهم ويحبون رؤساءهم كما يحبون السماء والارض ؛ وكل واحد منهم مخلص وشجاع ومحب للخدمة العامة ومتفان فى سبيل وطنه الام . وهذا هو السبب فى انهم قادرون على التمتع بالسلم الداخلى وعلى مقاومة الدول الاجنبية والتعاطف مع جيرانهم لكى يحافظوا على الخط الامبراطورى الذى سيستمر دون تعطل عشرة آلاف جيل . ولقد احتككت شخصيا بالعالين والواطئين فى ذلك البلد ، فوجدتهم متحدين اخلص الاتحاد فى مزاج عام واخلاق مشتركة ؛ وثقتهم المتبادلة راسخة لا يمكن ان تهتز .

انني وصاحب الجلالة امبراطور اليابان بروح واحدة . فعلى رعايانا ان تعي ذلك تمام الوعي وتكون قلبا واحدا وفضيلة واحدة مع حليفنا ، لكى نرسى اساسا راسخا وثابتا الى الابد لبلدينا ونظهر المعنى الحقيقى للاخلاق الشرقية . وعندها سيكون من الممكن للعالم ان يعيش فى سلام وللبشرية ان تكون سعيدة .

وليكافح جميع رعاياى من اجل التمسك بهذا المرسوم الى الابد .

بأمر من الامبراطور .

وكان مجموع تلك " المراسيم الامبراطورية " ستة :

" مرسوم ارتقاء العرش " الصادر فى ١ مارس ١٩٣٤ ؛

" المرسوم التذكيرى بمناسبة عودة الامبراطور " الصادر فى ٢ مايو ١٩٣٥ ؛

" مرسوم ترسيخ قاعدة الوطن " الصادر فى ١٥ يوليو ١٩٤٠ ؛

" المرسوم حول الوضع الراهن " الصادر فى ٨ ديسمبر ١٩٤١ ؛

" المرسوم حول الذكرى السنوية العاشرة لتأسيس الوطن " الصادر فى ١ مارس ١٩٤٢ ؛

" مرسوم التنازل " الصادر فى ١٥ اغسطس ١٩٤٥ .

واستبدل بـ " مرسوم ارتقاء العرش " " المرسوم حول الذكرى السنوية

العاشرة لتأسيس الوطن " . و" مرسوم التنازل " الصادر فى ١٥ آب ١٩٤٥ لم يقرأه احد على الاطلاق . وهكذا فان اربعة مراسيم هى التى كانت هامة . وكان على تلاميذ وطلبة المدارس والجنود ان يكونوا قادرين على استظهارها ، وكل من ينسى هذه المراسيم او يكررها على نحو غير ملائم كان يعاقب . وبالاضافة الى كون هذه المراسيم جزءا من الدعاية الاستعبادية التى طبقها اليابانيون فى الشمال الشرقى فقد استخدمت ايضا تسويغا قانونيا بعيد المدى لقمع جميع اشكال المقاومة . كان ممكنا لأدنى استياء يصدر عن اى مواطن من ابناء الشمال الشرقى من هذه النظم الاستعمارية ان يعرضه للعقوبة .

ولو تتبعنا اصل كل مرسوم من هذه المراسيم لتبين لنا الى اى مدى يمكن ان ينحدر الانسان . ونظرا الى اننى قد ذكرت الطريقة التى صدر بها المرسومان الاوليان ، سأتحدث الآن كيف تم نشر المرسوم الثالث المعنون " مرسوم ترسيخ قاعدة الوطن " .

كنت ذات يوم جالسا فى غرفتى مع يوشيوكا . وكنا نحن الاثنين صامتين لأنه قال الشيء الذى جاء ليقوله ، ولكن نظرا الى انه لم يغادر حزرت ان فى ذهنه امرا آخر هاما . فنهض وخطا الى ناحية من الغرفة فيها تمثال بوذا ، ووقف هناك واخذ يقبع كالخنزير . ثم التفت الى وقال :

" البوذية جاءت من الخارج ، اه ، دين اجنبى . ما دامت اليابان ومنشوريا تشتركان فى نفس الروح ، فمن الواجب ان تكون لهما نفس المعتقدات ، ها ؟ " .

ثم وضح لى ان الامبراطور اليابانى هو سليل الهة الاشراق المشع السماوى (٥) ، وان كل امبراطور هو تجسيد جديد للاله العظيم ، وان جميع اليابانيين الذين ماتوا من اجل الامبراطور سيصبحون هم انفسهم آلهة . ومن خبرتى عرفت ان جيش قواندونغ قد ارسل بذلك تيارا عبر هذا السلك ذى التوتر العالى ، ولكن بعد عبارة يوشيوكا هذه انقطع التيار . وامضيت اياما طويلة

افكر فى هذه الخرافات ، ولكننى لم اتوصل الى معرفة ما ترمى اليه .

كان جيش قواندونغ قد فكر حقا فى شىء ارادنى ان افعله ، ولكن قائده يودا كان منشغل البال فى الهزائم التى لحقت بجنده فى قتال الحدود الذى خاضوه مع الاتحاد السوفياتى والجمهورية الشعبية المنغولية . وقبل عودته الى اليابان معزولا عن منصبه لهذا الاخفاق ، اشار الى انه من اجل " الصداقة اليابانية — المانشوية " ووحدتهما فى الروح يجب ان يكون هناك تطابق دينى بين البلدين ، وامل ان افكر فى هذه المسألة .

وكنت دائما اتبع مذعنا تعاليم " امبراطورى الاعلى " ، ولكن فى هذه المرة لم ادر ماذا افعل . فجميع مستشارى القدامى اما انهم غادروا واما انهم نبذوا من اليابانيين ، وازواج شقيقاتى وابناء اشقائى كانوا من ضآلة الخبرة بحيث لا يرجى منهم اية فائدة . فاضطررت الى التفكير فى هذه المشكلة وحدى ، ولكن قبل ان اصل الى نتيجة وصل قائد جيش قواندونغ الجديد ، " السفير " الخامس لدى " امبراطورية منشوريا " ، اوميزو يوشيجيرو ، فأخبرنى من خلال يوشيوكا ان دين اليابان هو دين " امبراطورية منشوريا " ، واننى يجب ان ارحب بـ " الهة الاشراق المشع السماوى " ، السلف السماوى للاسرة الامبراطورية اليابانية وان ادخل هذه المعتقدات فى دين " امبراطورية منشوريا " . واضاف انه نظرا الى ان هذه السنة هى الذكرى السنوية الالفين والستمائة للامبراطور جيمو فانها مناسبة رائعة لتقديم الالهة العظيمة الى هذه البلاد . واقترح وجوب ذهابى الى اليابان لأقدم التهانى وارتب الامر .

وسمعت فيما بعد انه كان هناك اختلاف حول ذلك داخل جيش قواندونغ ، اذ ان بعض الضباط ممن خبروا الصين جيدا رأوا ان ذلك سيثير معارضة عنيفة بين اهالى الشمال الشرقى ويزيد من عزلة اليابان . وتقرر فيما بعد انه مع مرور الوقت يمكن لديانة شينتو ان تتغلغل بين الشباب بينما الكبار سيعتادونها شيئا فشيئا . ولكن تنفيذ القرار الخاص بهذه السياسة كان

غير مستحب لدى معظم الخونة الصينيين ، ناهيك عن ابناء الشعب العاديين ، اما انا فقد كان اصعب على كثيرا من سرقة المدفن الشرقى . وكنت قبل ذلك قد منعنى يوشيوكا من تقديم القرابين علانية عند قبور اسلافى الامبراطوريين، كما دعيت اليوم الى ان اعترف بنفسى سليلا لجد اجنبى . وهذا كان من الصعب جدا احتماله .

وعلى الرغم من ان كل تصرف من تصرفاتى منذ ان استسلمت لضغط اتاجاكى فى ليويشون كان عبارة عن خيانة صريحة لوطنى واسلافى ، الا اننى كنت ابرر لنفسى هذه التصرفات . فقد اعتبرتها اعمال اطاعة بنوية تهدف لاعادة احياء قضية السلف ، واعتبرت ان التنازلات التى قدمتها ليست الا من اجل مكاسب المستقبل . واملت ان تتفهم ارواح اسلافى فى السماء هذا الامر وتحمينى . ولكن اليابانيين يجبروننى الآن على تبديل اسلافى والانتساب لغيرهم . ومن المؤكد ان اجدادى لن يسامحونى على ذلك ابدا .

غير انى تذكرت انه يجب ان اوافق على هذا الاقتراح اذا كنت اريد المحافظة على حياتى وامنى . وحتى فى الوصول الى هذه النتيجة كنت قادرا على تبرئة نفسى : سوف استمر فى تقديم التضحية لأسلافى سرا بينما اعترف علنا بالأسلاف الجدد . فاتخذت قرارى ، وقدمت القرابين لأرواح اجدادى ثم توجهت الى اليابان .

قمت بهذه الرحلة الثانية الى اليابان فى مايو ١٩٤٠ ، ومكثت هناك ثمانية ايام .

وعندما قابلت هيروهيتو القيت خطابا كان قد كتبه لى يوشيوكا . وجوهره اننى رجوت ان يسمح لى بعبادة الهة الاشراق المشع السماوى فى " امبراطورية منشوريا " من اجل " الوحدة التى لا تتجزأ فى القلب والفضيلة " بين البلدين .

فكان جواب الامبراطور اليابانى وجيزا جدا : " اذا كانت هذه هى رغبة جلالتكم ، فعلى ان استجيب لها . "

ثم نهض واقفا واشار الى ثلاثة اشياء موضوعة على طاولة : سيف ومرآة برونزية وقطعة من اليشب متقوسة ، وهي اشياء مقدسة كان الاعتقاد السائد انها تمثل الهة الاشراق المشع السماوى . ولما شرح لى سر هذه الاشياء تذكرت ان مخازن ليوليتشانغ للتحف فى بكين ملأى بأمثالها . فهل هى الاخرى الهة عظيمة ؟ وهل يمكن ان تكون تحفيات مخازن ليوليتشانغ من ضمن اسلافى ؟
وترقرقت عيناى بالدموع وانا فى طريق العودة .

وبوصولى الى تشانغتشون بنيت " معبد التأسيس الوطنى " بجانب قصرى ، واسست " مكتب عبادة " تحت اشراف رئيس اركان جيش قواندونغ السابق هاشيموتو تورانوسيوك . وفى اليوم الاول والخامس عشر من كل شهر كنت اقود قائد جيش قواندونغ والموظفين العملاء للذهاب وتقديم القرابين عند المعبد . وفيما بعد بنيت معابد كهذا المعبد فى كافة انحاء الشمال الشرقى ، وقدمت القرابين هناك فى المواقيت المحددة . وكان كل من يمر بأحد هذه المعابد عليه ان ينحنى انحناءة بتسعين درجة ، والا عوقب على " عدم الاحترام " . ونتيجة ذلك اصبحت الاماكن التى بنيت فيها تلك المعابد مهجورة .

وحاول جيش قواندونغ اغوائى بارتداء اغرب الملابس لتأدية هذه الشعائر ، ولكننى عارضت هذا الاقتراح بقولى ان الوقت الآن وقت حرب ، وان من الافضل ان ألبس البزة العسكرية وعليها النياشين اليابانية لأظهر تصميمى على دعم حليفتى اليابان .

وكنت دائما اسجد لأسلافى فى البيت قبل الذهاب الى المعبد ، وعندما كنت اركع لمذبح الهة الاشراق المشع السماوى عند المعبد كنت اقول فى نفسى : " اننى لست راكعا لذلك المذبح بل لقصر السلام الارضى (كون نينغ قونغ) فى بكين . "

واصدرت وسط احتقار شعب الشمال الشرقى لى وشتمهم اياى " مرسوم ترسيخ قاعدة الوطن " . وهذا المرسوم لم يكتبه تشنغ شياو شيوى (الذى

مات منذ سنتين) بل يابانى مختص باللغة الصينية يدعى ساتو توموياسو ، فوضه بذلك " مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة " . وكان نص المرسوم كما يلى :

حيث انني اعمل باحترام على انشاء معبد التأسيس الوطنى لكى نرسخ بذلك قاعدة الوطن الى الابد وننشر مبادئ الوطن الى ما لا نهاية فاننى اصدر لكم هذا المرسوم ايها الرعية .

منذ بدء دولتنا اصبح اساس وطننا اقوى ومكانته اعظم . انه يتمتع بحكومة مرموقة تتحسن يوما بعد يوم . وعندما تأملنا فى هذا الانجاز العظيم ونظرنا الى مصدره ، وجدنا ان فضل ذلك كله يرجع الى البركة الالهية لالهة الاشراق المشع السماوى وحماية صاحب الجلالة امبراطور اليابان . لذلك قمت شخصيا بزيارة البيت الامبراطورى اليابانى ، ولكى نعبر عن تشكراتنا القلبية وامتناننا العظيم اصدرت مرسوما اليكم ايها الرعية لآمركم ان نكون على فضيلة واحدة وتفكير واحد مع اليابان . ومعنى هذا عميق جداً .

لقد كان الهدف من رحلتى الاخيرة الى الشرق هو الاحتفال بالذكرى السنوية الألفين والستمائة للامبراطور جيمو والقيام بعبادة الالهة الجليلة شخصيا . وبمناسبة عودتى الميمونة الى بلادنا فقد اسست على نحو مهيب معبد التأسيس الوطنى لنقدم فيه القرابين الى الهة الاشراق المشع السماوى . وسأصلى انا شخصيا ، وبأسمى آيات التبجيل ، من اجل ازدهار الوطن ؛ وسنجعل هذا مثالا ابديا يتبعه ابناؤنا واحفادنا الى الابد . وهكذا يمكن لأساس الوطن ان يترسخ من خلال تبجيل سبيل الآلهة (٦) ، كما يمكن لمبادئ الوطن ان تؤسس على تعليم الولاء والطاعة البنوية . وهذه الارض الآمنة بما فيها من خير وحب والمهذبة بالوئام ستكون نقية ومشرقة وستكون ضامنة للبركة السماوية .

وليفهم رعايانا جميعا مقصدى من ذلك . قووا القاعدة وانشروا المبادئ ؛ كافحوا لتنفيذ ذلك الى ما لا نهاية ، ولا توقفوا جهودكم الرامية الى جعل البلاد قوية .

بأمر من الامبراطور .

واصبحت منذ ذلك الوقت فصاعدا عبارتا التملق " البركة الالهية لالهة الاشراق المشع السماوى " و" حماية صاحب الجلالة امبراطور اليابان " جزءا اساسيا فى جميع المراسيم .

بذل جيش قواندونغ جهودا كبيرة لتهيئتى انا والوزراء العملاء لاستقبال " سبيل الآلهة " (شينتو) ، وزودونى بخبير شهير فى ديانة شينتو ليعلمنى . وكانت المواد التعليمية التى استخدمها غريبة للغاية ، احدها كان لفيفة عليها صورة شجرة . وقال لى ان اصل هذه الشجرة هو شينتو ، بينما الفروع هى جميع الديانات الاخرى فى العالم ؛ وبكلمة اخرى فانها تفرعت عن شينتو . وكان من الصعب على انا والوزراء العملاء ألا نضحك او ننام خلال تلك المحاضرات .

وعندما اعلنت اليابان الحرب على امريكا وبريطانيا فى ٨ ديسمبر ١٩٤١ جعل جيش قواندونغ " امبراطورية منشوريا " تصدر " مرسوما حول الوضع الراهن " ، اعلنت فيه دعمى لاعلان اليابان الحرب وطلبت من " رعيتى " ان يبذلوا اقصى ما يستطيعون للمساعدة فى المجهود الحربى اليابانى . وكانت المراسيم السابقة تصدر عن " مجلس الدولة " ، ولكن فى هذه المرة عقد اجتماع خاص لـ " المجلس الامبراطورى " مساء ٨ ديسمبر ١٩٤١ ، جعلنى يوشيوكا اقرأ المرسوم فيه بنفسى .

وكلما جاء قائد جيش قواندونغ لزيارتى كنت افتح فمى واطلق مثل هذه العبارة : " ان اليابان و 'امبراطورية منشوريا' واحد لا يتجزأ ، وانهما يعيشان او يموتان معا ؛ اننى مصمم على ان اخصص قوة هذا الوطن بكاملها للنضال من اجل انتصار الحرب المقدسة فى شرقى آسيا العظمى ومن اجل منطقة الازدهار المشترك فى شرقى آسيا العظمى بقيادة اليابان . "

وقام توجو هيدميتشى ، رئيس وزراء اليابان ورئيس اركان جيش قواندونغ السابق ، بزيارة خاطفة الى " امبراطورية منشوريا " عام ١٩٤٢ . وعندما

قابلته اندفعت مباشرة اقول "يمكن لسعادتكم ان تكون على يقين بأننى سأخصص موارد امبراطورية منشوريا بكاملها لدعم الحرب المقدسة التى تخوضها دولتنا الابوية اليابان ."

وفى وقت زيارة توجو كانت اليابان قد تحولت من " حايف " الى " دولة ابوية " . وهذا الاذلال الجديد قد قدم فى " المرسوم حول الذكرى السنوية العاشرة لتأسيس الوطن " . قد قال لى يوشيوكا عشية هذه الذكرى التى وقعت فى مارس ١٩٤٢ : " لا يمكن ان تكون هناك امبراطورية منشوريا من دون اليابان ، اه ، لذلك يجب ان تعتبر اليابان ابا لامبراطورية منشوريا . لذلك ، اه ، على امبراطورية منشوريا ألا تدعو اليابان حايفا او صديقا كما تفعل بقية الدول ؛ يجب ان تشير الى اليابان على انها دولة ابوية . " وفى الوقت نفسه كان الرئيس اليابانى لـ " مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة " يتحدث حديثا مشابها مع الوزراء العملاء . وبعد هذا صدر " المرسوم حول الذكرى السنوية العاشرة لتأسيس الوطن " . ومنذ اعلان هذا "المرسوم" واليابان يشار اليها على انها " دولة ابوية " .

وفى عام ١٩٤٤ عندما اصبح واضحا بما فيه المزيد ان اليابان فى طريقها الى ان تخسر الحرب ، بل استطعت انا ان الاحظ ان جنودها سيبادون قريبا ، جاء يوشيوكا ليرجونى ان اتبرع بالمواد ، لاسيما المعدنية ، للمجهود الحربى ليكون ذلك مثلا للآخرين . فقدمت تلقائيا اضافة الى قيامى بذلك مقدارا من الذهب والفضة والمجوهرات الى جيش قواندونغ . وفيما بعد قدمت لهم السجاجيد المفروشة داخل القصر ومئات القطع من الثياب . وقد اعلنت تبرعاتى هذه على نطاق واسع مما سهل مهمة السلب على الموظفين اليابانيين الذين ارسلوا مقادير ضخمة من البضائع ، تشمل ٣٠٠ الف طن من الرز الى اليابان فى الاشهر الاخيرة من الحرب .

حياة البيت

لما لم يكن مسموحا لى بأن ألعب اى دور فى السياسة ، او اخرج من القصر كما اشاء ، او ارسل فى طلب " وزرائى " لأستشيرهم ، لم يبق امامى ما افعله عندما لم يكن جيش قواندونغ يرسل الى تيارا ما . فتعودت اليقظة فى الحادية عشرة قبل الظهر والنوم بعد نصف الليل ، واحيانا اتأخر حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وكنت اتناول وجبتين يوميا : الفطور ما بين الظهيرة والساعة الواحدة ، والعشاء ما بين التاسعة والحادية عشرة ليلا ، او حتى بعد ذلك . وكنت آخذ قيلولة من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الخامسة او السادسة . وفيما عدا الاكل والنوم فان حياتى يمكن ان تلخص الى مزيج من الضرب والشتم والعرافة والتداوى والخوف .

وكانت جميع هذه العناصر متداخلة . ونظرا الى ان علامات انهيار اليابانيين اصبحت اكثر وضوحا ، فقد اصبحت اكثر فأكثر خوفا من ان يقتلنى اليابانيون ليوقفونى عن التكلم فيما بعد . لذلك اخذت اتملقهم وازداد اقترابا منهم ، بينما رحت اضرب واشتم من فى البيت حيث ازداد طبعى عنفا . واصبحت اكثر فأكثر تعلقا بالخرافة ؛ آكل الطعام النباتى ، واردد النصوص البوذية المقدسة ، وألجأ الى الاستخارة وانشد الحماية من بوذا والآلهة . واصبحت صحتى التى كانت قد تدهورت اكثر بؤسا بسبب هذه الحياة المتوترة المضطربة التى كنت اعيشها ، لذلك كنت اتناول الدواء والحقن فى يأس .

وعاودتنى نزعة القسوة والريبة التى كنت اعانى منها خلال سنواتى فى المدينة المحرمة ، والتى اشتدت فى تيانجين ، حيث وضعت هذه المجموعة من الانظمة الداخلية للخدم :

١ــ تمنع المحادثات غير المسؤولة تجنبا للمكايد .

٢ــ غير مسموح لكم بالدفاع او التغطية على بعضكم .

٣- يمنع الاختلاس والاستغلال :

٤- عندما يتصرف زملاؤكم تصرفا خاطئا عليكم ان تبلغوا عن ذلك فورا .

٥- الخدم الكبار يجب ان يضربوا من هم دونهم مرتبة فور اكتشافهم انهم ارتكبوا خطأ .

تزاد شدة العقوبة درجة اخرى اذا كان هناك ادنى توان فى الالتزام بهذه الانظمة .

بعد انتقالى الى الشمال الشرقى جعلت خدمى يأخذون على انفسهم العهد التالى : " لتعاقبنا السماء ويصعقنا الرعد اذا نحن خالفنا هذه الانظمة . "

ثم ازددت شراسة فصرت اضرب الخدم دائما ، بل واستخدمت معهم ادوات التعذيب . وكانت هناك صنوف مختلفة للضرب ، وكنت اجلب جلادين لهم خبرة بالتعذيب . كما كنت اكلف بهذه المهمة اى فرد من افراد البيت الحاضرين وآمرهم ان يجلدوهم بشدة ، والا شككت فى انهم متآمرون معهم . واذا حدث هذا فانهم يجدون انفسهم تحت الهراوات .

وكان ضحاياى فى هذه الحالة هم كل فرد فى البيت تقريبا باستثناء زوجتى واشقائى وازواج شقيقاتى . وكان فى تلك الايام عدد من ابناء اشقائى يدرسون فى القصر . وقد تعودوا ملازمتى والتحدث معى والقيام بخدمتى . وكنت اربيهم ليصبحوا اقربائى الموثوقين ، ولكن هذا لم ينقذهم من التوبيخ والضرب . واكثر الكلمات التى كانوا يخافون سماعها منى هى " خذه الى الطابق الاسفل " ، لأن ذلك يعنى انه سيؤخذ الى الجلد .

وتصرفاتى هذه كانت تظهر مدى القسوة والجنون والعنف والاضطراب الذى كنت متصفا به .

اصبت بالبواسير وانا فى تشانغتشون . وعندما لاحظ احد ابناء اشقائى الصغار الدواء الذى كنت استخدمه قال من دون تفكير ان ذلك الدواء

يشبه الرصاص . فكان هذا خرقا لأحد محظوراتى : هل قصد انه يريدنى ان اضرب بالرصاص ؟ وبناء على امرى ضربه ابن عمه بالعصا .

واكثر الضحايا تعاسة كانوا من الخدم الغلمان . وكان عندى مجموعة منهم ، وقد جىء بهم من ملجأ ايتام فى تشانغتشون . ومعظمهم ممن قتل اباؤهم على يد اليابانيين .

وخوفا من ان يكبروا وتنشأ عندهم الرغبة فى الانتقام قد اجبر اليابانيون الحكومة العميلة على وضعهم فى ملجأ للأيتام ، بعد تبديل اسمائهم وتعليمهم ان يكونوا عبيدا وارهاقهم بالأعمال الثقيلة . وكان بعضهم مفعما بالأمل عندما علم انه سيجلب الى القصر ، ظانا ان الحياة ستكون افضل مما هى عليه فى ملجأ الايتام . ولكن تبين انها اسوأ بكثير . لقد كانوا يأكلون الذرة الرفيعة من ادنى الدرجات ويلبسون ثيابا بالية ، ويعملون خمس عشرة او ست عشرة ساعة فى اليوم ، واحيانا يلزمون بالسهر فى الخدمة طوال الليل ايضا . وفى الشتاء كانوا يعانون من شدة التعب والبرد والجوع بحيث يأخذهم النعاس فينامون احيانا متكئين على اجهزة التدفئة المركزية فيما هم يعملون ثم يستيقظون وقد ملئت اجسامهم بالحروق . وكانوا يضربون على الدوام لنومهم فى العمل ، او لعدم التكنيس جيدا ، او لتكلمهم بصوت عال او عندما يكون المساعدون الشخصيون فى حالة نفسية سيئة يصبون جام غضبهم على الغلمان الذين هم تحت مسؤوليتهم ، وكانوا احيانا يحجزونهم فى قبو معزول . وقد عرقلت هذه الحياة التعيسة نموهم فكانوا يبدون وهم فى سن السابعة عشرة او الثامنة عشرة قماء كأنهم ابناء عشر سنين .

وحدث لأحدهم ويدعى سون بوه يوان ، ان حاول الهرب عندما وجد الحياة داخل القصر لا تطاق ، فقبض عليه وضرب بوحشية . ثم حاول مرة اخرى الخروج من نفق التدفئة المركزية ، وبعد ان زحف فى داخله مدة يومين لم يجد مخرجا . واضطر بعد ان انهكه الجوع والعطش الى

الخروج ليحصل على شربة ماء فألقى القبض عليه . وعندما اخبرني بذلك المساعدون امرتهم : " اعطوه شيئا يأكله ومن ثم لقنوه درسا جيدا . " ولكن قبل ان يعطى " درسا جيدا " ظل يضرب حتى اوشك على الموت . وبلغني ذلك فأفزعني بشدة ، حيث خشيت ان يتحول الى شبح وينتزع حياتي انتقاما ، لذلك اصدرت اوامري باستدعاء طبيب لانقاذه . ولكن فات الأوان .

وامضيت عدة ايام بعد ذلك اركع واتلو مقاطع من النصوص المقدسة امام مذبح بوذا ، واصلي لروحه كي تعبر الى العالم الآخر بأمان ، على امل ان اتجنب بذلك العقاب . وامرت ان يقوم المساعدون الذين ضربوه بضرب راحات ايديهم بمساطر من الخيزران يوميا لمدة ستة اشهر تكفيرا عن ذلك ، وكأن هذه الاجراءات سترفع عنى مسؤولية قتله كاملة . وازدادت قسوتي على الخدم بعد ذلك الى حد الافراط بسبب حالتي المتوترة .

واتخذت الاحتياطات الشديدة لأتأكد من انني لم اخدع بفن (فلس) واحد عندما يقوم الخدم في المطبخ بشراء الخضار فكنت ابعث جواسيس عليهم عند التسوق ، واسأل شقيقاتي عن اسعار لحم الخنزير والدجاج . وكان الطهاة يغرمون اذا لم يلائم الطبخ ذوقي او اذا وجدت فيه وسخا . وبالطبع كانوا يكافأون احيانا اذا سرني الطعام . هكذا بينما انا عاجز في الخارج كنت اتمتع بالسلطة المطلقة داخل بيتي .

في اواخر ايام " امبراطورية منشوريا " اصبحت هزيمة اليابان المنتظرة اكثر فأكثر وضوحا . وعززت اخبار الاذاعات المتحالفة وهبوط معنويات يوشيوكا شعوري بأن هذه هي نهاية فترتنا . واصبح طبعي اسوأ من ذي قبل ، واخذت اتصرف بمزيد من الشراسة في البيت . حتى وقع احد افراد عشيرتي الكبار الذي جاء ليهنئني بعيد ميلادي في اوائل عام ١٩٤٤ موضوعا لولعي في فرض سيطرتي على من حولي .

كان ذلك حينما نظم عرض للتزحلق داخل القصر للاحتفال بعيد ميلادى ، وكان قريبى هذا حاضرا فحيا بعض الضباط اليابانيين فى حضرتى بكل ادب . وهذا التصرف الذى يبدو واضحا انه خال من اى اساءة ، قد بلغنى به احد ابناء اشقائى عند المأدبة التى اقيمت بعد العرض ، لأن تقديم الاحترامات لأى شخص آخر فى حضور "ابن السماء" كان ممنوعا داخل القصر ، وقد تعلم ان مهمته هى التبليغ عن مثل هذه التصرفات . ونظرا الى اننى كنت منشرح الاسارير فى ذلك الوقت ولأن المذنب من جيل يكبرنى ، فقد تجاوزت هذه المسألة . ولكن الرجل كان من الفضول بحيث سأل ابن شقيقى عما همسه فى اذنى . وكان هذا التصرف الثانى دليلا اكبر على "عدم الاحترام" لا يمكن احتماله ، فانفجرت غاضبا وصحت به ضاربا على الطاولة . فشحب وجهه رعبا ، وجثا على الارض وسجد لى . ولكننى لم اهدأ ، فغادرت مقعدى متهما اياه بعدم الوفاء ليس لى فحسب بل لأسلافنا الامبراطوريين ايضا . وخيم الصمت على المجلس بكامله . ورأيت لغرورى ان هذا العجوز اسوأ من اليابانيين الذين كانوا على الاقل غير متسمين بالفظاظة مطلقا فى تعاملهم معى امام الناس .

اثناء وجودى فى تشانغتشون قرأت كمية ضخمة من الكتب الخرافية ، واصبحت شغوفا بها . ومما قرأته ان جوهر بوذا يحل فى جميع الكائنات الحية وجعلنى ذلك اخشى ان يكون اللحم الذى آكله تقمصا لبعض اقربائى . لذلك كنت الى جانب ما اتلوه من النصوص البوذية صباحا ومساء اقرأ كذلك صلواتى قبل كل وجبة من اجل التقمص الافضل لروح الحيوان الذى سآكل لحمه . وكنت فى البداية اتلو ذلك فى نفسى بصمت امام اى شخص آخر ، ولكننى فيما بعد اصبحت اطلب من الآخرين جميعا ان يغادروا الغرفة الى ان انتهى من تلاوة الصلاة ، وعندها فقط اسمح لهم بالعودة الى الغرفة . واذكر مرة اننى سجدت لبيضة ثلاث مرات فى ملجأ الغارة الجوية

التابع للقصر قبل ان آكلها . وفى ذلك الوقت كنت آكل الطعام النباتى فقط .

ولم اكن اسمح بقتل الذباب ، مصرا على الاكتفاء بطرده . ولما عرفت ان الذباب يحمل الجراثيم التى تسبب الامراض ، صرت لا آكل قط اى طعام تلمسه ذبابة . واذا ما حطت ذبابة على شفتى كنت امسح الموقع الذى وقفت فيه بقطعة من القطن مبللة بالكحول من علبة كنت احملها دائما ، واذا ما وجدت ساق ذبابة فى طعامى كنت اغرم الطباخ . ولكن على الرغم من هذا كله لم اسمح لأحد بقتل ولو ذبابة واحدة . وذات مرة عندما رأيت قطة تمسك فأرا امرت جميع الخدم بمطاردة القطة لانقاذ حياة الفأر .

وكلما اكثرت من قراءة الكتب البوذية ازددت اعتقادا بها ، وكانت احلامى بزيارة العالم الاسفل تقوى هذا الاعتقاد . لقد قرأت مرة انك اذا تلوت النصوص المقدسة طوال عدة ايام ، فان بوذا سيظهر وسيطلب شيئا يأكله . لذلك اعددت غرفة ، وبعد ان قرأت النصوص اعلنت لكل واحد ان "بوذا قد جاء" وزحفت الى الغرفة على ركبتى . وكانت الغرفة بالطبع فارغة ، ولكننى كنت ارتجف خوفا وانا ساجد الى لا شىء .

وبتأثير منى بدأ اهل البيت بكامله ترتيل النصرص البوذية ، على حين يضج الفناء بدوى الطبل الخشبى والصنج النحاسى . وبدا القصر كأنما اصبح معبدا .

وواصلت نشاطى القديم فى اللجوء الى الاستخارة ، وكنت اكرر القيام بالعرافة الى ان احصل على بشارة خير . وعندما كنت خائفا من ان يقدم جيش قواندونغ على قتلى ، تعودت ان استخير كلما زارنى يوشيوكا . واصبح تجنب الكارثة وجلب الحظ السعيد الفكرة الموجهة لكل تصرفاتى . وانتهيت الى ان اسأل نفسى اى مكان واى ثوب واى طعام هو الملائم والمبشر بالخير ، وايها الباعث على التشاؤم . ولم يكن هناك مقياس ثابت للاجابة من خلاله

عن هذه الاسئلة . فاذا كنت ماشيا فى طريق ورأيت امامى آجرة اتخذت بشأن ذلك حكما : " اذا انا مررت من الجانب الايسر فهذا فأل خير ، واذا انا مررت بها من الجانب الايمن فذلك نذير شؤم . " وعندئذ امر بها من الجانب الايسر . ويمكن ان اضرب امثالا اخرى كثيرة ، مثل : أ يعبر المرء العتبة بقدمه اليمنى او اليسرى اولا ، وأ يأكل شيئا ابيض قبل شىء اخضر ام العكس . وكانت وان رونغ منهمكة بذلك مثلى ، وقد اتخذت لنفسها قاعدة بأنها كلما واجهت شيئا مشؤوما فعليها ان ترمش او تبصق . واصبحت هذه عادة بالنسبة لها بحيث اخذت ترمش وتبصق فى غيرما سبب يدعو الى ذلك ، كأنما كانت تعانى من مرض عقلى . وتحول ابناء اشقائى جميعا وهم فيما يقارب العشرين من العمر الى شبه مترهبين تحت ارشادى . كان بعضهم يستغرق فى التأمل كل يوم ، وبعضهم لا يعود الى البيت مساء على الرغم من انه حديث عهد بالزواج ، وبعضهم كان يعلق صور هياكل عظمية فوق سريره ، وبعضهم يرتل الصلوات طوال اليوم يتمتم بالتعاويذ كأنما يرى اشباحا .

واعتدت ان استغرق فى "التأمل" كل يوم وامنع خلال ذلك جميع الاصوات بما فيها اللهاث . وكنت محتفظا بكركى فى الفناء ، وقد تجاهل الكركى هذه القاعدة فكان يصيح متى استهواه ذلك . فجعلت الغلمان مسؤولين عن ذلك ، وفرضت عليهم غرامة قدرها خمسون فنا كلما احدث الكركى ضجة . وبعد ان فقد الغلمان كثيرا من اليوانات بهذه الطريقة وجدوا طريقة لاسكات هذا الطير : كلما مد عنقه ضربوه ، فاحتفظ الكركى بعدها بالصمت :

وبسبب رعبى من الموت كنت شديد الخوف من المرض . واصبحت مدمنا على الدواء ، مسببا لنفسى وكذلك لأهل بيتى كثيرا من المتاعب . فقد تعودت جمع الادوية : فكان عندى مخزن للدواء الصينى التقليدى وصيدلية

للعقاقير الحديثة ، وانفقت آلافا بل عشرات الآلاف من اليوانات على استيراد العقاقير من الخارج ولو انى لم استخدمها قط . وكان عدد من ابناء اشقائى يضطرون الى تمضية الوقت عندما لا تكون لديهم دراسة فى الاعتناء بجميع هذه الادوية ، وكانوا هم وطبيبى الشخصى مشغولين فى اعطائى حقنا لعدة ساعات كل يوم .

عندما كنت مقيما فى المدينة المحرمة كنت كثيرا ما اعانى من امراض تخيلية ، ولكننى الآن مريض حقا . لقد قمت ذات مرة بـ " جولة امبراطورية " الى آندونغ لزيارة محطة كهرمائية بناها اليابانيون حديثا . وعندما وصلت الى هناك تحاملت على نفسى حتى ابقى ثابتا منتصبا امام اليابانيين حيث اننى ارتدى بزة عسكرية . وقبل ان امشى مسافة طويلة اخذت ألهث ، ولدى عودتى كدت افقد الوعى . وجعلنى ضعفى الجسمانى واضطرابى العقلى اخاف من ان اكون قد اصبحت على حافة القبر .

ذات يوم رأيت العبارة التالية مكتوبة بالطباشير على سور القصر : " ألم تحصل على التحقير الكافى من اليابانيين ؟ " فنسيت كل شيء بخصوص لعبة التنس التى كنت خارجا من اجلها ، واصدرت اوامر بمسحها على الفور . وعدت الى غرفة نومى ، وقلبى يخفق شاعرا بمنتهى الضعف الذى لا امل معه بالبقاء . وذعرت من ان يكتشف اليابانيون ذلك ويقوموا بحملة استقصاء فى بيتى واسعة النطاق ، ولم ادر الى ماذا يمكن ان يؤدى هذا الامر . وذعرت اكثر فأكثر من اكتشاف ان هناك " عناصر معادية لامبراطورية منشوريا ومعادية لليابانيين " داخل بلاطى . اذا هو تجرأ على كتابة ذلك على السور ، فما الذى يوقفه عن قتلى ؟

ونظرا الى شدة اضطرابى وذعرى طوال النهار اصبحت اقل اهتماما بحياتى العائلية . لقد تزوجت اربع زوجات ، او ، لكى استخدم المصطلحات التى كانت متداولة حينذاك ، كانت لى امبراطورة وزوجة وزوجتان ادنى

مرتبة . ولكنهن فى الواقع لم يكن زوجات حقيقيات ، بل لمجرد العرض . ومع انني عاملتهن على نحو مختلف الا انهن جميعا كن من ضحاياى .

ان خبرات وان رونغ التى اهملت فترة طويلة سيكون من المتعذر ادراكها بالنسبة لفتاة صينية حديثة . ومع ان مصيرها لم يكن محددا منذ ولادتها ، فان نهايتها المحتومة تحددت منذ لحظة زواجها بى . كثيرا ما فكرت لو انها طلقتني فى تيانجين كما فعلت ون شيو فاربما كان بوسعها ان تنجو . ولكنها حينذاك كانت مختلفة تماما عن ون شيو . فبالنسبة لون شيو كانت الحياة العائلية العادية اهم من المنزلة العالية والاخلاق الاقطاعية . ولكن وان رونغ علقت اهمية عظيمة على مركزها كـ " امبراطورة " ، وكانت على استعداد لأن تصبح زوجة اسميا من اجل المركز فقط .

بعد ان طردت ون شيو من قبل وان رونغ شعرت نحوها باشمئزاز ، ولم اعد احدثها كثيرا او اوليها ادنى اهتمام . لذلك لم تطلعني على مشاعرها او آمالها واحزانها مطلقا ؛ وكل ما عرفته انها اصبحت مدمنة افيون وتتصرف بطريقة لا تليق بنا . وعندما افترق بنا السبيل بعد استسلام اليابانيين ، كان ادمانها الافيون قد تفاقم وكانت فى منتهى الضعف ؛ وقد ماتت فى السنة التالية فى جيلين .

عام ١٩٣٧ اخترت ضحية جديدة تدعى تان يوى لينغ معاقبة لوان رونغ ولأن زوجة ثانية كانت قطعة ضرورية من اثاث القصر . وقد رشحها قريب لى فى بكين ، فأصبحت زوجة من المرتبة الادنى وكانت من عشيرة تاتالا المانشوية القديمة ، وكانت طالبة مدرسة عندما تزوجتها وهى فى سن السابعة عشرة . وهى كذلك كانت زوجة بالاسم ، وقد احتفظت بها فى القصر كما احتفظ بطير الى ان ماتت عام ١٩٤٢ . وسبب موتها ما يزال غامضا بالنسبة لى . لقد كانت تعانى من نوبة تيفوئيد لم تكن مميتة وفقا لرأى الطبيب الصينى الذى رآها . وحينذاك قال يوشيوكا انه يريد " الاعتناء "

بها فنقلت الى مكتب القصر . وتحت اشراف يوشيوكا ومعالجة طبيب يابانى ماتت فجأة فى اليوم التالى .

وما بدا لى غريبا هو ان الطبيب اليابانى كان شديد العناية بها فى البداية ولكن بعد ان ذهب الى غرفة اخرى ليجرى حديثا مطولا مع يوشيوكا فقد حماسه وتوقف عن اعطائها الحقن وعن نقل الدم اليها . وجعل يوشيوكا رجال الدرك اليابانيين يواصلون الاتصال هاتفيا بالممرضات فى غرفة المريضة طوال الليل للحصول على المعلومات ، وفى الصباح التالى ماتت تان يوى لينغ .

وحالما ابلغت بموتها جاء يوشيوكا ليعبر عن تعازى قائد جيش قواندونغ ، وقدم على الفور اكليلا . فقوت هذه السرعة المذهلة شكوكى طبعا . وتذكرت ان تان يوى لينغ كثيرا ما كانت تحدثنى عن اليابانيين ، وقد عرفت الكثير عن تصرفاتهم جنوب السور العظيم عندما كانت تدرس فى بكين . وكنت قد شككت فى ان يكون اليابانيون قد استرقوا السمع الى محادثتى مع الامير ده ، وموت تان يوى لينغ ذكرنى طبعا بمخاوفى السابقة .

وبعد ذلك مباشرة قويت شكوكى فى ان جيش قواندونغ لا بد ان تكون له علاقة بموتها ، وذلك عندما جلب لى يوشيوكا مجموعة صور لفتيات يابانيات لأختار واحدة منهن .

ورفضت النظر فى مسألة كهذه بينما كانت جثة تان يوى لينغ ما تزال ساخنة . ولكنه اصر على انه يريد ان يرتب هذا الامر لى ليخفف عنى الحزن . فقلت له عند ذلك بأن هذا الامر يجب ألا يكون متعجلا ، ووضحت له ان هناك ، بالاضافة الى ذلك ، حاجز اللغة .

" ستكونان قادرين على فهم بعضكما بعضا ، اه . وهى ستكون قادرة على التكلم باللغة المانشوية . "

فأسرعت اوضح له ان المسألة ليست مسألة عرق ، بل اننى مضطر لأن اجد فتاة ملائمة لى فى ذوقها وعاداتها فى المعيشة . ولم اتجرأ على اية

حال ان اتكلم كثيرا حول رفض الاقتران بزوجة يابانية .

وبدا " الملحق بالبيت الامبراطورى" متمسكا بى حقا ، وظل يلاحقنى بهذا الموضوع يوما بعد يوم . وفى النهاية ادرك اننى عنيد — او ربما غير جيش قواندونغ رأيه ، فأخرج لى صورا لفتيات صينيات من مدرسة يابانية فى ليويشون . ومع ان اختى الثانية حذرتنى من ان هؤلاء الفتيات جميعا قد اشربن الروح اليابانية الى درجة ان اصبحن مثل يابانيات فى الواقع ، الا اننى شعرت بعدم القدرة على قطع الصلة بجيش قواندونغ الى الاخير . فاخترت فتاة صغيرة لم تتعلم الشيء الكثير ، ظانا اننى سأكون قادرا على معالجتها حتى وان كانت قد دربت على يد اليابانيين .

وهكذا اصبحت طالبة مدرسة فى الخامسة عشرة من عمرها ضحية رابعة لى بصفة زوجة من المرتبة الادنى . ولكن بعد سنتين من وصولها انهارت " امبراطورية منشوريا " ، فأعيدت الى بيتها .

الانهيار

بينما كنت فى سجن مجرمى الحرب اخبرنى قائد لواء سابق فى " امبراطورية منشوريا " انه قاد فى الشتاء الذى اندلعت فيه حرب الباسيفيك فصيلا من الجنود العملاء لمهاجمة بعض القوات المعادية لليابانيين بموجب امر من جيش قواندونغ . وقام رجاله بتفتيش فى الغابات ، فلم يجدوا الا مقاتلا مريضا من المعادين لليابانيين منزويا فى مخبأ . وكانت ملابس هذا الرجل رثة بالية وشعره اشعث بحيث بدا كأنه فى السجن منذ سنين . ولدى رؤيته قال له قائد اللواء :

— من الحالة التى انت فيها يتضح ان جماعتك لا يمكن ان تحقق شيئا . ألا تدرى ان الجيش اليابانى الامبراطورى قد احتل هونغ كونغ

وسينغافورة ؟

فانفجر الاسير بالضحك . فضرب اللواء المانشوى العميل الطاولة بيده وقال :

ـ علام تضحك ؟ ألا ترى انك قيد المحاكمة ؟

ـ من هو قيد المحاكمة ؟ ان نهايتكم قريبة ولن يمضى وقت طويل حتى يحاسبكم الشعب .

وكان جميع الضباط والموظفين المدنيين العملاء يعرفون ان الشعب فى الشمال الشرقى يكرههم ويكره اليابانيين اشد الكراهية ، ولكنهم لم يستطيعوا فهم السبب الذى جعل الشعب يتحلى بهذه الشجاعة وهذه الثقة العظيمة بالنفس او السبب الذى جعله متأكدا تمام التأكيد من ان حكامه الاقوياء محكوم عليهم بالهلاك . وكنت دائما اعتبر قوة الامبريالية اليابانية راسخة ومنقطعة النظير . ولم افكر حتى فى ان امبراطورية تشينغ العظيمة او جمهورية الصين ، سواء حكمها امراء الحرب من زمرة بييانغ او الكومينتانغ ، يمكن ان تكون ندا لليابان ؛ والشعب العادى لم يدخل فى حسابى مطلقا .

ومع ان حقائق لا يحصى عددها كان يجب ان تعلمنى من القوى حقا ومن الضعيف ، الا اننى بقيت غافلا عن ذلك تماما الى ان كشفه يوشيوكا لى . وحتى حينذاك لم افهم الا على نحو غامض .

ذات سنة كانت " الجولة الامبراطورية " السنوية التى يرتبها لى جيش قواندونغ الى منطقة يانجى التى يسكنها ، رئيسيا ، ابناء القومية الكورية . وعندما وصل قطارى الى هناك وجدت اننى محاط بأعداد ضخمة من رجال الدرك اليابانيين وبست كتائب من الجنود العملاء . وعندما سألت يوشيوكا عن سبب وجودهم هناك اجاب :

ـ للاحتراس من قطاع الطرق .

ـ لماذا كل هذه الاعداد الكبيرة من الجند للاحتراس من قطاع

الطرق ؟

— قطاع الطرق هؤلاء ليسوا من الطراز القديم ، انهم الجيش الشيوعى .

— كيف يكون لدى امبراطورية منشوريا قوات شيوعية ايضا؟ أليست الجيوش الشيوعية لدى جمهورية الصين ؟

— اجل ، يوجد هنا بعض الشيوعيين . . . ولكنهم قليلون جدا ؛ وغير يوشيوكا الموضوع حينذاك .

وفى مناسبة اخرى ، عندما كان احد ضباط اركان جيش قواندونغ يعد تقاريره المنتظمة عن الوضع العسكرى قام بنشر اعلان خاص عن الانتصار . وفى هذه الحملة ضحى القائد المعادى لليابانيين الجنرال يانغ جينغ يوى بحياته . وقد اخبرنى ضابط الاركان بنشوة كبيرة ان موت الجنرال يانغ قد ازال " تهديدا كبيرا لامبراطورية منشوريا " . وكلمتا " تهديد كبير " دفعتانى الى السؤال عن عدد قطاع الطرق الذين هم داخل " امبراطورية منشوريا " . فأجابنى نفس الجواب الذى قدمه يوشيوكا : " قليلين جدا ، قليلين جدا . "

وفى عام ١٩٤٢ شنت القوات اليابانية حملة الاكتساح الكبيرة فى شمالى ووسط الصين . وطبقوا فى بعض الاماكن سياسة " التدميرات الثلاثة " القائمة على حرق كل شيء وقتل كل واحد وسلب كل شيء مدمرين بذلك بعض النواحى تدميرا تاما . واخبرنى يوشيوكا ذات مرة كيف استخدم الجيش اليابانى مختلف صنوف التكتيكات ضد " الجيوش الشيوعية " فى شمالى الصين ، مثل " التطويقات الحديدية " و" استخدام المشط الدقيق " . " ان التاريخ القتالى للجيش اليابانى الامبراطورى قد اثرى على نحو هائل . " وبسماعى هذا الوصف المتبجح سألته :

— ان الجيوش الشيوعية ضئيلة العدد ، فلماذا يحتاج صاحب الجلالة امبراطور اليابان الى استخدام كل هذه التكتيكات الجديدة ؟

فدهشت حين سخر مني قائلا :

— لو كان لجلالتكم الامبراطور خبرة قتالية لما سألت هذا السؤال .

— هل يمكن ان اسأل لماذا ؟

— ان الجيش الشيوعي مختلف عن جيش الكومينتانغ . لا فرق عنده بين الجنود والشعب ، اه . انه مثل ، اه ، الباقلاء اليابسة المختلطة بحصى احمر .

ولما رأى عدم فهمي استخدم المثل الصيني " عيون السمك مختلطة باللآلئ " ليجعلني افهم حديثه . وقال انه عندما كان الجيش الياباني يقاتل الجيش الثامن او الجيش الرابع الجديد (٧) كان غالبا ما يجد نفسه مطوقا تماما . وفيما بعد اوضح لي ان الشعب لا يخاف من " الجيوش الشيوعية " اينما اتجهت . واكثر من ذلك ان المقاتل الذي ينضم اليها سنة واحدة لا يخرج منها ابدا ، وهذا ما جعل هذه الجيوش عديمة النظير في تاريخ الصين . هذه الجيوش آخذة في الازدياد وسيكون من المتعذر تماما التغلب عليها في المستقبل . وتنهد وهز رأسه قائلا : " شيء مرعب ، مرعب تماما . " وجعلني مرأى هذا الضابط من " الجيش الياباني الامبراطوري " الذي يصف العدو " الضئيل " بهذه العبارات ، جعلني في غاية القلق وعدم الارتياح بحيث لم اعرف ماذا اقول . ثم استجمعت قوتي وقلت هذه الملاحظة :

— انهم مخيفين حقا ، ولاسيما الطريقة التي يحرقون بها ويقتلون ويبيحون الممتلكات والزوجات .

فقاطعني قائلا بفظاظة :

— لا يصدق ذلك الا كل بليد .

وبعد لحظة نظر الي بتعابير ساخرة وقال :

— هذه لم تكن ملاحظة رسمية ؛ يجب ان اطلب من جلالتكم الآن ان تصغوا الى تقرير رئيس اركان جيش قواندونغ .

وادركت تدريجيا ان ملاحظات يوشيوكا غير الرسمية اقرب الى الحقيقة من الاخبار الموجزة الرسمية التى يصرح بها قائد جيش قواندونغ ورئيس اركانه . وعندما بدأ جيش قواندونغ حملة نوماهان عام ١٩٣٩ دعانى قائده يودا مع بعض الموظفين العملاء لمشاهدة عرض لاظهار مدى زيادة سرعة الطائرات اليابانية عن الطائرات السوفياتية . ولكن اليابانيين هزموا فى تلك الحملة هزيمة مدمرة ، فقدوا فيها اكثر من ٥٠ الف جندى ، واقصى يودا عن منصبه . وكانت ملاحظة يوشيوكا غير الرسمية هى ان " المدفعية الثقيلة السوفياتية ابعد مدى من مدفعيتنا بكثير . "

وبينما كنت اصغى الى المذياع فهمت تدريجيا الكثير عن قلق يوشيوكا المخفى . كانت هناك مزيد من الاخبار عن الهزائم العسكرية اليابانية على جميع الجبهات ، وهذه الاخبار اكدتها اخبار " اليشب المحطم " (" التضحيات البطولية ") فى صحافة " امبراطورية منشوريا " . وحتى فى عزلتى استطعت ان ارى ان هناك عجزا فى امدادات المواد . فالنحاس القديم والحديد ، مثل مدقات الابواب والمباصق ، اختفت من القصر ، بينما اصبح موظفو البلاط يعانون عجزا فى الغذاء وطلبوا منى ان امدهم بالعون . وخوفا من ان اعرف مدى بؤس الطعام الذى كان يتناوله الجنود ، دعانى جيش قواندونغ لمشاهدة عرض خاص للمؤن العسكرية ؛ وللتصدى لتأثير الاذاعات الاجنبية ارسلوا الى افلاما للدعاية للانتصارات اليابانية . ولكن لم يصدق هذه الافلام لا انا ولا اصغر واحد من ابناء اشقائى .

والذى ترك فى نفسى اعمق الانطباعات هو الخوف الذى اظهره اليابانيون . فالضابط ياماشيتا تومويوكى الذى اعتز وانتفخ عندما نقل الى جيش قواندونغ بعد الاستيلاء على سنغافورة اصبح رجلا آخر عندما جاء ليستأذننى مودعا لدى ارساله الى جنوب شرقى آسيا عام ١٩٤٥ . فقد قال وهو يبكى مغطيا انفه : " هذا هو فراقنا الاخير . لن اعود ثانية ابدا . "

ورأيت كذلك المزيد من الدموع في حفل الوداع الذى اقيم لـ " الرصاصات البشرية " . كانت الرصاصات البشرية عبارة عن جنود اختيروا من الجيش اليابانى وكانوا مسممين بالاعتقاد بـ " بوشيدو" والوفاء للامبراطور اليابانى كما انتخبوا لمهمة ايقاف الطائرات والدبابات بأجسامهم . وكان يوشيوكا يتكلم دائما عن افعال كهذه باحترام عظيم . وكان هذا الاحتفال قد خصصه جيش قواندونغ لأشجع الرجال الذين اختيروا " رصاصات بشرية " ولأتمنى لهم النجاح . وكان يوما غائما ، اجتاحته عاصفة هوجاء محملة بالاتربة . وكان فناء القصر اكثر مدعاة للغم بسبب اكياس الرمل التى كانت مركومة فوق بعضها حماية من الغارات الجوية . وقد وقف امامى حوالى بضع عشرة ضحية فى صف واحد ؛ والقيت عليهم الخطاب المفعم بالامانى الطيبة الذى كتبه يوشيوكا ، ثم شربت نخبهم . وعندها فقط رأيت الشحوب الرمادى فى وجوههم والدموع تنحدر على وجناتهم ، وسمعت بعضهم يهتدج .

وانتهى الاحتفال نهاية فوضوية وسط الغبار المحموم ، وفيما هرعت عائدا الى غرفتى لأغسل كان ذهنى فى اضطراب شديد وتبعنى يوشيوكا فعرفت ان لديه شيئا يود ان يقوله لى ، فتمهلت فى سيرى كى يدركنى . فجرد صوته وهمهم وقال :

— لقد تكلمتم يا صاحب الجلالة على نحو جيد واثرتم فى اولئك الجنود تأثيرا عميقا جعلهم يذرفون الدموع اليابانية الرجولية .

فقلت فى نفسى : " انك خائف حقا ، خائف من ان اكون قد اكتشفت حقيقة الرصاصات البشرية . حسنا ، اذا كنت خائفا ، فأنا اكثر منك خوفا . "

ان استسلام المانيا فى مايو ١٩٤٥ جعل اليابانيين فى يأس اشد من السابق ، ولم تعد المسألة الآن الا مسألة وقت حتى يدخل الاتحاد السوفياتى الحرب . بل وايقنت ان مأزق اليابان لا مخرج منه .

واخيرا جاء الانهيار النهائى . ففى صباح ٩ اغسطس ١٩٤٥ اتانى قائد جيش قواندونغ الاخير ياماتا اوتوزو ورئيس اركانه ليبلغانى ان الاتحاد السوفياتى قد اعلن الحرب على اليابان .

كان ياماتا رجلا عجوزا نحيفا قصيرا وكان جادا فى تصرفه بطيئا فى كلامه . ولكنه اليوم بدا مختلفا تماما ؛ فقد قدم لى وصفا سريعا كيف كان الجنود اليابانيون على اهبة الاستعداد ، واخبرنى انهم واثقون بالنصر ثقة تامة . وقبل ان ينهى كلامه سمعنا صفارة الانذار فاختبأنا جميعا فى ملجأ . ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا قنابل تنفجر قريبا منا ، وفيما رحت اتضرع الى بوذا فى سكون ظل هو صامتا . ولم يشر بعد ذلك ثانية الى ثقته بالنصر حتى افترقنا بعد انتهاء الغارة الجوية .

ومنذ تلك الليلة اخذت انام بثيابى التى ألبسها فى النهار ، واحتفظ بمسدس فى جيبى ، وحددت بنفسى كلمة السر داخل القصر .

وفى اليوم التالى جاء ياماتا ورئيس الاركان ليخبرانى بأن الجيش اليابانى سينسحب ويبقى محتفظا بجنوبى منشوريا ، لذلك فان " العاصمة " ستنتقل الى تونغهوا ، وان على ان استعد للانتقال فى نفس اليوم . ولما ادركت ان من المستحيل ان انقل بيتى الكبير وجميع ممتلكاتى بهذه السرعة الشديدة ، رجوت ان يؤجل الانتقال ، فظفرت بمهلة يومين .

بدأت الآن اعانى تعذيبا نفسيا جديدا يرجع من جهة الى التغير الكبير فى موقف يوشيوكا ، ومن جهة الى شكوكى المرضية . لقد لاحظت التغير فى موقف يوشيوكا من ملاحظة ابداها بعد انصراف ياماتا : " اذا لم تذهبوا يا صاحب الجلالة فستكونون اول من يقتل على ايدى الجنود السوفيات . " قال ذلك بطريقة ملؤها الشراسة والفظاظة . وما جعلنى اكثر خوفا هو تشككهم فى اننى لا اريد ان اذهب واننى اخطط لخيانتهم .

" اذا هم يظنون بأننى يمكن ان تأسرنى الجيوش المتحالفة ، أفلا يفكرون

فى قتلى ليحتفظوا بصمتى ؟ " جعلت هذه الفكرة شعرى يقف عن آخره ؛ ثم تذكرت حيلة كنت قد قمت بها قبل عشر سنوات لأظهر " وفائى واخلاصى" امام يوشيوكا فأرسلت فى طلب " رئيس الوزراء " تشانغ جينغ هوى وتاكيب روكوزو ، رئيس مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة ، وامرتهما قائلا : " يجب ان ندعم الحرب المقدسة التى تخوضها دولتنا الابوية بكل قوتنا ، ويجب ان نقاوم الاتحاد السوفياتى الى النهاية ، الى النهاية تماما . "

والتفت لأنظر الى تعابير وجه يوشيوكا ، فرأيت ان " الملحق " الذى لازمنى فى الاحوال العادية كظلى قد ذهب . فأخذت اذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد استبدت بى نذر الخوف . ونظرت الى خارج النافذة فرأيت بضعة جنود يابانيين يتقدمون نحو المبنى وبنادقهم مشرعة . فكاد قلبى يطفر الى خارج فمى ، وظننت ان ساعتى قد حانت . ولما لم اجد مكانا اختبئ فيه ذهبت الى اعلى السلم لألقاهم . ولكنهم انصرفوا بعد ان رأونى .

وقدرت انهم لا بد قد جاؤوا لاختبار ما اذا كنت سأهرب ام لا . وكلما فكرت فى ذلك ازددت ذعرا فتناولت سماعة الهاتف كى اتصل بيوشيوكا ، فلم اجده وبدا الامر لى كأن اليابانيين غادروا من دونى ، وذلك ارعبنى ايضا .

وفيما بعد تمكنت من الاتصال بيوشيوكا . كان صوته ضعيفا جدا ، وقال انه مريض . فعبرت له عن اهتمامى ، وقلت بعض الكلمات الرقيقة ، فسمعته يقول : " شكرا لكم يا صاحب الجلالة " ، واغلقت الهاتف . وتنفست الصعداء . وتذكرت اننى لم آكل طوال النهار واننى جائع جدا . فطلبت من مرافقى الاخير ، وهو " لى " الكبير ان يحضر لى شيئا من الطعام ، ولكنه اخبرنى بأن الطباخين قد غادروا كلهم . فاضطررت الى تسكيت جوعى بالبسكويت .

وبعد التاسعة مساء بقليل من اليوم الحادى عشر وصل يوشيوكا . كان شقيقى وشقيقاتى وازواجهن وابناء اشقائى فى محطة القطار حينذاك ، ومن اسرتى بقى فقط انا وزوجتاى . فقال لى يوشيوكا وللخدم الذين كانوا ما يزالون معى بنبرة آمرة :

— سواء سنمشى او نركب فى السيارات ، فان الاشياء المقدسة التى يحملها هاشيموتو تورانوسيوك ستكون فى المقدمة . واذا مر اى شخص بها فعليه ان ينحنى انحناءة مقدارها تسعون درجة .

وادركت اننا يجب ان نتحرك الآن . فوقفت باحترام ونظرت الى هاشيموتو رئيس مكتب العبادة يحمل صرة تحتوى على مواد سينتو المقدسة ويدخل السيارة الاولى . وصعدت انا الى السيارة الثانية ، وعندما غادرنا القصر نظرت حولى فرأيت ألسنة اللهب ترتفع فوق " معبد التأسيس الوطنى " .

استغرق القطار ثلاثة ايام وليلتين حتى وصل داليتسيقو . وكانت الخطة الاصلية ان نذهب اليها عبر شنيانغ ، ولكن القطار سلك طريقا آخر على طول خط جيلين — ميخكو لتجنب الغارات الجوية . وخلال الرحلة كلها لم نتناول الا وجبتين وبعض البسكويت . ورأينا على امتداد الطريق عربات عسكرية يابانية تزدحم بخليط من الناس : جنود ولاجئين كما بدا لى . وتوقف القطار فى ميخكو ليصعد اليه قائد جيش قواندونغ ، ياماتا ، الذى اخبرنى بأن الجيش اليابانى حقق الانتصارات وانه قد دمر عددا من الطائرات والدبابات السوفياتية . ولكن روايته هذه كذبها ما رأيته فى محطة جيلين . فقد كانت هناك حشود من النساء والاطفال اليابانيين يصرخون ويصيحون ويندفعون نحو القطار باكين ويرجون رجال الدرك ان يسمحوا لهم بالمرور . وعند نهاية رصيف المحطة كان رجال الدرك والجنود اليابانيون يتضاربون .

وفى ١٣ اغسطس وصلت الى داليتسيقو التى تضم مجموعة مناجم للفحم وسط الجبال . وكانت جميلة ، ولكننى لم استطع تأملها لشدة رعبى . وبعد

يومين اعلن استسلام اليابانيين :

عندما قال يوشيوكا : " لقد اعلن صاحب الجلالة الامبراطور انسحابنا ، والحكومة الامريكية قد تعهدت بضمان مركزه وامنه " جثوت على ركبتى وسجدت للسماء ، مرتلا : " اشكر السماء على حمايتها صاحب الجلالة الامبراطور " وركع يوشيوكا كذلك وسجد .

وقال يوشيوكا حينذاك بتعبير كئيب ان جيش قواندونغ على صلة بطوكيو ، وانه تقرر ارسالى الى اليابان . واضاف " ولكن صاحب الجلالة الامبراطور لا يمكن ان يتحمل مسؤولية غير مشروطة عن امن جلالتكم . وهذا سيكون فى ايدى الحلفاء . "

فشعرت ان الموت يشير الى :

وجاء تشانغ جينغ هوى وتاكيب روكوزو مع مجموعة من " الوزراء " و " اعضاء المجلس الاستشارى" . وكانت هناك مهزلة اخرى تتطلب تأديتها ، فجلبوا معهم كتابة جديدة من وضع خبير اللغة الصينية اليابانى ساتو ، تتضمن " مرسوم التنازل " . وبدوا كأنهم حشد من الكلاب الضالة وانا اقف امامهم واتلو عليهم المرسوم . لقد نسيت صياغة هذا المرسوم السادس ، ولكننى ما زلت اتذكر ان الاشارات التى لا غنى عنها الى " البركة الالهية لالهة الاشراق المشع السماوى وحماية صاحب الجلالة امبراطور اليابان " قد حذفها هاشيموتو بضحكة صفراوية . كان هاشيموتو فى السابق قائدا لفوج الحراسة الامبراطورية اليابانية ، واصبح فيما بعد رئيسا لـ " مكتب العبادة " فى " امبراطورية منشوريا " ومسؤوليته حراسة الهة الاشراق المشع السماوى وبهذا اصبح من اعرف العارفين بشؤون الامبراطور والآلهة .

لو كنت فى ذلك الوقت اعرف ان المنزلة التى اتمتع بها اقل من منزلة تشانغ جينغ هوى ومجموعته لكنت اكثر اكتئابا . عندما قرر اليابانيون ان اذهب الى طوكيو ، هيأوا امر العودة السرية لتشانغ جينغ هوى وتاكيب

الى تشانغتشون للقيام بترتيبات للمستقبل . وعندما عاد تشانغ جينغ هوى الى تشانغتشون قام باتصال لاسلكى مع تشيانغ كاى شيك فى تشونغتشينغ واعلن تأسيس " لجنة الحفاظ على النظام العام " التى كانت تستعد لاستقبال قوات الكومينتانغ ، وامل هو ومجموعته ان يتمكنوا من القيام بتحول سريع الى مندوبين عن جمهورية الصين قبل وصول القوات السوفياتية ، ولكن التقدم السوفياتى كان اسرع بكثير مما توقعوا ، والجيوش المتحالفة ضد اليابانيين التى يقودها الشيوعيون كانت تكتسح مقاومة الجنود اليابانيين فيما كانوا يقتربون من المدينة . وفى اليوم التالى بعد وصول الجيش السوفياتى الى تشانغتشون ، تبددت احلام تشانغ جينغ هوى ، عندما اخذ هو وزملاؤه آلوزراء اسرى فى طائرة الى الاتحاد السوفياتى .

وفى ١٦ اغسطس علم اليابانيون ان هناك صدامات بين حرس القصر والجيش اليابانى فى تشانغتشون ، لذلك جردوا جماعة الحرس التى جاءت معى من اسلحتها . وفى الوقت نفسه اخبرنى يوشيوكا اننى سأذهب الى اليابان فى اليوم التالى . فهززت رأسى بسرعة موافقا ، وتظاهرت بأننى مسرور جدا .

وطلب منى يوشيوكا ان اقرر من سآخذ معى . ونظرا الى اننا سنذهب فى طائرة صغيرة ، لم اختر الا شقيقى بو جيه واثنين من ازواج شقيقاتى وثلاثة من ابناء اشقائى وطبيبا ومرافقى الشخصى لى الكبير . وسألتنى زوجتى الادنى مرتبة وهى تنتحب عما تفعله فأجبتها :

— الطائرة صغيرة جدا ، لذلك عليك ان تذهبى بالقطار .

— هل سيذهب القطار الى اليابان ؟

فأجبتها دون ان افكر لحظة واحدة :

— بالطبع سيذهب الى اليابان . بعد ثلاثة ايام على ابعد تقدير سترينني انت والامبراطورة مرة ثانية .

— ماذا يحدث اذا لم يأت القطار ؟ ليس لى اى قريب هنا اطلاقا .

ـ سنتقابل ثانية بعد يومين . ستكونين على ما يرام .

كنت شديد الانشغال بانقاذ حياتى فلم التفت الى انه سيكون هناك قطار لها ام لا .

ونزلنا فى شنيانغ فى الساعة الحادية عشرة صباحا منتظرين نقلنا الى طائرة كبيرة حيث جلسنا فى استراحة المطار .

وقبل ان يمضى على انتظارنا وقت طويل رددت ارض المطار ضجيج طائرات لكنها لم تكن طائرات يابانية بل سوفياتية . واندفع خارجا من الطائرات جنود سوفيات يحملون بأيديهم رشاشات ، وعلى الفور جردوا جميع الجنود اليابانيين فى المطار من اسلحتهم ، وسرعان ما غطى الجنود السوفيات ساحة المطار .

وفى اليوم التالى حملت على متن طائرة سوفياتية انطلقت بى الى الاتحاد السوفياتى .

الفصل السابع

فى الاتحاد السوفياتى

خوف ووهم

عندما هبطنا فى تشيتا كان الظلام يخيم على كل شىء . وكان جماعتى ، وهم الحشد الاول من مجرمى الحرب التابعين لـ " امبراطورية منشوريا " فى الاتحاد السوفياتى ، قد اخذوا من المطار فى سيارة من سيارات الجيش السوفياتى . وعندما نظرت من النافذة بدا لى كأننا ننطلق عبر سهل امتد امامنا اسود واسعا على كلا الجانبين . وبعد فترة دخلنا فى غابات وبدأنا نتسلق . اصبح الطريق ضيقا ومنحدرا ، واخذت السيارة تخفف سرعتها . وفجأة توقفت وسمعنا نداء وسط الظلمة باللغة الصينية : " اخرجوا اذا اردتم قضاء الحاجة . "

وذعرت ظانا ان الصينيين قد جاءوا ليعيدونى ؛ ولكن المتكلم تبين انه ضابط سوفياتى من اصل صينى . وكما كان يحدث لى غالبا فى الجزء الاول من حياتى ، عانيت كثيرا من الاضطرابات الذهنية التى لم يكن لها اى لزوم ، وذلك بسبب شكوكى المرضية . لقد ذعرت من الوقوع فى ايدى الصينيين ، فقد اعتقدت اننى سأحظى بفرصة البقاء على قيد الحياة اذا كنت فى يد سلطة اجنبية ، اما الصينيون فسيقتلوننى لا محالة . وكان من المضحك طبعا ان اتخيل بأننى سأعاد الى الصين فور وصولى الاتحاد السوفياتى .

وبعد ان استرحنا قليلا عدنا الى السيارة ، وبعد ساعتين توقفنا عند مبنى مضاء كبير فى واد جبلى . فنزلنا من سيارتنا ونظرنا الى هذا المبنى الجميل ؛ وتمتم احدنا قائلا : " هذا فندق . " فاسترد كل واحد معنوياته .

وعندما دخلنا الفندق استقبلنا رجل فى الاربعين من عمره يرتدى ملابس

مدنية ، وخلفه كانت مجموعة من الضباط السوفيات . واعلن بوقار ان الحكومة السوفياتية قد امرت بأن نحتجز هنا . وتبين فيما بعد ان هذا الرجل لواء فى قيادة حامية تشيتا . وبعد اعلانه هذا اخبرنا برقة اننا سننتظر هنا بهدوء الى ان يتخذ قرار حول كيفية معاملتنا . ثم اشار الى زجاجة ماء على طاولة واخبرنا بأن المكان مشهور بينابيعه ذات المياه المعدنية الصحية .

ولم استسغ المياه المعدنية فى البداية ، ولكن فيما بعد اصبحت مولعا بها . وامضينا فترة احتجاز رائعة فى هذا المصح ، كانت تقدم لنا فيه ثلاث وجبات روسية كبيرة ، كما يقدم لنا الشاى بعد الظهر . وكان هناك خدم للقيام بخدمتنا ، واطباء وممرضات للاعتناء بصحتنا ، واجهزة راديو وكتب وصحف وتسهيلات لأنواع اخرى من الاستجمام . وكان هناك ايضا اناس لأخذنا فى التمشى بين حين وآخر . لقد كانت حياة مرضية من البداية .

ولم يمض على وقت طويل هناك حتى برز عندى امل غريب هو ان من الممكن ان يسمح لى بأن اذهب واعيش فى بريطانيا او امريكا لاجئا ، ما دام البلدان حليفين للاتحاد السوفياتى ؛ وكنت قد جلبت معى ما يكفى من المجوهرات لبقية حياتى . ولكى احقق هذا الطموح كان على ان اتأكد اولا من انه سيسمح لى بالاقامة فى الاتحاد السوفياتى ، وباستثناء الطلبات الشفوية قدمت ثلاثة طلبات خطية الى السلطات السوفياتية خلال تلك السنوات الخمس طالبا ان يسمح لى بالاقامة الدائمة فى الاتحاد السوفياتى . ولكن هذه الطلبات الثلاثة لم احصل على اى جواب عنها .

اما محتجزو (٨) " امبراطورية منشوريا " الآخرون فقد وقفوا موقفا مختلفا تماما . لقد وصل تشانغ جينغ هوى وتسانغ شى يى وشى تشيا وآخرون غيرهم الى المصح بعد بضعة ايام من وصولى . وفى اليوم التالى جاؤوا لرؤيتى . وظننت ان هذه زيارة مجاملة الى ان قال تشانغ جينغ هوى :

— لقد سمعنا انكم تريدون الاقامة فى الاتحاد السوفياتى ، ولكن اسرنا

فى الشمال الشرقى وتحتاج الى عنايتنا بهم . وبالاضافة الى ذلك فان لدينا بعض الاعمال الرسمية سنؤديها هناك . فنريد منكم ان تطلبوا من السلطات السوفياتية ان تسمح لنا بالعودة قريبا . فهل تظنون ان هذا ممكن ؟

ولم اعرف ولم اهتم بما يمكن ان يكون هذا "العمل الرسمى" ولم اعر كذلك ادنى اهتمام بطلبهم . ولكن عندما توسلوا الى اخبرت الضابط السوفياتى المسؤول عنا بذلك ، فأعطانى نفس الجواب الذى كان يجيبنى به عن طلباتى — "حسن جدا سأنقل هذا الطلب الى المسؤولين" . ولم ينتج من ذلك شيء .

والسبب الذى ارادوا من اجله العودة هو انهم فهموا الكومينتانغ تمام الفهم . لقد عرفوا ان الكومينتانغ بحاجة اليهم ، واعتقدوا انهم سيكونون قادرين على تحقيق مكاسب لأنفسهم . وبعضهم كاد ان يجن شوقا الى العودة .

وعند وجودنا فى الاتحاد السوفياتى كان ينقل الينا الاخبار مترجمون سوفيات ، وغالبا ما كنا نرى صحيفة "شى هوا باو" الناطقة باللغة الصينية التى كان يصدرها الجيش السوفياتى فى ليويشون . وتابع الوزراء العملاء السابقون تطور الحرب الاهلية الصينية بدقة ، وكانت عواطفهم بالطبع مع الكومينتانغ المدعوم من امريكا والذى توقعوا له ان يفوز . ولكن عندما انتهت الحرب بهزيمة الكومينتانغ ، ارادوا ان يرسلوا برقية تهنئة بتأسيس جمهورية الصين الشعبية . ولكننى لم اهتم بالحرب ، لأننى شعرت انه لا فرق عندى ان يفوز الشيوعيون ام الكومينتانغ ، فكلاهما يريد حياتى . وكان املى الوحيد ألا اعود ابدا الى بلادى .

ما زلت ابدى كبرياء مصطنعة

لم اكف قط عن تصنع الكبرياء خلال السنوات الخمس التى امضيتها

فى الاتحاد السوفياتى . وعلى الرغم من انه لم يبق هناك خدم عندما انتقلنا الى مركز الاستلام فى خاباروفسك ، الا انه ظل معى اناس يخدموننى . فأفراد اسرتى كانوا يطوون لى فراشى ويرتبون غرفتى ، ثم يجلبون لى الطعام ويغسلون لى ثيابى . ونظرا الى انهم لم يجرؤوا على مخاطبتى بعبارة " جلالتكم " ، كانوا يخاطبوننى بكلمة " شانغ بيان " (الاعلى) ويأتون الى غرفتى كل صباح ليقدموا لى احتراماتهم تماما كما فى الايام الماضية .

وذات يوم ، بعد وصولى الى خاباروفسك ، قررت ان اخرج للتمشى : وفيما انا اهم بهبوط السلم لحظت " وزيرا " سابقا يجلس فى كرسى عند اسفل السلم ، وعندما رآنى تجاهل وجودى تماما . فغضبت غضبا شديدا فكرت معه فى ألا اهبط السلم ثانية قط . وامضيت جل وقتى اتلو النصوص المقدسة . ولكن معظم " الوزراء " السابقين ظلوا يعاملوننى باحترام . فعندما نأكل " جياو تسى " (٩) فى عيد رأس السنة الصينية مثلا ، كانوا يقدمون لى الطاس الاول .

ولم اكن اسر ، وانا شخصيا لا اقوم بأى عمل اطلاقا ، ان يقوم افراد اسرتى بالعمل لأى شخص آخر . فعندما فرش شقيقى وزوجا شقيقتى المائدة للذين اكلوا عليها جميعا عند تناول وجبة من الوجبات كنت اوقفتهم عن القيام بذلك ، فلم اكن اقبل بأن يخدم اقربائى احدا غيرى .

وفى المدة ما بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٤٨ نقل افراد اسرتى الى مركز استلام آخر فى نفس المدينة ، فوجدت هذا لا يناسبنى البتة ، حيث اننى لم افصل عن اسرتى قبل ذلك ابدا . وكانت السلطات السوفياتية لطيفة جدا معى ، فسمحت لى بأن آكل وحدى ، ولكن من الذى يجلب لى طعامى ؟ ومن حسن الحظ ان نسيبى تطوع للقيام بذلك مع غسل ثيابى .

ولكى يجعلونا ، نحن العالة (الطفيليين) ، نقوم بعمل خفيف ضئيل اعطينا زاوية من فناء مركز الاستلام حيث استطعنا ان نزرع فيها الخضراوات :

واعطيت انا وافراد اسرتى حاكورة زرعنا فيها الفلفل الاخضر والطماطم والباذنجان والباقلاء واشياء اخرى . ورحت اراقب الشتلات الخضراء مفتونا بها وهى تنمو يوما بعد يوم ، وشعرت بمتعة عظيمة وانا املأ الوعاء بالماء واسقى هذه الخضار . لقد كانت هذه تجربة جديدة بالنسبة لى . ولكن السبب الرئيسى الذى جعلنى مسرورا هو اننى احب اكل الفلفل والطماطم . وكثيرا ما كنت افكر فى ان ذلك لم يكن سهلا مطلقا بالمقارنة مع شراء هذه الاشياء من دكان البقال .

واعطتنا سلطات مركز الاستلام بعض الكتب باللغة الصينية لندرسها ، وكانت هناك اوقات محددة يقرأ فيها شقيقى وزوجا شقيقتى « قضايا اللينينية » (١٠) و « تاريخ الحزب الشيوعى السوفياتى (البلشفيك) » لكل واحد منا . ولكن الكتب لم تعن شيئا بالنسبة للقراء والمستمعين . وقد وجدتها باعثة على الكآبة ولا علاقة لها بنا . فاذا لم يسمحوا لى بالمكوث فى الاتحاد السوفياتى واعادونى الى الصين ، فما الفائدة التى اجنيها حتى ولو حفظت الكتابين عن ظهر قلب ؟

لقد بدت لى كلمة " دراسة " اقل واقعية فى تلك الايام من الفلفل والطماطم . ولدى جلوسى فى مكانى الخاص كنت اصغى الى " المعلم " يتمتم بكلمات مثل " منشفياك " و " دوما الدولة " لم افهمها ولم ارغب فى فهمها ؛ وفى تلك الاثناء كنت اتساءل الى متى ستكفينى المجوهرات التى جلبتها معى للبقاء فى موسكو او لندن ، او كنت اسأل نفسى : " اذا لم يأكل الروس الباذنجان فكيف سآكل ما جنيناه ؟ "

وبعد العشاء اتى موعد النشاطات الحرة . كانت توضع عند طرف الممشى بعض طاولات لعبة الماجيانغ وعند الطرف الآخر يقف البعض ينظرون الى السماء وايديهم مضمومة الى بعضها كأنما يتوسلون الى بوذا . ومن الطابق العلوى حيث اودع مجرمو الحرب اليابانيون ، كانت تنبعث

اصوات الاوبرا اليابانية . وكان اغرب مشهد هو احتشاد المحجوزين حول منضدة قراءة البخت عن طريق تحايل تركيب مقطع من مقاطع الصينية لاكتشاف متى سيسمح لهم بالعودة الى موطنهم وماذا حدث لعوائلهم . وبعضهم كان يستخير اللوح المقدس سرا فى غرفة نومه ، ليخبره عن موعد عودته الى موطنه . وخلال الايام القليلة الاولى كان الحراس يجفلون لدى سماعهم الصياح ، فيهرعون ويحدقون الى اولئك الرجال الغرباء ثم يهزون رؤوسهم ؛ وفيما بعد تعودوا ذلك .

وامضيت جل وقتى خلال هذه الفترة داخل غرفتى ، اخض نقودى الذهبية للاستخارة (١١) واتلو السوترا الماسية (١٢) .

ارفض الاعتراف بذنبى

نظرا الى اننى لم اكف عن التصرف بوصفى كائنا اسمى ورفضت ان ادرس ، فلم يحدث اى تغير اساسى فى تفكيرى ، وطبعا لم اعترف بذنبى .

وعرفت اننى من الناحية القانونية كنت مذنبا بالخيانة العظمى ، ولكننى رأيت ان هذه كانت بالقضاء والقدر . " القوة حق " و" المنتصر يصبح ملكا والخاسر يصبح قاطع طريق " ، هكذا كان موقفى فى تلك الايام . لم افكر فى اية مسؤولية يجب ان اتحملها ، ولم اتساءل اية ايديولوجية كانت سببا فى جرائمى ، ولم اسمع مطلقا بضرورة اصلاح التفكير .

ولكى اتجنب العقوبة لجأت الى حيلى القديمة وحاولت ان اكسب رضى السلطات السوفياتية التى كانت حينذاك متحكمة بمصيرى . لذلك قدمت مجوهراتى اسهاما فى اعادة البناء بعد الحرب فى الاتحاد السوفياتى .

ولم اقدم جميع مجوهراتى ، بل احتفظت بأفضلها لنفسى . وقدمت المجوهرات التى احتفظت بها لابن شقيقى ليخبئها تحت قعر مزيف لحقيبة

ملابسى . ومن سوء الحظ لم يستطع اخفاءها كلها فى ذلك الفراغ ، لذلك حاولت وضع بقية هذه المجوهرات فى كل مخبأ استطعت الاهتداء اليه . ولكن عندما لم يعد صابونى يستوعب المزيد ، فقد اضطررت الى نبذ ما بقى .

وذات يوم جاء الى القاعة الرئيسية ضابط سوفياتى يصحبه مترجم . وامسك بيده شيئا براقا وسأل كل واحد منا : " لمن هذه ؟ من وضع هذه فى الشبكة المتروكة من انابيب التدفئة المركزية فى الفناء ؟ "

فاحتشد المحتجزون جميعا فى القاعة ورأوا الضابط يمسك قطعة من المجوهرات . فقال احدهم : " ان عليها دمغة صائغ الفضة فى بكين . اننى اتعجب من وضعها هناك . " فعرفتها فى الحال انها احدى القطع التى اخبرت ابناء اشقائى ان يتخلصوا منها ، ولكن بما انهم الآن مفصولين عنى لم استطع سؤالهم عنها . واسرعت هازا رأسى وقلت : " عجيب جدا ، عجيب جدا . اننى اتساءل من وضعها هناك ؟ "

ودهشت حين رأيت المترجم يتقدم منى وبيده مشط خشبى وقال :

— لقد عثر على هذا المشط معها ، واذكر انه لك .

فأجبت فى خيبة امل :

— لا ، لا ، انه ليس لى .

وتردد الرجلان بعض الوقت ، وذهلا لسذاجة انكارى ثم انصرفا .

والى جانب نبذ المجوهرات احرقت بعض اللآلئ فى موقد ، وطلبت من لى الكبير ان يرمى ببعض اللآلئ المتبقية فى المدخنة قبل ان نغادر الاتحاد السوفياتى بقليل .

وبسبب كراهيتى لليابانيين قدمت الى السلطات السوفياتية بكل حماسة مقدارا كبيرا من المعلومات عندما سألونى عن جرائم اليابانيين فى الشمال الشرقى . وعندما استدعيت للحضور شاهدا فى " المحكمة العسكرية الدولية

للشرق الاقصى" فى اغسطس ١٩٤٦ شجبت مجرمى الحرب اليابانيين بمنتهى الشدة . ولكننى لم اتكلم عن جرائمى خوفا من ان ادان . واستمرت شهادتى ثمانية ايام ، وكانت اطول شهادة فى المحكمة . وزودت الصحف الميالة الى معالجة الموضوعات المثيرة فى مختلف انحاء العالم بأخبار من الدرجة الاولى .

وكان السبب فى الطلب منى تقديم شهادة هو ان اكشف الحقيقة المتعلقة بالغزو اليابانى للصين ، ولأظهر كيف استخدمتنى اليابان عميلا لمساعدتها فى ان تحكم الشمال الشرقى . واننى الآن اشعر بالخجل الشديد من شهادتى لأننى احتفظت ببعض ما كنت اعرفه كى احمى نفسى من ان تعاقبنى بلادى . فلم اقل شيئا عن تعاونى السرى مع الامبرياليين اليابانيين خلال مدة طويلة من الصحبة التى لم يكن استسلامى الصريح لهم بعد ١٨ سبتمبر ١٩٣١ الا نتيجة لها . وتكلمت بدلا من ذلك عن الطريقة التى مارس اليابانيون الضغط على ليجبرونى ان اعمل وفقا لمشيئتهم .

واظهرت عروضا متعددة للانفعال فى المحكمة العسكرية . فعندما تكلمت عن ادخال عبادة الهة الاشراق المشع السماوى الى الشمال الشرقى ، سألنى محام يابانى ان كان هجومى على سلف امبراطور اليابان يتفق والاخلاق الشرقية . فصحت مجيبا : " انا لم اجبره على اتخاذ سلفى سلفا له . " فانفجرت القاعة كلها بالضحك ، ولكننى كنت فى غاية السخط . وعندما ورد ذكر وفاة زوجتى تان يوى لينغ تكلمت كأنما شكوكى بخصوص موتها كانت حقائق ثابتة ، فقلت على نحو مأساوى : " حتى هى قتلت على يد اليابانيين . " وكنت بالطبع ملتهبا بالعاطفة ، ولكننى كنت ايضا اصور نفسى متعمدا اننى ضحية لليابانيين .

وحاول محامى الدفاع جميع انواع الحيل ضدى املا فى تجريد شهادتى من الثقة ، بل اقترح اننى لست مؤهلا لأكون شاهدا ولكن هذه المحاولات

اخفقت طبعا ، وحتى اذا كانت ناجحة فانها لن تعنى شيئا جديدا بالنسبة لمصير المتهم . ولكن عندما تعمدوا ان يستغلوا خوفى من العقوبة ليجعلونى اصمت ، نجحوا الى حد ما . اتذكر اننى بعد ان اعددت قائمة بجرائم مجرمى الحرب اليابانيين صاح محام امريكى : " انك تضع اللوم كله على اليابانيين ، ولكن عاجلا او آجلا ستدينك الحكومة الصينية على جرائمك . " فأصاب بذلك هدفه ، فاننى بسبب خوفى من هذا الامر بالضبط اصررت على اننى لم اخن وطنى واننى اختطفت خطفا ، وانكرت كل تعاونى مع اليابانيين ؛ بل ادعيت ان الرسالة التى كتبتها الى مينامى جيرو كانت مزيفة . وغطيت جرائمى كى احمى نفسى . وهذا يعنى اننى لم اقم بكشف كامل لجرائم الامبرياليين اليابانيين . وبذلك قدمت لهم خدمة طيبة .

الفصل الثامن

من الخوف الى الاعتراف

اتوقع ان اموت

فى ٣١ يوليو (تموز) ١٩٥٠ وصل القطار السوفياتى الذى يحمل مجرمى الحرب التابعين لـ " امبراطورية منشوريا " الى محطة سويفنخه على منطقة الحدود الصينية السوفياتية . واخبرنا الكابتن آستز الذى كان مسؤولا عن حراستنا اننا سنسلم الى السلطات الصينية فى الصباح التالى ، ونصحنا بأن ننام باطمئنان .

بعد ركوبى القطار فى خاباروفسك فصلت عن افراد اسرتى ووضعت فى نفس العربة مثل الضباط السوفيات . وقدموا لى البيرة والحلوى ، ورووا لى قصصا مسلية خلال الرحلة ؛ ورغم هذا كله شعرت بأنهم يقودوننى الى حتفى . وظننت اننى سأهلك لحظة تطأ فيها قدمى تراب الصين .

كان تنفس الكابتن آستز ينبعث منتظما وهو فى مضجعه المقابل . لقد استلقيت وعيناى مفتوحتان على اتساعهما ، وظللت مستيقظا خوفا من الموت . ثم استويت جالسا ، واخذت اتلو النصوص البوذية ، واوشكت ان استلقى ثانية ، فاذا بى اسمع وقع خطوات جنود على رصيف المحطة . فنظرت من النافذة ، ولكننى لم استطع رؤية احد . وكان وقع اقدامهم يخفت شيئا فشيئا ، وكل ما استطعت ان اتبينه هو بعض المصابيح المتلألئة من بعيد . فتنهدت وكورت نفسى فى زاوية مضجعى ، وحدقت الى الكؤوس الفارغة على الطاولة . وتذكرت شيئا قاله لى آستز عندما كنا نشرب البيرة التى كانت معهم : " عند الفجر سترى وطنك الام . والعودة الى الوطن الام مناسبة تستحق التهنئة . لا تقلق ، فالسلطة السياسية الشيوعية من اكثر السلطات

تحضرا على الارض ، والحزب الشيوعى الصينى والشعب الصينى على درجة عظيمة من الكرم . "

فقلت فى نفسى : "كذاب" . وانا انظر الى آستز الذى كان حينذاك يشخر . " ان كلماتك و بيرتلك وحلواك — كلها خداع . ان حياتى لن تستمر اكثر من هذا الندى العالق بزجاج النافذة من الخارج . ولكنك نائم هناك كجذع شجرة . "

لم اصدق ان الشيوعيين يمكن ان يكونوا " متحضرين " . كانوا ما يزالون فى نظرى " فيضانات مدمرة ووحوشا مفترسة " كما اخبرونى بذلك عندما كنت اعيش فى بكين وتيانجين وتشانغتشون . وعزوت المعاملة الانسانية التى لقيتها من الاتحاد السوفياتى ، الدولة الشيوعية ، الى حقيقة انه بلد من البلدان المتحالفة التزم بالاتفاقيات الدولية . ورأيت ان الصين ستكون مختلفة تماما . فالشيوعيون هناك قد اطاحوا بتشيانغ كاى شياك ، وانهم ليكرهوننى كراهية شديدة تزيد عن كراهيته لى مائة مرة . وظننت اننى بمجرد وقوعى فى قبضة هؤلاء الرجال القساة فلن يبقى لدى امل حتى بميتة مريحة .

وامضيت الليل افكر بمثل هذه الافكار المرعبة . وعندما طلب منى الكابتن آستز فى الصباح التالى ان اذهب معه لرؤية ممثل الحكومة الصينية ، لم اكن افكر الا فيما ان كانت لدى الشجاعة التى تمكننى من ان اهتف " عاش الامبراطور تاى تسو" قبل ان اموت .

وتبعت آستز بذهن مضطرب الى مقصورة اخرى كان يجلس فيها صينيان ، احدهما يرتدى ثيابا مدنية زرقاء والثانى بزة عسكرية خالية من اية رتبة ، سوى رقعة على صدره كتب عليها " جيش التحرير الشعبى الصينى" . فنهضا وتبادلا بضع كلمات مع آستز ، ثم نظر الى صاحب الملابس المدنية من الاعلى الى الاسفل وقال : " لقد جئت لاستلامك بأمر من رئيس مجلس الدولة شو ان لاى . لقد عدت الآن الى وطنك الام . "

فخفضت رأسي منتظرا من العسكرى ان يقيدنى . ولكنه جلس ساكنا ، مكتفيا بالنظر الى .

وقلت فى نفسى وانا اخرج من القطار واخطو على رصيف المحطة بعد ساعة تقريبا : " انه يعرف اننى لا استطيع ان اهرب . " وكان هناك صفان من الجنود المسلحين احدهما من القوات السوفياتية والثانى من القوات الصينية وعلى صدورهم نفس الرقعة التى رأيتها على صدر الضابط فى القطار . ومشيت بين هذين الصفين وصعدت القطار المقابل . وتذكرت ان قوات تشيانغ كاى شيك المسلحة البالغ عددها ثمانية ملايين جندى قد ابادها رجال يضعون على صدورهم هذه الرقعة ، وقدرت اننى لا بد ان اكون فى اعينهم اقل شأنا من دودة .

وفى القطار رأيت مجموعة من موظفى " امبراطورية منشوريا " السابقين وافراد اسرتى . كانوا جميعا مستقيمين فى جلستهم ، لا احد منهم مكبل . واخذت الى مقعد فى نهاية العربة تقريبا ، ووضع جندى حقيبتى فى موضع الامتعة . وحاولت النظر من النافذة ، ولكننى وجدت انها مغطاة بالورق . ورأيت عند طرف كل عربة جنديا يحمل رشاشة . فهبط قلبى . هذا يعنى بالتأكيد اننا مرسلون الى ساحة الاعدام . وكانت وجوه جميع المجرمين من حولى شاحبة شحوب الموت .

وبعد فترة قصيرة مشى رجل غير مسلح الى منتصف العربة ، بدا كأنه ضابط ، وقال وهو يجيل بصره فيما بيننا : " حسنا ، لقد عدتم الآن الى وطنكم الام . ان الحكومة الشعبية المركزية قد اعدت لكم الترتيبات اللازمة ، فليس هناك ما تقلقون عليه . وهناك طقم طبى فى القطار ، فاذا كان اى منكم مريضا ، يمكنه ان يطلب رؤية الطبيب . "

ماذا يمكن ان يكون قد عنى بكلامه هذا ؟ من المحتمل انه يحاول ان يطمئننا ثانية ويمنع حدوث اى شىء غير ملائم خلال الرحلة . وبعدها

دخل بضعة جنود واعطوا كلا منا عودى اكل وطاسا ، وطلبوا منا ان نعتنى بهما جيدا لأن من غير الممكن ان نعطى بديلا منهما فى الرحلة . فظننت ان هذا يعنى ان الرحلة الى ساحة الاعدام لا بد ان تكون طويلة .

تألف الفطور من خضار مخلل وبيض مملح وعصيدة الارز . واثارت رائحة هذا الطعام ، طعام بلادنا ، بعد سنوات طويلة من الغياب فى الخارج ، شهيتنا جميعا ، وسرعان ما انهينا وعاء كبيرا من عصيدة الارز . وعندما رأى الجنود ذلك اعطونا وعاء العصيدة الذى كانوا سيأكلونه هم . فلم استطع فهم هذا التصرف وعرفت انه لعدم وجود تسهيلات طبخ فى القطار لا بد ان ينتظروا حتى نصل المحطة التالية فسيطبخوا مزيدا من العصيدة . وتوصلت الى نفس النتيجة : لا بد ان لديهم بعض النوايا السيئة تجاهنا .

وبعد انتهاء الفطور لم يبد كثير من القلق تقريبا على بعض الوجوه ؛ وعندما تناقش اصحابى حول ذلك فيما بعد قالوا ان كرم الجنود اظهر انهم مدربون ومنضبطون على نحو جيد وانهم لن يسيئوا معاملتنا خلال الرحلة . ولكن وجهات نظرى كانت مختلفة تماما . لقد ظننت ان الحزب الشيوعى يكرهنى كراهية مرة ، وانه ربما يقتلنى خلال الرحلة بدافع الانتقام . حقا انهم سيفعلون ذلك حتما ، ومن المؤكد تقريبا ان ذلك سيتم هذا النهار او هذه الليلة . وغلب النعاس بعضنا بعد الفطور ، ولكننى كنت فى غاية القلق وبحاجة الى شخص اتحدث اليه . لقد اردت ان اجعل حرسى يعرفون اننى يجب ألا اقتل .

كان يجلس مقابلى جندى امن شاب ، وبدا لى انه من اكثر الاشخاص ملاءمة للمحادثة . فنظرت اليه بعناية ، ثم وجدت موضوعا للحديث فى تلك الرقعة المثبتة على صدره وقلت : " انكم جندى فى جيش التحرير الشعبى الصينى (كانت هذه المرة الاولى التى استخدمت فيها صيغة الاحترام ' انكم ') ، ومعنى كلمة ' تحرير ' جيدا جدا . اننى بوذى ، والنصوص البوذية مشتملة

على فكرة التحرير . ان معبودنا بوذا رحيم ، وقد اخذ على نفسه تحرير جميع الكائنات الحية . . . "

حدق الجندى الشاب الى بعينين مفتوحتين ، مصغيا دون ان يتفوه بكلمة وانا اثرثر . وعندما قلت اننى لم اقتل ابدا اى كائن حى ولم اقتل حتى الذباب ، بدت تعابير وجهه غير مفهومة بالنسبة لى . ثم هبطت معنوياتى وتوقفت عن الكلام . ومن اين لى ان اعرف حينذاك ان هذا الجندى الشاب قد وجدنى صعبا على الفهم كما وجدته ؟

واصبح يأسى الآن اشد من السابق . وجعلنى هدير العجلات وهى تجرى على السكة اشعر بأن الموت يقترب . ونهضت من مقعدى وتجولت على طول الممر بين المقاعد الى الطرف الآخر من العربة . وبعد ان وقفت خارج باب المرحاض رجعت ادراجى . وعند منتصف الطريق فى الممر سمعت ابن شقيقى شيو الصغير يتحدث مع شخص ما بصوت خافت . ولدى سماعى كلمة "ديمقراطية" و"ملكية" وقفت وصحت بهما قائلا :

— ما زلتما تتحدثان عن الملكية فى هذه الايام ؟ كل من يعتقد بأن الديمقراطية سيئة سأقاتله .

فذهل كل فرد لهذا الاندفاع المفاجئ ، ولكننى واصلت الصياح على نحو هستيرى :

— لماذا تنظرون الى جميعا هكذا ؟ لا تقلقوا ، انهم لن يفعلوا اكثر من اطلاق النار على .

فجاء جندى وسحبنى الى مقعدى ، ونصحنى بأن لا اثور . فتعلقت به كأنما كنت مسحورا وهمست فى اذنه : "ذلك الشخص ابن شقيقى . ان افكاره سيئة جدا ، فهو ضد الديمقراطية . والشخص الآخر يدعى تشاو وكان ضابطا وقد قال كثيرا من الاشياء السيئة فى الاتحاد السوفياتى . "

وتابعت على هذا النحو بعد عودتى الى مقعدى . وعندما طلب منى

الجندى ان اضطجع لم اجد امامى خيارا آخر ، ولكننى واصلت الحديث وانا مضطجع على المقعد وعيناى مغمضتان . واخيرا اخذنى النعاس ، ربما لأننى لم انم منذ عدة ليالى .

وعندما استيقظت كان ذلك فى الصباح التالى . واردت ان اعرف مصير الشخصين اللذين بلغت عنهما . فنهضت لأنظر ، فرأيتهما كليهما يجلسان فى مكانيهما السابقين . كانت تعابير وجه شيو الصغير طبيعية ، اما تشاو فقد بدا غريبا بعض الشىء . وعندما دققت النظر اليه وجدت انه قد بدا مكتئبا ، وكان يحدق الى يديه بدقة . فاستنتجت انه عرف بأنه على وشك ان يموت فكان يرثى لحاله . وحينذاك تذكرت القصص عن الاشباح المنتقمة ، وذعرت من ان يأتى شبحه ليصفى الحسابات معى بعد موته . فتقدمت منه وسجدت امامه . وبتجنبى الكارثة على هذا النحو عدت الى مقعدى اتمتم بتعويذة تقمص لأرواح الموتى .

ابطأ القطار فى اندفاعه الى ان توقف . وتمتم احدهم قائلا : " تشانغتشون". فقفزت كالنابض وبحثت عبثا عن شق فى النوافذ المغطاة بالورق لأنظر منه واستطعت ان اسمع جمعا من الناس يغنون فى الجوار . فظننت ان هذا يجب ان يكون المكان الذى سأموت فيه حيث كنت امبراطورا هنا . كل شخص هنا كان ينتظر محكمتى العلنية . بينما كنت فى الاتحاد السوفياتى قرأت عن الصراع ضد الطغاة المحليين وعرفت ما يتعلق باجراءات المحاكم : قبل كل شىء يأخذ رجال الميليشيا المتهم الى المنصة . وعندها تماما دخل جنديان باب العربة ، فأفزعنى ذلك فزعا شديدا . ولكنهما فى الواقع قد جلبا عصيدة الارز من اجل الفطور ، وبعد وصولهما بدأ القطار فى تحركه ثانية .

وعندما وصل القطار الى شنيانغ اقتنعت بأننى سأموت هنا فى المكان الذى ظهر فيه اسلافى . وبعد توقف القطار مباشرة دخل العربة شخص غريب وبيده قطعة ورق ، واعلن قائلا : " نظرا الى ان هذا اليوم شديد

الحر فليتبعنى الكبار منكم للاستراحة . " وبدأ يقرأ اسماء من القائمة التى فى يده . وبدا غريبا بالنسبة لى ان القائمة لم تشملنى فقط ، انا الذى يمكن ان اعتبر كبيرا حيث اننى فى الرابعة والاربعين من عمرى ، بل ابن شقيقى شيو الصغير ايضا الذى كان فى الثلاثين من عمره . من الواضح ان هذه خدعة . لقد كنت امبراطورا ، وكان الآخرون وزراء ، وشيو الصغير قد بلغت انا عنه . وصعدنا جميعا سيارة كبيرة بمرافقة جنود يحملون رشاشات . فقلت لشيو الصغير : " هذه هى النهاية . سآخذك لمقابلة اسلافنا . " وشحب وجهه فجأة . فضحك صاحب القائمة وقال : " مم انت خائف ؟ ألم اقل لك انك قادم للاستراحة ؟ " فلم اهتم بكلامه ، وظللت اقول لنفسى ان هذه خدعة .

توقفت السيارة امام مبنى كبير على بابه المزيد من الجنود المسلحين . وتقدم منا جندى لا يحمل اى سلاح وحيانا ، ثم قادنا الى الداخل قائلا : " الى الاعلى . " واصبحت لدى الآن شجاعة اليأس فقررت انه من الافضل ، اذا كنت سأموت ، ان اموت بسرعة . وطويت معطفى على شكل صرة ، ووضعته تحت ذراعى ، وصعدت . وانطلقت بسرعة كبيرة بحيث تجاوزت الجندى الذى يقودنا فى الطريق فجعلته يسرع ليصبح امامى مرة ثانية . ثم ادخلنى الى قاعة كبيرة مفروشة بالكراسى والطاولات التى مدت عليها الفاكهة والسجائر والكعك . فألقيت معطفى على طاولة ، وتناولت تفاحة وبدأت آكلها ، مقتنعا ان هذه هى المأدبة التى تقام دائما للمحكومين بالاعدام ، واننى كلما اسرعت فى اكلها سينتهى كل شىء بسرعة . ولكن القاعة امتلأت بالقادمين قبل ان اتم نصف التفاحة .

وبدأ رجل بملابس مدنية يتكلم بقربى ، ولكننى كنت منشغلا بتفاحتى فلم التفت الى ما كان يقول . وعندما انتهيت من التفاحة نهضت وقاطعته قائلا :

- كفى كلاما . هيا بنا :

فضحك بعضهم من ذوى الملابس المدنية ، وقال المتحدث بابتسامة :

- انك مستعجل جدا . لا تقلق ، عندما تصل الى فوشون ستحصل على استراحة جيدة ، وعندها تقوم بدراسة جيدة .

فأصبت بذهول . ألن يقوم بقتلي ؟ ماذا يعني هذا ؟ اندفعت الى الرجل الذى جلبنا الى هنا وانتزعت من يده قائمة الاسماء . ومع ان هذا اضحك الناس ، الا انني تأكدت الآن ان القائمة لم تكن امرا بالاعدام او اى شيء من هذا القبيل . ودخل تشانغ الصغير ابن تشانغ جينغ هوى . كان قد عاد الى الصين مبكرا مع مجموعة اخرى من مجرمى الحرب ، واخبرنا عن احوالهم هناك ؛ كما اورد بعض الاخبار العائلية . وعندما سمعنا ان افراد تلك المجموعة كلهم احياء وان عوائلنا جميعها على ما يرام وان الأولاد يدرسون او يعملون ، اشرقت وجوهنا جميعا . ونفرت الدموع الى عيني .

واستمرت طمأنينتي طوال ساعة او نحو ذلك فقط ، انتقلنا خلالها من شنيانغ الى فوشون ، ولكن ذلك انقذني من الجنون ، حيث لم اكن افكر الا فى الموت طوال الايام الخمسة التى مضت على مغادرتنا لخاباروفسك .

الوصول الى فوشون

قبل وصول قطارنا الى فوشون كانت مختلف التقديرات المتفائلة تسمع على طوال الطريق . فالجو اختلف اختلافا تاما ، والمحادثة نشطت فيما كنا ندخن السجائر التى جلبناها معنا من شنيانغ . وقال بعضنا اننا قد نوضع فى ناد مزود بوسائل الترفيه يعرفه هناك ؛ والبعض الآخر قال انه سيسمح لنا بالعودة الى بيوتنا بعد الاستراحة هناك وقراءة الكتب الشيوعية لبضعة ايام ؛ ومنا من قال انهم سيبرقون الى عوائلهم لترتيب الامور استعدادا لعودتهم ؛ وآخر ون

ظنوا ان من الممكن لنا ان نسبح فى ينابيع فوشون الساخنة قبل ان نغادر .
وتكلمنا عن الخوف الذى انتابنا فى السابق واشتركنا فيه جميعا ثم انفجرنا بالضحك . ولكن عندما خرجنا من القطار ورأينا انفسنا محاطين بحرس مسلحين ، لم تعد تظهر اية ابتسامة على وجوهنا .

واخذنا تحت حراسة الجنود الى شاحنات كبيرة . واصبت بما يشبه الذهول . وكان الشيء التالى الذى تذكرته هو اننى وجدت نفسى فى مكان ما محاطا بسور من الآجر قاتم شاهق يمتد عليه من الاعلى سلك شائك وعليه ابراج مراقبة عند الزوايا . فتبعت الآخرين الى ان توقفنا امام صف من المبانى ذات الطابق الواحد . وكانت جميع النوافذ مغطاة بقضبان حديدية . فأدركت ان هذا سجن .

وقادنا الجنود فى ممر ضيق الى قاعة كبيرة تمّ فيها تفتيشنا . ومن ثم قادنا جنود غير مسلحين . وتبعت انا وبضعة آخرون احد الجنود فى طريق على طول الممر الى ان وصلنا زنزانة . وقبل ان القى نظرة على الغرفة صلك اذنى صوت مزلاج حديدى ثقيل ارتج فى الخارج . كانت الزنزانة تشتمل على سرير خشبى طويل ومنضدة طويلة ومقعدين . ولم اكن اعرف ضباط " امبراطورية منشوريا " السابقين الذين شاركونى هذه الزنزانة معرفة جيدة . ولم اتحدث اليهم ، لذلك لم اعرف ان كانوا هم ايضا خائفين او مكبوتين بوجودى . فقد وقفوا فى جانب من الزنزانة ناكسى الرؤوس ، ولم يحدثوا ادنى صوت . ثم سمعت المزلاج يسحب . وفتح الباب ، فدخل حارس ليأخذنى الى زنزانة اخرى ، حيث دهشت حين لقيت هناك ابناء اشقائى الثلاثة وشقيقى بو جيه ونسيبى رونغ يوان . وهكذا سمح لنا بالاقامة معا . وكان قد وزع عليهم قبل قليل الحفة وحشايا ومجموعات ادوات غسيل جديدة ، وكانوا قد جلبوا معهم طقما لى .

وطمأننى رونغ يوان بما قاله لى :

ـ هذا سجن عسكرى وكل واحد هنا يلبس بزة عسكرية . ولا يبدو انىنا . . . فى خطر حاليا ، والا لما اعطونا مناشف وفرش اسنان . وعندما فتشنا قبل لحظة احتفظوا بأشيائنا القيمة ، ولكنهم اعطونا وصلا بها ، هذا لا يشبه المعاملة تجاه . . . بل التى يعامل بها المجرمون العاديون . والطعام ليس رديئا .

وقال ابن شقيقى قو الصغير دون تردد :

ــ ربما الطعام الجيد هو مأدبة الاعدام .

ــ لا . تلك الوجبة تشتمل على خمر ، ولم يكن هنا اى خمر . فلننتظر ان كانت الوجبة التالية جيدة ايضا . واذا كانت كذلك ، فنعرف حينذاك ان الامر ليس كما تظن : اننى لم اسمع بانسان محكوم بالاعدام تقدم له عدة مآدب .

وبدأت اصدق نسيبى فى اليوم التالى ، لا لأن الطعام ما يزال جيدا ، بل لأن بعض الاطباء العسكريين اجرى لى فحصا . لقد كانوا فى غاية الدقة ، وسألونى عن كل مرض اصبت به من قبل ، وعما آكله عادة ، وعما لا استطيع اكله . واعطونى بنطلونين اسودين جديدين ومعطفا وألبسة داخلية بيضاء ، والاعجب من هذا انهم اعطونى سجائر ، فهذه بالتأكيد ليست الطريقة التى يعامل بها المحكومون بالاعدام .

وبعد بضعة ايام جاء الى زنزانتنا رجل ممتلئ الجسم قصير فى الاربعين من عمره تقريبا . وسأل كلا منا عن اسمه ، وعن الكتب التى قرأناها فى الاتحاد السوفياتى ، وعن راحتنا خلال الليالى القليلة الماضية . وعندما سمع اجابتنا هز رأسه وقال : " جيد ، ستقدم لكم حالا كتب وصحف لتقوموا ببعض الدراسات الجادة . " واستلمنا بعد بضع ساعات كتبا وصحفا وكذلك شطرنجات مختلف الاشكال واوراق لعب . ومنذ ذلك اليوم بدأنا نستمع الى المذياع مرتين فى اليوم ، مرة الى الاخبار واخرى الى الموسيقا . وسمح لنا

بالمشى فى الفناء لمدة ساعة ونصف ساعة كل يوم بعد الظهر . وفى المرة الاولى التى خرجنا فيها للتمشى اخبرنا قو الصغير بأنه سمع ان الرجل الذى طلب منا ان " نقوم ببعض الدراسات الجادة " هو مدير هذا السجن الخاص بمجرمى الحرب . وعلمنا فيما بعد ان الرجل الذى جلب لنا الكتب هو رئيس قسم يدعى لى .

فى تلك الايام كنا ندعو جميع موظفى السجن بكلمة " سيد " حيث لم نكن نعرف طريقة اخرى لمخاطبتهم . لقد جلب لنا السيد لى ثلاثة كتب هى « حول الديمقراطية الجديدة » و« تاريخ الصين الحديث » و« تاريخ الثورة الديمقراطية الجديدة » . وقال انه نظرا لعدم وجود كتب كافية حاليا فاننا سنضطر اما الى قراءتها بالتناوب واما ان تقرأ علينا بصوت عال ليسمعها كل واحد منا . وكانت كثير من المصطلحات المستخدمة فى هذه الكتب غريبة بالنسبة لى ، ولكن الأغرب من هذا كله هو مطالبتهم ايانا ، نحن السجناء ، قراءة الكتب .

وكان اول من اهتم بهذه الكتب منا قو الصغير . فقد قرأها اسرع من اى شخص آخر ، وطلب منا على الفور مساعدته فى حل مشكلاته . وعندما لم نستطع مساعدته ، طلبها من موظفى السجن . فسخر رونغ يوان منه قائلا :

— لا تظن ان هذه مدرسة — انه سجن .

فقال قو الصغير :

— أ لم يطلب منا مدير السجن ان ندرس ؟

فأجاب رونغ يوان :

— انه سجن سواء درست ام لم تدرس . لقد كان دائما سجنا ، وما يزال سجنا ، توفرت فيه كتب ام لم تتوفر .

فقال بو جيه انه سمع عن سجناء يعطون كتبا للقراءة فى السجون اليابانية ، ولكنه لم يسمع بعد ان فى الصين " سجنا متحضرا " مثل هذا . فهز رونغ

يوان رأسه قائلا :

ـ السجن سجن سواء كان متحضرا ام غير متحضر ، ان من الخير لك ان تتلو النصوص البوذية بدلا من تعلم هذه المواد .

فهم قو الصغير بمناقشته ولكن رونغ يوان اغمض عينيه وبدأ يرتل النصوص البوذية بصوت خافت .

عندما عدنا من رياضتنا بعد ظهر ذلك اليوم نقل الينا قو الصغير قطعة من الاخبار كان قد سمعها . هناك شخص ما قد حاول اعطاء سجانه ساعة يد ، فوبخ على ذلك . فجعل هذا بعض الشباب يتحدث . وقال شيو الصغير : أ لم يجلب السجانون الماء الساخن لاستحمامنا فى المرة السابقة ؟ اننى لم اسمع مطلقا بسجانين يحملون الماء للمساجين .

وقال روى الصغير ان السجانين هنا مختلفون تمام الاختلاف عن السجانين التقليديين : انهم لا يشتموننا او يضربوننا . فتمتم رونغ يوان الذى كان قد انتهى من صلاته استعدادا للعشاء قائلا :

ـ انكم ايها الشباب ما تزالون اغرارا تماما ؛ تثيرون ضجة كبيرة حول لا شىء . ان الشخص الذى حاول اعطاء الساعة ربما فعل ذلك حينما كان شخص آخر ينظر . فكيف يمكن للسجان ان يقبلها ؟ أ لمجرد انهم لا يشتمونكم ولا يضربونكم تتخيلون انهم لا يكرهوننا ؟ انتظروا سنأكل جزاءنا اخيرا .

فرد عليه قو الصغير قائلا :

ـ هل حمل الماء لاستحمامنا يعتبر عقوبة ؟

فتمتم رونغ يوان قائلا :

ـ قل ما تشاء . ان الشيوعيين لا يمكن ان يحبونا .

وتحسس جيبه ، وقال منزعجا :

ـ لقد تركت سجايرى على حافة النافذة فى الخارج . يا للاسف !

انها العلبة الاخيرة التى جلبتها من شنيانغ :

وفتح علبة سجاير من الصنف الزهيد وقال :

— ان السجانين هنا يدخنون جميعهم تقريبا . لقد جعلت لهم تلك العلبة هدية مقابل لا شيء .

وعندما انتهى من كلامه فتح باب الزنزانة ودخل سجان يدعى وانغ وبيده شيء ما ، وقال :

— هل فقد احد سجايره فى هذه الغرفة ؟

ورأينا جميعا ان ما يحمله هو علبة سجاير رونغ يوان التى جلبها من شنيانغ .

فأخذ رونغ يوان العلبة وشكره شكرا جزيلا . وعندما غادر السجان اشعل سيجارة منها . وبعد فترة من تدخينه السيجارة فى صمت صفع فخذه بشدة كأنما اكتشف الحقيقة فجأة ، وقال : " هؤلاء السجانون لا بد انهم قد انتخبوا انتخابا . بوسعهم طبعا ان يختاروا بعض السجانين المتحضرين نسبيا ليبارينا حيلة ودهاء . "

وكنا جميعا صامتين رهبة من حكم رونغ يوان القائم على الخبرة .

وبعد بضعة ايام اخذ شرح رونغ يوان يبدو بعيدا كل البعد عن الاقناع . كان بو جيه متعجلا لرؤية الصحيفة اليومية بعد ان عدنا من الرياضة بعد ظهر احد الايام . واخبرنا فى اهتياج بأنه سمع ان هناك مقالة فيها تبين لماذا تريدنا الصين الجديدة ان ندرس . فتحلقنا حوله متشوقين لرؤية المقالة . فقرأها علينا ، وكان فيها مقطع يقول انه نظرا الى ان الصين الجديدة بحاجة الى كافة المواهب فان من الضرورى تدريب واختيار اعداد كبيرة من الكوادر الجديدة . وسمع انه فى رأى الزنزانات الاخرى ان الحكومة قد تركتنا ندرس وهيأت لنا معاملة مفضلة لأنها تنوى استخدامنا للمساعدة فى سد العجز فى الكفاءات فى الصين الجديدة . ومن المضحك كما يتبين اليوم اننا كنا جميعا

مقتنعين تقريبا بهذه الفكرة ، الا رونغ يوان الذى عبر عن شكوكه .

وبدأنا ندرس بجدية . كنا فى السابق قد وجدنا جميعا هذه الكتب غير مسلية باستثناء قو الصغير ، ولم نقرأها الا من اجل السجانين فى الممر . ولكن دراستنا حتى الآن كانت لم تزد عن تعلم المصطلحات الجديدة . ورونغ يوان بالطبع لم يشترك طبعا ، وانما استمر يقرأ نصوصه البوذية بعينين مغمضتين بينما بقيتنا يدرسون .

لم يدم تفاؤلى العشوائى هذا طويلا على اى حال . فبعد ذلك بوقت قصير اعادت سلطات السجن تنظيم الزنزانات ، وفصلتنى عن افراد اسرتى :

مفصولا عن اسرتى

لماذا فصلت عن اسرتى ؟ استغرقت وقتا طويلا حتى ادركت ان هذه خطوة هامة جدا فى اعادة بناء نفسى . فى البداية ظننت انها كانت بسبب عداوة الحزب الشيوعى لى ، وقدرت انهم ارادوا ان يسألوا افراد اسرتى عن نشاطاتى الماضية ليتمكنوا بذلك من ادانتى فيما بعد .

عندما كنت فى الاتحاد السوفياتى قلت ان جميع نشاطاتى الخيانية قد تمت تحت الضغط ، مخفيا تماما تعاونى مع الامبرياليين اليابانيين ومحاولا كسب عطفهم . وقد ساعدنى اقربائى فى ذلك وغطوا على تصرفاتى . اما الآن ، وقد عدنا الى الصين ، فقد اردتهم ان يحتفظوا بأسرارى اكثر من السابق . وشعرت اننى مضطر الى الانتباه الدائم اليهم والتأكد من انهم لا يفلتون اية كلمة وكان على ان انتبه الى شيو الصغير خاصة .

خلال اليوم الاول من وجودنا فى فوشون لاحظت ان موقف شيو الصغير قد تغير نتيجة للحادثة التى تمت فى القطار . وشعرت كأن حشرة تدب على رقبتى ، فطلبت منه ان ينظر اليها . لو حدث ذلك فى الماضى لأتى على الفور ،

ولكنه في هذه المرة تظاهر بعدم السماع ولم يتحرك . واكثر من هذا انه ، عندما جاء روى الصغير واخرج اليسروع من رقبتي والقاه على الارض ، شخر شيو الصغير وقال : " انه ما يزال يرحم الحيوان . . ينقذ حياة تلك الحشرة بينما هى تقدم على ايذاء انسان آخر . " فشعرت بالضعف والفتور .

وعندما كان روى الصغير يطوى لى فراشي بعد بضعة ايام ، طلبت منه ان ينفض لى لحافى . وكان هذا تصرفا غير مرغوب فيه ، لأنه يجعل جو الزنزانة غير مريح . فأمسك شيو الصغير اللحاف والقاه على سريرى قائلا :

ـ انكما لستما الوحيدين فى هذه الغرفة . ان عدم تقديركما للآخرين لا يصح مطلقا .

فسألته :

ـ ماذا تقصد بكلمة " انتما " و" نحن " ؟ أليس عندك احساس باللياقة ؟

فانصرف بنظره عنى دون ان يجيب ، وجلس على الطاولة وبدأ يكتب وشفتاه مزمومتان . وتقدمت منه لأنظر ، ولكنه نحى الورق بعيدا ومزقها ، تاركا لى وقتا ارى فيه كلمتين فقط وهما " سوف نرى . "

وندمت اشد الندم على ما فعلته فى القطار . ومنذ ذلك الحين وانا ابذل اقصى جهدى لكسب صداقته ، بل وضحت له اننى لم اقصد ايذاءه بكلامى واننى احبه دائما . وانتهزت كل فرصة لأوضح لأبناء اشقائى الثلاثة ان المبادئ التى تحكم العلاقات الانسانية لا يمكن نبذها جانبا ، وان من الضرورى ان نكون اوفياء لبعضنا ونقف متساندين فى الاوقات الحرجة . وعندما لم يكن شيو حاضرا حذرت الآخرين لكى يكونوا حذرين جدا ازاءه ، وان يتأكدوا من عدم قيامه بتصرف سيئ ، وان يحاولوا جهدهم ليكسبوه الى جانبهم .

ونتيجة لجهودنا لم يقدم شيو الصغير على اى تصرف خطر ، وشعرت

فى النهاية انه ليس فيه ما يسوء . ولكن فى اللحظة التى لم اعد اقلق فيها ازاءه طلب منى سجان ان انتقل الى زنزانة اخرى .

فحزم الآخرون لى امتعتى ونقلوا لى فراشى وحقيبتى الى الزنزانة الاخرى . وبعد ان انصرفوا بقيت وحدى وسط حشد من الغرباء . وشعرت بحرج شديد لم اعرف معه أ اجلس ام اقف ، وبدا واضحا ان الاشخاص الثمانية الذين كانوا قبلى فى الزنزانة قد كبتوا بوصولى فلم يتلفظوا بكلمة . وبعد فترة ، ربما نتيجة لاتفاق ما ، وضع فراشى على سرير بجانب الجدار . وفيما بعد ادركت ان هذا مكان جيد لقربه من التدفئة فى الشتاء ، ولكونه بارد فى الصيف لأنه بجانب النافذة . ولكننى كنت فى ذلك الوقت فى غاية القلق بخصوص مخاطر فصلى عن اسرتى ، فلم انتبه لهذه التصرفات الموحية بالاحترام . وجلست ، ولكن السرير الخشبى بدا قاسيا اكثر من المعتاد ، لذلك نهضت وشرعت اخطو جيئة وذهابا . وعندها خطرت فى ذهنى فكرة ، فذهبت وطرقت باب الزنزانة ، فرد السجان القصير الممتلئ :

— من هذا ؟

— هل لى ان اسألك يا سيد ان كان بوسعى ان اتحدث مع مدير السجن ؟

— حول ماذا ؟

— اريد ان اوضح له اننى لم افصل عن اقربائى قبل ذلك قط ، واننى غير معتاد على ذلك مطلقا .

فهز رأسه وطلب منى ان انتظر وبعدها بقليل عاد ليخبرنى بأن مدير السجن قد سمح لى بالعودة الى زنزانتى السابقة . فسررت بذلك ، وجمعت فراشى بينما حمل لى السجان حقيبة ملابسى . وفى الممشى قابلت المدير ، فقال :

— انطلاقا من تقديركم معشر كبار السن قررت السلطات ان تقدم لكم طعاما من مستوى اعلى . لقد رأينا انك اذا اقمت مع اقربائك وتناولت طعاما مختلفا ، فان هذا سيترك اثرا سيئا عليهم ، لذلك . . .

وعرفت ماذا يفكر فيه فقاطعته دون ان انتظر حتى ينهى كلامه ، فقلت :

– هذا لا يهم . اننى استطيع ان اضمن ان هذا لن يترك عليهم اى اثر سيئ .

وكنت على وشيك ان اقول : " انهم قد اعتادوا على ذلك . "

فابتسم المدير قائلا :

– ان افكارك بسيطة جدا . أ لم تفكر ابدا بأن عليك ان تتعلم العناية بنفسك ؟

– بلى ، بلى . ولكن يجب ان اتعلم تدريجيا وخطوة خطوة .

فقال المدير مع هزة من رأسه :

– حسن جدا ، ابدأ فى التعلم اذن .

وعندما عدت الى زنزانتى السابقة شعرت اننى قد فارقتها منذ سنة . وسروا جميعا برؤيتى . واخبرتهم بما قاله المدير بشأن تعلمى الاعتناء بنفسى . فابتهج كل واحد منهم حيث استنتج من هذا ان الحكومة ليست مستعجلة فى محاسبتنا .

لكنهم لم يتركونى اتدرب على الاعتناء بنفسى ، كما لم يكن عندى ميل مطلقا الى فعل ذلك . وانشغلت بالمعنى المتضمن فى حديث المدير بأننا سننفصل فيما بعد ، واخذت افكر فى طريقة ما لمنع حدوث ذلك . ولكن بعد عشرة ايام ، قبل ان اجد حلا لهذه المشكلة ، طلب منى السجان ان احزم امتعتى .

وبينما جمع روى الصغير اشيائى انتهزت الفرصة لاصدار بعض التعليمات لأقربائى . ولم استطع ان افعل ذلك بالكلام خوفا من ان يسمعنى السجان ، فكتبت مذكرة الى بو جيه ليمررها على الآخرين . ونظرا الى ان هناك غريبين فى الزنزانة وهما موظفان سابقان فى حكومة وانغ جينغ وى العميلة فقد اضطررت الى ان اجعل المعلومات غامضة نوعا ما . فكتبت اننا قد انسجمنا مع بعضنا

انسجاما جيدا بحيث يجب ان نستمر اوفياء مساندين لبعضنا بعضا بعد ان اغادر ، واننى اشعر باهتمام شديد بكل منهم . ورجوت ان يفهموا ان ما قصدته حقا ضرورة مراقبتهم لكلماتهم .

وحمل ابناء اشقائى امتعتى واخذونى الى الزنزانة التى انتقلت اليها فى المرة السابقة . وهناك قدم لى نفس السرير الجيد ، ومرة اخرى لم استطع ان اجلس ساكنا . فأخذت اخطو جيئة وذهابا ، ثم طرقت الباب ثانية .

ففتح لى نفس السجان الممتلئ الجسم . وعرفت عندها انه يدعى ليو ، وشعرت نحوه بمودة لأنه جلب لنا المزيد من الباوتسى (اكر من العجين المطبوخ على البخار محشوة باللحم المفروم) عندما رأى مدى استمتاعنا بهذا الطعام لدى تناولنا اياه اول مرة منذ بضعة ايام .

— يا سيد ليو عندى مسألة .

— هل تريد رؤية المدير ؟

— اريد ان اناقشك بالامر اولا . اننى . . . اننى . . .

فقال ضاحكا :

— أ لم تعتد ذلك بعد ؟

وخيل الى اننى اسمع الآخرين خلفي يضحكون . فاحمر وجهى خجلا ، وحاولت ان اشرح له :

— ليس الامر اننى اريد ان اعود الى زنزانتى السابقة ، بل اتساءل ان كان يسمح لى برؤية افراد اسرتى مرة فى اليوم . اننى سأشعر بمزيد من السرور اذا استطعت تحقيق ذلك .

— أ لن تكون قادرا على رؤيتهم عندما تخرج للرياضة فى الفناء ؟ ليست هناك مشكلة .

— افضل ان اكون قادرا على التحدث اليهم . فهل يسمح المدير بذلك ؟

وكان هناك نظام لا يسمح لنزلاء الزنزانات المختلفة بمحادثة بعضهم

بعضا .

– سأسأل لك .

ومنحت هذا الاذن ، ومنذ ذلك الحين اصبحت قادرا على التكلم مع افراد اسرتى كل يوم . واخبرنى بعض ابناء اشقائى بما حدث فى زنزانتهم وبما قالته السلطات لهم . وظل قو الصغير يبدو غير قلق ، اما شيو الصغير فظل كسابق عهده ، واستمر روى الصغير فى غسل ملابسى واصلاح جواربى .

وبرزت لى مشكلات جديدة بعد حل مشكلتى المقلقة السابقة . خلال السنوات الاربعين الماضية ، اننى لم اطو لحافى مطلقا ولم ارتب سريرى او اصب الماء الذى اغسل به ولم اغسل قدمى او اربط حذائى قط . كما لم ألمس مغرفة الارز او السكين او المقصى او الابرة او الخيط ، لذلك اصبحت الآن ، وقد تعين على ان اعتنى بنفسى ، فى وضع حرج جدا . فعندما يكون الآخرون قد غسلوا انفسهم فى الصباح كنت انا قد لبست ثيابى فقط . وعندما اتهيأ لأن اغسل يذكرنى شخص ما بأننى يجب ان اطوى لحافى اولا ؛ وفى الوقت الذى اكون قد طويت لحافى على شكل صرة غير مرتبة يكون كل شخص قد انتهى من الغسيل . وعندما اضع فرشاة الاسنان فى فمى اكتشف انها خالية من المسحوق ، وبعد ان انتهى من تنظيف اسنانى يكون الآخرون قد شرعوا او اوشكوا على انهاء فطورهم . وهكذا كانت الامور تمضى طوال اليوم .

ان كونى ابطأ من الآخرين لم يكن اسوأ من ضحك الناس من ورائى . فزملائى فى الزنزانة كانوا جميعا من ضباط " امبراطورية منشوريا " السابقين الذين لم يجرؤوا ابدا على رفع رؤوسهم امامى فى الايام السابقة ؛ وعندما جئت الى الزنزانة فى البداية ، لم يغامروا فى مخاطبتى بكلمة " انت " ، فكانوا اما ان ينادونى بكلمة " سيد " او ان يتجنبوا استخدام كلمات الخطاب لدى تحدثهم معى . ولكننى وجدت الآن ان من الصعب تحمل ضحكهم

المكبوت .

ولكن هذا لم يكن اسوأ ما فى الامر . ففى يومنا الاول فى فوشون وضع جدول الخدمات لكل زنزانة لتؤديها بالتناوب وهى تكنيس الارض ومسح الطاولة وتفريغ المبولة . وانا لم افعل ايا من هذه الواجبات عندما كنت فى زنزانتى السابقة ، ولكن المشكلة التى واجهتنى الآن هى ماذا افعل عندما يأتى دورى . هل سأفرغ مبولة الآخرين ؟ وشعرت بأن هذا الامر اتعس من تلك الاتفاقية السرية بين " امبراطورية منشوريا " واليابان : ورأيت اننى سأحط من شأن اسلافى والحق الخزى بصغار عشيرتى . ومن حسن الحظ ان جاء احد المسؤولين فى السجن فى اليوم التالى وقال للجميع اننى مريض ولا استطيع ان اقوم بدورى كالبقية . وسررت كثيرا كأننى انقذت من موت مؤكد ، وشعرت بالامتنان للمرة الاولى فى حياتى .

ومع زوال هذا الخطر ظهر خطر آخر . كان المدير يظهر عادة عندما نكون فى رياضتنا بعد الظهر فى الباحة . وكان دائما ما يتحدث مع احدنا ونحن نقوم بالرياضة ، وهذه المرة بدا انه قد اختارنى ، فقد نظر الى من الاعلى الى الاسفل ، ولا بد انه رأى ذعرى . فنادى :

— بو يى !

لم يسبق لى ان نوديت باسمى الشخصى قط قبل عودتى الى الصين ، لذلك كنت ما ازال غير معتاد سماعه . وفضلت ان ينادينى الناس برقمى (٩٨١) كما كان يفعل السجانون فى بداية وصولنا الى فوشون . وقلت وانا اتقدم نحوه :

— نعم ايها المدير .

فقال بصوت هادئ ودود :

— لقد وزعت عليك ملابس مثل ملابس الآخرين ، فلماذا لا تبدو مثلهم ؟

فنظرت الى ثيابى ثم الى الآخرين . كانت ثيابهم نظيفة مرتبة بينما

ثيابى مجعدة وسخة : وكان احد جيوبى نصف مهترئ ؛ وكان هناك زر مقطوع فى سترتى ؛ وبقعة حبر على ركبتى ؛ وبدت ساقا بنطاونى مختلفتين فى الطول ؛ وحذائى ليس فيه الا رباط ونصف . فتمتمت قائلا :

— سأرتب نفسى . عندما اعود سأصلح جيبى واخيط زرا جديدا لسترتى .

فسألنى وعلى وجهه طيف ابتسامة :

— كيف تجعدت ملابسك هكذا ؟ عليك ان تنتبه الى الآخرين وهم يقومون بأعمالهم . اذا كنت قادرا على تعلم الاشياء الجيدة من الآخرين فستستطيع ان تحرز تقدما .

ومع ان المدير قد كلمنى بلطف الا اننى غضبت غضبا شديدا . فهذه هى المرة الاولى التى تكشف فيها عدم كفاءتى علنا ، وانها المرة الاولى التى اظهر فيها امام اعين الناس ليس كصورة للمهابة بل كـ " نفاية " . واستدرت متجنبا تحديق " وزرائى " و" ضباطى " السابقين ، متمنيا ان يخيم الظلام . وقلت فى نفسى بتعاسة : " انهم يريدون ان يستخدمونى عينة لكل فرد فى الدراسة . " ونظرت الى السور الرمادى العالى . ان حياتى كلها قد امضيتها محاطا بأسوار ، ولكننى فى الماضى كنت اعامل باحترام واتمتع بين الآخرين بمركز خاص داخلها ، حتى فى تشانغتشون . ولكن داخل هذه الاسوار كل شىء قد تغير . لقد عوملت تماما كأى شخص آخر ، بل واجهت صعوبة فى العيش . اننى لست تعيسا بسبب عدم كفاءتى ولكن بسبب ان الآخرين اعتبرونى غير كفء ، وكذلك بسبب فقدى لحقى الطبيعى فى ان يخدمنى الآخرون . والامتنان الذى شعرت به لاعفائى من خدمات الزنزانة قد تلاشى نهائيا .

وفى تلك الليلة اكتشفت انه عندما يخلع الآخرون ثيابهم للنوم فانهم يطوونها على نحو مرتب ويضعونها تحت وسائدهم ، بينما كنت اكومها تحت قدمى حين اخلعها . وبدا لى ان فى ملاحظات المدير شيئا من الوجاهة .

لو عرفت كيف اتعلم الاشياء الجيدة من الآخرين لما كنت فى وضع تعيس كما انا فيه الآن . لماذا لم يخبرنى زملائى السجناء بهذا من قبل ؟ اية خيانة هذه !

كان اولئك الضباط العملاء ما يزالون فى الواقع مكبوتين بتصرفى المتعجرف ، لذلك لم يشيروا الى بشىء من هذا .

امضينا شهرين فى فوشون ، وفى نهاية اكتوبر نقلنا جميعا الى هاربين .

الانتقال الى هاربين

احب بضعة شبان بيننا الثرثرة فى القطار الى هاربين ، كما رغبوا فى لعب الورق مع السجانين ، بينما لم يتكلم بقيتنا الا القليل وبمنتهى الهدوء . وكان الجو فى العربة كئيبا معظم الوقت ولم يكن قليلا بيننا من لم يستطع النوم ليلا او الاكل نهارا . ومع اننى لم اكن مذعورا كما كنت عند عودتى فى البداية الى الصين ، الا اننى كنت قلقا اكثر من اى شخص آخر . كان ذلك بعد وقت قصير من اقتراب قوات الولايات المتحدة الامريكية من نهر يالو ودخول متطوعى الشعب الصينى الى كوريا . وذات ليلة لم استطع انا وبو جيه ان ننام ، فسألته بهدوء عن رأيه فى الوضع العسكرى . فأجاب بصوت فاتر : " ان دخول الحرب طلب للمتاعب . سننتهى فى لمح البصر . " ففهمت من ذلك ان الصين ستهزم و ان القوات الامريكية ستحتل الشمال الشرقى على الاقل ، وان الشيوعيين ايضا يمكن ان يجهزوا على جماعتنا ليمنعونا من الوقوع فى ايديهم . واكتشفت فيما بعد ان هذا هو ما كنا نفكر فيه نحن السجناء جميعا حينذاك .

واشتد يأسى عندما رأيت السجن فى هاربين . لقد كان سجنا سابقا لحكومة " امبراطورية منشوريا " . وجعلنى مرآه ادرك ما المقصود من ان

يعامل المرء كما يعامل غيره . لقد خصصه اليابانيون لسجن الناس الذين ارتكبوا ذنب القيام بـ " النشاطات المعادية لامبراطورية منشوريا ولليابانيين " . كان مؤلفا من طابقين على شكل مروحة وفيه صفوف من الزنزانات و برج مراقبة فى الوسط . وكانت هناك مصبعة من القضبان الحديدية بقطر انش امام الزنزانات وخلفها ، وكانت الزنزانات مفصولة عن بعضها بجدران من الخرسانة ، وتتسع كل واحدة منها لسبعة او ثمانية افراد . ولم تكن زنزانتى مزدحمة نسبيا ، فليس فيها الا نحن الخمسة ، ولكن نظرا الى انها صممت وفقا للاسلوب اليابانى ، فقد اضطررنا الى النوم على حصر مفروشة على الارض . وقد امضيت فى هذا المكان سنتين تقريبا ، وسمعت انه هدم فيما بعد . ومع اننى لم اعرف ، عند اول اقامتى هنا ، ان قلة من الذين كانوا محتجزين هنا خلال فترة " امبراطورية منشوريا " قد بقوا على قيد الحياة ، الا ان صوت فتح او اغلاق البوابات الحديدية كان كافيا لأتحمله . لقد جعلتنى هذه الضجة افكر دائما فى التعذيب وفى زمرة مطلقى الرصاص على المحكومين بالاعدام .

وعوملنا هنا كما كنا نعامل فى فوشون . فالسجانون لطفاء ، والطعام جيد ، والصحف والاستماع الى المذياع والاستجمام استمرت كالسابق . واراحنى هذا الى حد كبير ، ولكنه لم يستطع ان يهدئنى تماما . واذكر كيف كان صوت صفارة الانذار التدريبية الحزين ينفذ الى اعماق رأسى ذات ليلة وظل كذلك وقتا طويلا بعد توقفه حقا . وقبل ان اصدق ان القوات الشعبية الصينية والكورية ماضية حقا فى كسب الانتصارات فى كوريا ، اقتنعت بأنه حتى اذا لم يقتلنى الصينيون فاننى سأموت فى غارة جوية امريكية . وكنت متأكدا من ان الصين ستهزم مهما حدث واننى سأموت .

واذكر بوضوح انه لم يصدق احد منا اخبار الصحيفة عن الانتصار الاول الذى احرزه متطوعو الشعب الصينى على الجبهة الكورية ؛ واننا كنا متشككين جدا فى الاخبار التى تقول ان القوات الشعبية الصينية والكورية

قد صدت الامريكان فى الحملة الناجحة الثانية الى القرب من الخط ٣٨ ؛ وبعد فترة من الوقت تلت عيد رأس السنة لعام ١٩٥١ قرأ علينا احد الكوادر الاداريين بيانا بأن القوات الصينية والكورية قد استولت على سيئول ، فدوى التصفيق فى كافة الزنزانات . وعندها فقط صدقت نصف تصديق . وعندما اعلنت فى الصحف " انظمة معاقبة المعادين للثورة " فى فبراير ذلك العام ، اوقفتنا سلطات السجن عن قراءة الصحف خوفا من ان نصاب بالذعر ؛ ولكننا لم نعرف ذلك ، بل ظننا ان السبب لا بد ان يكون الهزائم فى كوريا ؛ واصبحنا اكثر شكا من السابق فى الانتصارات الاولى ، وايقنت ان هلاكى قد اصبح وشيكا .

استيقظت مرة فى منتصف الليل على صوت البوابات الحديد ، ورأيت بضعة رجال يخرجون احد السجناء من الزنزانة المجاورة . فبدأت ارتجف كليا ، مقتنعا بأن القوات الامريكية تقترب من هاربين وان الشيوعيين سيتخلصون منا اخيرا . وبعد قضاء ليلة مضنية وجدت فى الصباح اننى كنت مخطئا تماما ؛ فما حدث هو ان احد الرجال فى الزنزانة المجاورة قد تعب كثيرا من فتق اصابه ، فأبلغ السجان المدير بذلك ، فجاب طبيبا عسكريا وممرضات لفحص المريض . ورأيتهم يأخذونه الى المستشفى ، ولكننى كنت مرعوبا بحيث لم اشاهد الا سراويلاتهم العسكرية ولم افلح فى ملاحظة مآزرهم البيضاء .

على ان هذا لم يجلب لى كثيرا من الطمأنينة . فقد ظللت اظن مع كل عربة اسمعها قادمة انها جاءت لتأخذنى الى محكمة علنية . وبقيت طوال النهار اراقب واصغى لكل شيء يمر خارج القضبان الحديد ، وغالبا ما كنت ارى احلاما مروعة فى الليل . ولم يكن زملائى فى الزنزانة احسن حالا منى بكثير فشهيتهم للطعام كان تتضاءل كشهيتى ومعنوياتهم تهبط . وكلما كنا سمعنا ضجة على السلم ندير رؤوسنا لننظر ، واذا ظهر غريب يخيم الصمت على الزنزانات كأنما نواجه جميعا حكمنا الاخير . ولكن عندما اصبحنا جميعا

فى ذروة اليأس منحنا املا جديدا من خلال حديث ادلى به الينا مسؤول فى الامن نيابة عن الحكومة .

وقف مسؤول الامن امام برج المراقبة وخاطب جميع الزنزانات مدة ساعة تقريبا . فأخبرنا بأن الحكومة لا تقصد قتلنا ، بل تريدنا ان نختبر انفسنا وندرس ، وبذلك نعيد بناء انفسنا . وقال ان الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية تعتقدان بأن اكثرية المجرمين يستطيعون تحت السلطة السياسية الشعبية ان يعيدوا بناء انفسهم ويتحولوا الى اناس جدد . وقال ان المثل الاعلى للشيوعية هو اعادة صياغة العالم ، وانه من اجل تحقيق هذا الهدف فان من الضرورى فى البداية اعادة بناء البشرية . وعندما انتهى من حديثه تكلم مدير السجن . واذكر ان خطابه قد اشتمل على مقطع ورد على هذا النحو تقريبا :

" انكم لا تفكرون الا فى الموت ، وتتخيلون ان كل شىء هو جزء من الاستعدادات لموتكم . لماذا لا تسألون انفسكم هذا السؤال : لماذا تطلب منكم الحكومة الشعبية ان تدرسوا اذا كانت تخطط لموتكم ؟

" ان لديكم كثيرا من الافكار الغريبة عن الحرب الكورية : ربما يظن بعضكم ان متطوعى الشعب لا يستطيعون ضرب القوات الامريكية وان الامريكيين سيغزون الشمال الشرقى لا محالة ، لذلك تخشون ان يقتلكم الشيوعيون اولا . وقد يكون لدى بعضكم اعتقاد اعمى بقوة الولايات المتحدة الامريكية ويعتقد بأنها لا تقهر . فلأؤكد لكم بأن الشعبين الصينى والكورى قادران حتما على هزيمة الامبريالية الامريكية ، وان سياسة الحزب الشيوعى الصينى فى اعادة بناء المجرمين سوف تنجح بلا ريب . وقد اثبتت الحقائق ان الحزب الشيوعى لا يصدر ادعاءات فارغة .

" ربما تقولون اننا اذا كنا لن نقتلكم فان من الخير ان ندعكم تغادرون . لا ، ان هذا لا يستقيم . اذا نحن اطلقنا سراحكم قبل ان يعاد بناؤكم ، فانكم قد ترتكبون جرائم اخرى وعلى اية حال فان الشعب لن يوافق ولن

يصفح عنكم عندما يراكم . لذلك يجب ان تدرسوا على نحو جاد وتعيدوا بناء انفسكم . "

وعلى الرغم من اننى لم افهم او لم اصدق كل هذا الكلام ، الا اننى رأيت ان هناك مسوغات تبرر ان الحكومة لا تريد قتلنا . وهذا كان التفسير الممكن الوحيد للدافع وراء توسيعهم حمامنا فى فوشون وانقاذهم حياة المريض ، وتقديمهم طعاما خاصا لكبار السن منا .

وفيما بعد اكتشفت ان اشياء كهذه لم تكن غير اعتيادية فى سجون الصين الجديدة ، ولكنها فى ذلك الوقت بدت غريبة جدا بالنسبة الينا ، واعتبرناها علامات للتقدير الخاص . لذلك عندما سمعنا موظفى الحكومة هؤلاء يخبروننا رسميا بأن الحكومة لا تريد ابادتنا ، شعرنا حالا بالمزيد من الطمأنينة .

لم ينتبه اى منا الى الاشارات الخاصة بالدراسة واعادة بناء انفسنا : وظننت اننا قد اعطينا كتبا وصحفا لتمضية وقتنا ولابعادنا عن الافكار السيئة . وبدا مضحكا بالنسبة لى ان قراءة بضعة كتب يمكن ان تغير تفكير المرء . بل وكنت على اقل استعداد للاعتقاد بأن القوات المسلحة الامريكية يمكن ان تهزم . وقد اجمع الضباط السابقون الاربعة فى زنزانتى ، والذين اعتبروا انفسهم خبراء عسكريين ، على ان امريكا ما تزال قادرة على السيطرة على الكرة الارضية بأسلحتها التقليدية حتى وان لم تكن لها الجرأة على ان تهزأ بالرأى العام العالمى وتستخدم القنابل الذرية ، ان قوتها لا تضاهى ، وان من السخافة القول بأنها يمكن ان تهزم . لكننا ادركنا فيما بعد ان الشيوعيين ليسوا من النمط الذى يتكلم كلاما سخيفا ، وقبل ان يمضى وقت طويل بدأنا نلاحظ ان الاخبار بخصوص كوريا لم تكن مزيفة . واخبرنى زملائى العسكريون فى الزنزانة انه بينما عدد الاصابات يمكن ان يخترع اختراعا من الجانبين ، الا ان من الصعب جدا الاستمرار فى الكذب بخصوص الاراضى التى تكسب او تفقد . كما ان الخبر الذى يفيد بأن القائد العام الامريكى يرغب

فى اجراء محادثات كان اصعب من ان يخترع اختراعا . فاذا كانت القوات الامريكية راغبة فى التباحث بشأن وقف اطلاق النار ، فكيف يمكن ان تكون متصفة بأنها لا تقهر ؟ لقد كان الضباط السابقون فى حيرة من امرهم ، وكذلك كنت انا .

ان تطور الحرب الكورية قد بين مدى خطأ توقعاتنا السابقة واثبت ان امريكا لم تكن نمرا حقيقيا بل نمرا من ورق. وشعرت الآن بمزيد من الطمأنينة، لأنه اذا لم يكن الشيوعيون مهزومين ، فانهم لن يكونوا متعجلين كثيرا فى التخلص منا .

واصبحت الآن دراساتنا التى كانت فى السابق تجرى كيفما اتفق يديرها كادر من سلطات السجن . وقد القى علينا حديثا حول المجتمع الاقطاعى ، ثم تركنا نناقش هذا الموضوع . واضطررنا جميعا الى كتابة ملاحظات .

وذات يوم قال لنا هذا الكادر : " لقد سبق ان قلت انكم حتى تتمكنوا من اصلاح تفكيركم ، عليكم ان تفهموا اى نوع من الايديولوجية كانت لديكم . ان ايديولوجيتكم لا تنفصل عن خلفيتكم وتاريخكم الشخصيين ، لذلك يجب ان تبدأوا بفحصهما . ومن اجل اصلاح تفكيركم ينبغى لكل منكم ان يكتب سيرته الذاتية . "

وبدا هذا الامر بالنسبة لى كأنه حيلة لجعلى اكتب اعترافا . ترى هل سيقدم الشيوعيون على الاجهاز علينا بعد ان استقر الوضع العسكرى ؟

كتابة سيرتى الذاتية وتقديم اختامى

لقد اعتبرت كتابتى لسيرتى الذاتية مقدمة لمحاكمتى ، وصممت على ان اكرس معظم هذه الفرصة لانقاذ حياتى ، وعرفت اى خط سأسلك . عندما نزلنا من الشاحنات واصبحنا على وشك دخول سجن هاربين همس قو الصغير

فى اذنى : " اذا سألونا اى سؤال فسنتمسك بنفس القصة التى استخدمناها فى الاتحاد السوفياتى . " فهززت رأسى موافقا .

وقد غطت هذه القصة تعاونى مع العدو وصورتنى كوطنى برىء جيد . وادركت اننى يجب ان اكون اكثر حذرا هنا مما كنت عليه فى الاتحاد السوفياتى وألا اترك ولو ثغرة .

وتكلم قو الصغير نيابة عن جميع ابناء اشقائى ومرافقى الشخصى لى الكبير . وهذا يعنى انهم كانوا مستعدين لمساعدتى واوفياء لى كالسابق . ولكن الولاء لن يكفى لمنع حدوث ثغرات ؛ فأعطيتهم المزيد من التعليمات ولاسيما لى الكبير ، وكان الشاهد على القسم الرئيسى من قصتى — كيف ذهبت من تيانجين الى الشمال الشرقى .

لم استطع التكلم مع لى الكبير الا فى فترات الراحة عندما كان مسموحا لى برؤية افراد اسرتى . اما المجرمون الاصغر سنا ، ومن بينهم جميع افراد اسرتى (عدا رونغ يوان الذى كان قد مات و" طبيبى الامبراطورى " الدكتور هونغ الذى كان مريضا) فقد بدأوا الآن القيام بأعمال كنقل الماء وتقديم الطعام والمساعدة فى اعمال المطبخ . ولم يكن من السهل جدا على ان اراهم جميعا على ما هم عليه . ولكن هذا التطور الجديد كان له فوائده ، اذ مكنهم ذلك من التحرك بحرية نوعا ما وتسريب الرسائل لى . وارسلت فى طلب لى الكبير وذكرته بألا يقول شيئا عن كيفية مغادرتى لتيانجين ، وأنه لم يزد على ان حزم امتعتى بناء على تعليمات هو سى يوان بعد ان غادرت . فهز لى الكبير رأسه ليرينى انه فهم ، ثم انصرف .

وفى اليوم التالى سرب روى الصغير رسالة الى من لى الكبير . البارحة مساء كان يتحدث مع جيا ، احد كوادر السجن ، واخبره اننى فى الشمال الشرقى قد عاملت المرؤوسين عندى بلطف كبير ولم اشتم او اضرب ايا منهم ؛ واننى عندما كنت فى ليويشون اغلقت بابى ورفضت رؤية

اليابانيين . فذعرت من هذا الكلام : لماذا ذكر ليويشون ؟ وطلبت من روى الصغير ان يخبره بألا يقول الكثير ، وان يتظاهر بأنه لا يعرف شيئا عما حدث فى ليويشون .

وبعد ان طمأنت نفسى بوفاء لى الكبير واصدرت تعليمات لأبناء اشقائى ، بدأت اكتب سيرتى الذاتية . فوصفت خلفية اسرتى وطفولتى فى المدينة المحرمة . وقلت اننى قد اجبرت على الذهاب الى المفوضية اليابانية ، واصررت على اننى بقيت بعيدا عن المعترك السياسى وانا فى تيانجين ؛ وتمسكت بالقصة التى تقول اننى اختطفت وعشت حياة تعيسة فى تشانغتشون وانتهيت الى القول :

> عندما رأيت معاناة الشعب ولم استطع ان افعل شيئا لمساعدته أستبد بى الحزن . وتمنيت ان تشق القوات الصينية طريقها الى الشمال الشرقى واشتقت الى حدوث بعض التطورات الدولية التى تمكن الشمال الشرقى من تحقيق تحرره ، وقد تحقق هذا الامل اخيرا عام ١٩٤٥ .

وبعد ان راجعت ما كتبت مراجعة دقيقة كتبت نسخة اخرى نظيفة وسلمتها . واعتقدت بأنها ستقنع اى قارئ اننى تبت توبة كاملة .

بعد ان سلمت سيرتى الذاتية حاولت التفكير فى طريقة اخرى لاقناع الحكومة بـ " اخلاصى " و " تقدمى " . ومن الواضح انه لم يكن كافيا ان اجعل لى الكبير والآخرين يمتدحوننى ، فقد احتجت الى بعض الانجازات العملية . ولكن منجزاتى منذ بدأت آخذ دورى فى خدمات الزنزانة لم ترضينى ، ناهيك عن ارضاء سلطات السجن .

وبعد سماع خطابات مسؤول الامن ومدير السجن اخذنا جميعنا نفكر فى طريقة لاظهار كيفية رفعنا " وعينا السياسى " آملين ان نستطيع بهذه الطريقة انقاذ حياتنا . ويبدو الامر مضحكا الآن ، ولكننا ظننا حينذاك ان

النفاق الفعال سوف يخدع الحكومة . وما كان يحزنني جدا فى ذلك الوقت الذى كنت فيه نهبا لهذا الوهم ، هو عجزى عن تأدية عرض جيد كالآخرين .

وحاولنا جميعا كسب ثقة سلطات السجن من خلال الدراسة وقيامنا بأداء خدماتنا ومن خلال حياتنا اليومية . وكان عضو مجموعتنا الذى كانت " منجزاته " فى الدراسة من ابرز المنجزات هو رئيس مجموعتنا ، لاو وانغ ، وهو لواء سابق فى " امبراطورية منشوريا " . كان قد درس القانون فى بكين بضع سنوات . لقد حفظ بوصفه اكثرنا ثقافة المصطلحات الايديولوجية الجديدة بسرعة . اما الضباط الثلاثة الآخرون فقد وجدوا مثلى ان من الصعب تمييز الفرق بين " الذاتى " و" الموضوعى " ، ولكنهم احرزوا " تقدما " اكثر منى . فقد كان لديهم دائما ما يقولونه فى المناقشات . واسوأ ما فى الامر ان كلا منا كان ملزما بكتابة مقالة يشرح فيها بأسلوبه ما تعلمه من طبيعة المجتمع الاقطاعى . واستطعت ان اهيئ الامر لقول شىء فى المناقشات ، ولكن الكتابة كانت اكثر صعوبة . ولم ار اهمية كبيرة فى الدراسة ، واخافتنى شروح الاقطاعية التى قرأتها فى الكتب . فمثلا اذا كان الامبراطور كبير ملاك الاراضى فلا بد من الحكم على بسبب ذلك وكذلك بسبب خيانتى للوطن . وقد ارعبتنى هذه الفكرة كثيرا بحيث وجدت صعوبة فى كتابة ولو كلمة واحدة . وعندما جمعت اخيرا بعض الاجزاء الى بعضها عن طريق انتحال مقاطع من هنا وهناك رأيت انها ليست جيدة كتلك التى لدى الآخرين . وبدا واضحا ان منجزاتى فى الدراسة لن ترضى السلطات .

وكان الدليل الوحيد الذى اظهرته لتقدمى هو ان آخذ دورى فى خدمات الزنزانة بعد الانتقال الى هاربين . وهذا كان اسهل بسبب وجود مراحيض فى زوايا الزنزانات ، لذلك لم تكن هناك مشكلة فى تفريغ المباول . وكان العمل خفيفا بما فيه الكفاية ، يتألف فقط من تلقى الوجبات الثلاث والماء الساخن الذى كان يرسل الينا كل يوم ومسح الحصران . وكانت هذه هى

المرة الاولى التى خدمت فيها الآخرين ، وقد اضطربت الامور عندما سكبت شيئا من حساء الخضار على رأس احد الموجودين . ومن ذلك الحين بدأ يساعدنى شخص عندما يأتى دورى ، مدفوعا باللطف نوعا ما ولتجنب انسكاب الحساء مرة اخرى .

كانت ثيابى ملخبطة كالسابق واستمر روى الصغير فى غسلها واصلاحها لى . وقد اربكنى هذا ، ولكن عندما حاولت ان اقوم بغسل ثيابى بنفسى بعد ان تكلم معى مدير السجن فى فوشون بللت نفسى بالماء دون ان اجيد من استخدام الصابون وخشبة الغسيل . وبعد تسليمى سيرتى الذاتية بوقت قصير قررت ان اقوم بمحاولة ثانية لأقوم بغسل ثيابى بنفسى كى امنع السلطات من ان ييئسوا منى . وغسلت قميصا ابيض ، ولكن عندما نشف بدا شكله اقرب الى رسم مائى من اى شىء آخر ، فأخذه روى الصغير هامسا الى بأن هذا ليس بالعمل الذى يقوم به الـ " فوق " . فوافقته فى الرأى قادحا زناد فكرى لايجاد طريقة اخرى اترك بها انطباعا حسنا لدى السلطات .

وفيما كنت اخطو ذهابا وايابا سمعت احد زوجى شقيقتى وهو لاو وان ، وبعض زملائه فى زنزانته يتحدثون عن التبرعات التى تقوم بها كافة قطاعات الشعب الصينى لشراء طائرات ومدافع ثقيلة للحرب الكورية . ولم يكن مسموحا لنا بالتحدث مع السجناء فى زنزانات اخرى ، ولكن لم يكن هناك ما يوقفنا عن الاستماع الى حديثهم . وكان احدهم وزيرا سابقا فى "امبراطورية منشوريا" ، وقد تبرأ منه ابنه الذى كان حينذاك ، بحسب اعتقاده ، يقاتل فى كوريا . وقد قال انه سيتبرع بممتلكاته للحرب الكورية اذا لم تكن قد صودرت . فضحك الآخرون منه لتفكيره فى انه يمكن ان تكون ممتلكاته ما تزال لديه او ان ابنه يمكن ان يكون قد سمح له بأن يقاتل ؛ ثم قال احدهم بأن الوحيدين بيننا اللذين تستأثر ممتلكاتهما بالاهتمام هما الامبراطور ورئيس الوزراء السابق .

فنبهنى هذا الامر . حقيقة كان لدى من المجوهرات اكثر من الآخرين بكثير . فعندى ، سوى الاشياء المخبوءة فى اسفل حقيبة ملابسى ، بعض الاشياء البالغة القيمة مما لم اخفيه . ومن بين ذلك طقم من ثلاثة اختام لا تقدر قيمتها منقوشة بكل عناية من ثلاث قطع مترابطة ، كان قد صنع للامبراطور تشيان لونغ بعد ان تقاعد عن العرش . فقررت ان اسلم هذه الاشياء برهانا على " وعيى السياسى " .

وحاول بعض السجناء الانضمام الى متطوعى الشعب الصينى للقتال فى كوريا . وعندما رفضت طلباتهم احسست بالغيرة لهذه الطريقة التى ابدوا منها " وعيهم السياسى " دون اية خطورة جدية لحقت بهم . وقررت ألا اتخلف هذه المرة . ومن حسن الحظ ان موظفا حكوميا جاء فى جولة تفتيشية فى ذلك اليوم . وعندما رأيته قادما عرفت انه الرجل الذى طلب منى الا اقلق ونحن فى شنيانغ . واستطعت ان ابين من سلوك مدير السجن الذى كان يرافقه ان هذا الرجل اعلى منه مركزا . ورأيت انه سيكون اكثر فاعلية ان اقدم اشيائى الى هذا الموظف الكبير . وعندما دخل زنزانتنا انحنيت انحناءة شديدة وقلت :

— اود ان اعلن يا سيدى اننى ارغب فى تقديم هذا الشىء الى الحكومة الشعبية .

فلم يأخذه بل هز رأسه وقال :

— أ لست بو يى ؟ من الافضل ان تناقش هذا الامر مع سلطات السجن .

ثم سألنى بضعة اسئلة اخرى وانصرف . وقلت فى نفسى لو انه القى نظرة جيدة على اختامى لما بدا غير مبالى بها الى هذا الحد . وعندئذ كتبت رسالة الى سلطات السجن وسلمتها الى السجان ليو سويا مع الاختام .

وبقيت عدة ايام لم اسمع خلالها شيئا عن الاختام ، وبدأت اشك

فى ان يكون السجان قد سرقها . وذات مساء ، عندما كان الآخرون يلعبون الشطرنج او الورق ، كنت مكتئبا بخصوص الاختام ومقتنعا بأن شكوكى فى محلها . وفى تلك اللحظة تماما وقف السجان الممتلئ الجسم خارج الزنزانة وسألنى لماذا لا ألعب الورق كالآخرين . وعندما اخبرته بأننى لا استطيع ، وهذه حقيقة ، انطلق فأحضر ورق لعب ، ثم جلس فى الجانب الآخر من القضبان الحديدية وخلط الورق . وكنت فى تلك الاثناء اكرهه .

وقال وهو يخلطها :

ــ اننى متأكد من انك ستستطيع تعلم اللعب . فأنت عندما تصبح انسانا جديدا وتبدأ حياة جديدة لن تجد الكثير من التسلية اذا انت لم تمتع نفسك .

فذهلت لنفاقه . وعندما جاء سجان آخر مدخن غليونا واعطى احد زملائى فى الزنزانة شيئا من تبغه لكى يلف منه سيجارة ، اقتنعت بأن جميع السجانين يحاولون ان يخدعونا . ولكننى لن اخدع .

ولكن الذى كان يحاول خداع الآخرين فى الواقع هو انا . فبعد ذلك بوقت قصير قال لى المدير وانا فى فناء السجن :

ــ لقد رأيت رسالتك واختامك . وقد حصلنا كذلك على الاشياء التى قدمتها فى الاتحاد السوفياتى ، ولكن المهم بالنسبة للشعب الرجال ، الرجال الذين اعادوا بناء انفسهم .

تغييرات فى اسرتى

ولم افهم مضمون ما قاله مدير السجن الا بعد سنوات طويلة . ففى ذلك الوقت نظرت الى الامر على انه اثبات على اننى لن اتعرض لخطر فى تلك اللحظة اذا كانوا يريدوننى ان اصلح نفسى . ولكن الخطر جاء يوم لم

اكن اتوقعه :

فذات يوم انحلت يد نظارتي ، فطلبت من السجان ان يأخذها الى لى الكبير ليعيد تركيبها . وكان حاذقا في اصلاح الاشياء الدقيقة كالنظارات والساعات واقلام الحبر . وغالبا ما اصلح هذه الاشياء للناس ، وكان يصلح نظاراتي قبل ذلك على الدوام . ولكن الامر اختلف هذه المرة .

يمكن للمرء داخل السجن ان يسمع في الطابق العلوى ما يجرى في الطابق السفلى والعكس بالعكس ، فبعد ان غادر السجان مباشرة استطعت ان اسمع لى الكبير يدمدم على نحو غير واضح تعبيرا عن عدم رضاه . وبعد لحظة عاد السجان وسألني ان كنت استطيع ايجاد طريقة لاصلاحها بنفسى حيث ان لى الكبير قال انه لا يستطيع اصلاحها . فغضبت غضبا شديدا من وقاحته ، وقلت للسجان : " لو كنت استطيع اصلاحها بنفسى لما طلبت منه ذلك . ارجوك ان تكلمه ثانية يا سيد جيانغ . " كان السجان جيانغ شابا نحيفا صامتا ، وجميع زملائي في الزنزانة قالوا انه شخص مهذب . ولا بد انه كذلك لأنه فعل كما طلبت منه ونزل ثانية .

وهذه المرة لم يرفض لى الكبير بل اصلحها ، ولكنه لم يحسن اصلاحها بل اكتفى بربط اليد الى النظارة بخيط . والمسمار الصغير الاصلى قد اختفى على ما يبدو .

وفكرت في المسألة مليا وتوصلت الى ان لى الكبير قد تغير . وتذكرت انني ارسلت منذ بضعة ايام روى الصغير ليحضره حيث لم اره منذ فترة من الوقت . فعاد روى ليقول لى : " ان لى الكبير يقول انه مشغول وليس لديه وقت . " وبوسعي ان اتخيل الآن انه لا بد ان يكون قد قال شيئا كهذا : " انا ليس لدى وقت لأكون دائما رهن اشارته وطلبه . "

وبعد موضوع النظارة بوقت قصير حل عيد رأس السنة لعام ١٩٥٢ . فسمح لنا باقامة حفلة بهذه المناسبة . وقمنا بأداء عرض صغير مستخدمين

الملعب الفارغ امام برج المراقبة مسرحا وقد حدث حينئذ ما ينذر بحصول نكبة .

كتب شيو الصغير وقو الصغير ولى الكبير مقطوعة هجائية فى صيغة حوار ، وجاء جميع نزلاء زنزانتهم باستثناء روى الصغير لأداء هذا الحوار . واثاروا الضحك من تصرف بعض السجناء مثل وزير العدل السابق فى " امبراطورية منشوريا " تشانغ هوان شيانغ المعروف بلقب " الفم الكبير" . وكان له طبع خشن . فكان يزعج جميع جيرانه عندما يختصم مع شخص ما ، وعندما قالوا له مرة انه اسقط الارز على الارض تعمد ان يسقط المزيد . ثم وجه الهجاؤون بعد ذلك نارهم الى السجناء الذين كانوا يقرأون بأعلى اصواتهم عندما يرون سجانا يمر بهم .

ووجدت هذه الامور مضحكة مثل بقية المستمعين ، ولكن بعد ذلك جاء دور التهكم على السجناء المؤمنين بالخرافات . وحرف مؤدو هذا العرض الامور بحيث اظهروا هؤلاء المؤمنين بالخرافة بأنهم لا يدركون ان عرافتهم وصلاتهم لم تنقذهم من قبل ، فاستمروا يصلون سرا . ومن الواضح ان هذا الهجوم قد شملنى ، لأننى كنت ما ازال اتلو التعويذات واصلى احيانا . وبينما كنت مستعدا للاعتراف بأن هناك صدقا فى ادعائهم بأن الصلاة لم تنفعنى شيئا ، لم يكن من المحتمل ابدا ان اتعرض لهذا الهجاء علنا . وكان هذا عدم احترام فاضح .

ولم ينته الامر عند هذا الحد . وكانت الضحية التى تلت نموذجا لرجل ادخل سجنا عرف فيه الامور الصحيحة وعاملته الحكومة على انه انسان ، ولكنه " ما يزال يتصرف على انه عبد لشخص آخر . " ان خدمة ذلك " الشخص الآخر" عن طواعية لن تساعده على اصلاح نفسه بل ستجعل الآخر يمضى فى تصرفه على انه السيد . وبدا واضحا لى بما فيه الكفاية من الذى يهاجم ومن هو " الشخص الآخر" وفهمت الآن لماذا لم يشترك روى الصغير

فى الأداء ؛ وشعرت بالأسى له وخشيت ألا يقوى على الصمود .

والواقع ان روى الصغير قد تغير ايضا . واحتجب لى الكبير وشيو الصغير وقو الصغير بعض الوقت فلم يظهروا فى الفناء ، ونادرا ما كنت ارى روى الصغير ، لذلك تكدست ثيابى الوسخة اياما . وبعد انتهاء حفلة عيد رأس السنة لم يأت لغسل ثيابى مطلقا .

ولم يمض وقت طويل حتى حدث تطور كبير آخر .

ذات يوم وقد حل دورى للقيام بخدمات الزنزانة كنت مقرفصا عند القضبان الحديدية انتظر وصول الطعام . فاذا بروى الصغير يجلبه . وعندما سلمنى اياه وضع فى يدى كرة ورقية صغيرة . فذهلت ، ولكننى اخفيتها بسرعة واستدرت لأسلم الطعام ، مجهدا نفسى فى التصرف على نحو طبيعى . وبعد انتهاء الوجبة ذهبت الى المرحاض الذى كان خلف جدار منخفض فى زاوية الزنزانة ، وفتحت المذكرة :

> اننا جميعا مذنبون ويجب ان نعترف للحكومة بكل شىء . هل بلغت عن الاشياء التى خبأتها لك فى اسفل حقيبتك ؟ اذا اخذت زمام المبادرة وسلمتها الى الحكومة فمن المؤكد انها ستعاملك باللين .

فالتهب الغضب فى نفسى ، ولكن بعد لحظة تحول هذا الغضب الى الادراك بأن اتباعى قد تمردوا وان اسرتى قد هجرتنى . والقيت تلك المذكرة فى المرحاض وقدرت ان هؤلاء الشباب قد تغيروا . وكان هذا الامر فوق قدرتى على الفهم .

كان والد لى الكبير خادما عند الامبراطورية الارملة تسى شى فى القصر الصيفى ، وبسبب ذلك تمكن لى الكبير من الحصول على العمل غلاما فى المدينة المحرمة بعد طرد الخصيان . وكان وقتها فى الرابعة عشرة من عمره . وقد تبعنى الى تيانجين ، حيث درس مع بعض الغلمان الآخرين الذين كانوا

عندى على مدرس للغة الصينية . وجعل مرافقا شخصيا لى ، واعتبرته واحدا من خادمى الاكثر ثقة . واخترته ليصاحبنى عندما تركت داليتسيقو لدى محاولتى الهرب الى اليابان عام ١٩٤٥ . وعندما كنا فى الاتحاد السوفياتى لكم يابانيا بشدة لعدم ابتعاده من طريقى . وكان على الدوام يحترمنى ويطيعنى طاعة تامة ، كما كان يطبق تعليماتى بأمانة فى اتلاف بعض مجوهراتى دون ان يترك اثرا لذلك . فلم استطع ان افهم لماذا ينبغى لشخص كهذا ان يتغير ويفقد احترامه لـ " وليه " .

وكان قو الصغير ابن بو وى ، الامير قونغ الثانى . وقد سمحت له بوصفى " امبراطور اسرة تشينغ العظيم " ان يخلف والده فى اللقب ، ونشأته ليكون واحدا من دعائم اعادة الملكية فى المستقبل . وفى الاتحاد السوفياتى نظم قصائد عبر فيها عن ولائه لى . وقد جعلته تنشئتى له منقطعا للبوذية ، وفى مرحلة واحدة امضى الايام بكاملها مستغرقا فى " تأمل العظم الابيض " امام صورة هيكل عظمى . وظل يظهر ولاءه لى حتى بعد وصولنا الى هاربين . وعندما يكتب شخص كهذا هجوما على فهذا يدل بكل وضوح انه قد انهى ولاءه لى .

وكان اكثر التغيرات ادهاشا ذلك الذى حدث لروى الصغير . لقد انحدر من اسرة اميرية متداعية ، وقد استدعيته الى تشانغتشون عندما كان فى التاسعة عشرة من عمره ليدرس مع ابناء عوائل نبيلة متدهورة ايضا واعتبرته من اكثر طلاب البلاط طاعة وامانة . وبدا لى اقل موهبة من الآخرين ولكنه خدمنى افضل من رفاقه الاذكى منه . واظهر ولاءه لى خلال سنواتنا الخمس فى الاتحاد السوفياتى . وقد اختبرته ذات مرة بأن سألته اذا كانت لديه فكرة بالتخلى عنى ، فاعترف بأنه شعر مرة بأنه قد عومل معاملة خاطئة عندما جعلته يركع على الارض مدة ساعة معاقبة له . وعندما قلت له اننى اصفح عنه سجد لى ، وظهر سعيدا كأنما قد غادر الجحيم الى الفردوس . وقبيل

عودتى الى الصين رشحته ليكون " خلفا " لى فى حالة موتى ، وفرحته بذلك لم يكن ممكنا تخيلها . ومنذ ذلك الحين وهو يفعل كل شىء لى . ولكنه الآن من بين جميع الناس يحاول ان يعلمنى اننى مذنب .

لو اننى كنت اكثر دقة فى الملاحظة لانتبهت لبعض الاشارات المنذرة بهذه التغييرات التى لا يمكن تصورها . ففى حفلة رأس السنة تلا قو الصغير قصيدة بمصاحبة الصفاقات يصف الطريقة التى تغير بها تفكيرهم . وقد وصف فيها كيف انشئوا منذ طفولتهم فى " امبراطورية منشوريا " ملقنين بالدعاية الرجعية . وانهم علموا ان يعتقدوا بأن اليابان من اكثر البلاد قوة على سطح الارض ؛ وان الشعب الصينى عاجز وبحاجة الى ان يكون محكوما ؛ وان من الطبيعى ان يكون الناس مقسمين الى درجات ، وما الى ذلك . وان عودتهم الى الصين قد بينت لهم ان كل ذلك كان مجرد كذب . وانهم ذهلوا فى اليوم الاول من عودتهم لاكتشاف ان سائق قطارهم صينى ، وان اكتشافات كهذا كانت تتبع يوميا تقريبا . وان اكثر ما ادهشهم هو موقف سلطات السجن والانتصارات فى الحرب الكورية .

وفى ذلك الوقت رأيت ان هذه القصيدة ليست اكثر من رافعة ستار ولم اعرها انتباها . وعجزت عن فهم ان قو الصغير كان يشرح سبب تمردهم : انهم قد رأوا الآن اننى كنت اخدعهم .

ان الذى ما فهمته على وجه خاص انهم فى احتكاكاتهم بموظفى السجن منذ فصلهم عنى قد تأثروا جميعا تأثرا شديدا بالتغير فى منزلتهم . فمع انهم كانوا سجناء ، الا انهم عوملوا بوصفهم افرادا لهم شخصياتهم المستقلة ، بينما كانوا فى السابق نبلاء اسميا وعبيدا فى الواقع . لقد سمعوا الآن عن نوعيات من الشباب تختلف عنهم — سمعوا عن تشاو قوى لان التى فقدت يدها لتنقذ مصنعا ، وعن مآثر متطوعى الشعب فى كوريا . وبدأوا يسألون انفسهم لماذا لم يسمعوا عن اناس كهؤلاء فى الماضى ؟ ولماذا لم يتعلموا الا كيف

يتوسلون ويسجدون ؟ ولماذا كان ينتظر منهم ان يكونوا متشكرين على الشتم والضرب بينما الآخرون كسوا انفسهم بالعظمة ؟ ولماذا كانوا جاهلين كل هذا الجهل بينما الآخرون حققوا الشيء الكثير ؟

ان افكارا كهذه جعلتهم يتغيرون ويبدأون بالدراسة الجادة ويخبرون سلطات السجن بكل شيء عن ماضيهم .

وبعد ان اتلفت المذكرة جلست بجانب الجدار مكتئبا افكر في ان الشيوعيين خطرون حقا اذا هم استطاعوا تغيير ابناء اشقائي ولي الكبير على هذا النحو . وكان عزائي الوحيد هو ان اخي وزوجي شقيقتي كانوا ما يزالون يتصرفون على نحو طبيعي . ولكنني بقيت في قلق شديد : هل سيبلغ روى الصغير السلطات عني ؟

ولم اعرف ماذا افعل . كان عندي كمية من المجوهرات يصل مجموعها الى ٤٦٨ قطعة مخبوءة في اسفل حقيبتي : بلاتين وذهب وماس ولؤلؤ واصناف اخرى من الاحجار الكريمة التي اخترتها بعناية لتكفيني بقية حياتي . وكنت متأكدا انني من دونها لن اكون قادرا على اعالة نفسي اذا ما اطلق سراحي ، ذلك لأن فكرة كسب معيشي بنفسي لم تخطر في ذهني . اذا كنت سأسلمها بعد اخفائها هذه المدة الطويلة ، فان ذلك سيثبت انني كنت اخدع السلطات . ولكن اذا انا لم اسلمها ، فان روى الصغير ليس الوحيد الذي يعلم امرها ، واحتمال ان يتخلى عني الآخرون اكبر بكثير من احتمال تخليه هو . واذا ما حدث هذا فسأقع في ورطة حقا .

" اذا اخذت زمام المبادرة وسلمتها الى الحكومة فمن المؤكد انها ستعاملك باللين . " عامت هذه الجملة في ذهني ثم اختفت تدريجيا . وظننت ان كلمتي " الشيوعيين " و " اللين " متضاربتان ، على الرغم من الطريقة التي عوملت بها في السجن والروايات التي قرأتها في الصحف عن المعاملة اللينة للمذنبين الذين كشفوا في حركة المكافحات الخمس وحركة المكافحات

الثلاث (١٣) . فبعد بدء هاتين الحركتين بوقت قصير قرأت عن اعدامات بعض الفاسدين الذين ارتكبوا افظع الجرائم . وفيما بعد رأيت تقارير عن جرائم الرأسماليين الذين سرقوا ممتلكات الدولة والاسرار الاقتصادية وعن الابتزاز والتهريب وعن التخلص من الضرائب ، وقارنت ذلك بسجلي . وكان لى تفسيرى الخاص لشعار " قادة الفتنة دائما ما يعاقبون ؛ والذين اجبروا على التعاون لن يعاقبوا ؛ واولئك الذين يؤدون الاعمال التى تستحق التقدير يكافأون . " ورأيت انه حتى اذا كانت روايات الاين صحيحة فانها لا يمكن ان تنطبق على : فقد كنت قائد فتنة ولذلك سأعاقب لا محالة .

وابتسمت قائلا لنفسى فى مرارة : " اذا اعترفت فانك ستعامل باللين . " كنت مقتنعا بأننى حالما اخبر مدير السجن بالمجوهرات سيغضب غضبا شديدا لأنى خدعته ويعاقبنى . وربما يسعى الى اكتشاف ان كنت اخدعه بأنواع اخرى من الخداع . وهذه هى الطريقة التى كنت اعامل بها من هم دونى فى تلك الايام الماضية .

لا ، اننى لا يمكن ان اعترف . من المؤكد ان روى الصغير والآخرين لن يكونوا قساة على نحو يجعلهم يبلغون عنى . وتركت المسألة جانبا .

بعد اسبوع حان دور روى ثانية فى جلب الطعام الى زنزانتنا . ورأيت تعابير وجهه جدية جدا ، ولم يكن ينظر الى اطلاقا . وحدق الى حقيبتى لحظة ثم انسل عائدا . فأصبت بالقلق . ماذا يعتزم ان يفعل ؟ وبعد اقل من ساعتين ظهر فجأة فى بداية فترة دراستنا . وتوقف خارج الزنزانة لحظة ، ونظر الى حقيبتى ، وغادر ثانية .

وايقنت انه ذهب لرؤية مدير السجن . فقررت ، وانا فى حمى القلق ، ان اسلم المجوهرات طائعا مختارا قبل ان يبلغ عنى .

فأخذت يد لاو وانغ ، رئيس مجموعتنا واخبرته ان لدى شيئا سأعترف به للحكومة .

اعتراف ولين

" اننى لست جيدا . لقد عاملتنى الحكومة بمنتهى الانسانية ، ولكننى خبأت كل هذه الاشياء مخالفا لوائح السجن ، لا بل قانون البلاد . ان هذه الاشياء ليست لى حقا ، انها للشعب ؛ لقد فهمت هذا اخيرا ، ومن اجل ذلك اعترفت وسلمتها . "

كنت واقفا فى مكتب مدير السجن ناكس الرأس امامه . ومجوهراتى البالغة ٤٦٨ قطعة موضوعة على طاولة بجانب النافذة تلتمع . وقلت فى نفسى : " دعها تشع اذا كنت استطيع انقاذ نفسى بتسليمها ، واذا طبقت بحقى سياسة اللين . "

نظر المدير الى بتمعن ، وهز رأسه قائلا :

— اجلس .

وجعلتنى نبرة صوته اشعر ان هناك مجالا للأمل :

— هل خضت صراعا ذهنيا كبيرا حول هذه ؟

فتجنبت ذكر مذكرة روى الصغير ، وقلت :

— كنت اخشى ، اذا اعترفت ، ألا اعامل باللين ؟

فسألنى المدير وعلى شفتيه ابتسامة :

— لماذا ؟ لأنك كنت امبراطورا ؟

فأجبت بعد لحظة تردد :

— نعم .

— لا غرابة فى ذلك . ما دام لك تاريخ خاص فبدهى ان تكون عندك بعض الافكار الخاصة . دعنى اكرر اذن ان الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية يعنيان ما يقولانه . انهما لينين مع اولئك الذين يعترفون ، وانهما يخففان عقوبات اولئك الذين يصلحون انفسهم ، ويكافئان اولئك الذين يؤدون اعمالا

تستحق التقدير بصرف النظر عن منزلتهم الاجتماعية . ان الامر كله يعتمد على سلوكك . لقد خالفت لوائح السجن باخفاقك في تسليم هذه الاشياء حالا وباخفائها هذه المدة الطويلة ، ولكن ما دمت الآن قد اعترفت بذنبك ، فهذا يعنى انك تبت . ولهذا السبب لن نعاقبك .

وطلب من السجان خارج الباب ان يحضر امين المستودع لحفظ الاشياء القيمة . وعندما جاء طلب منه المدير ان يأخذ تلك الكومة من المجوهرات ويعطيني وصلا بها .

فدهشت . ثم وثبت ناهضا لأقول معترضا :

— لا ، لا اريد وصلا . اذا كانت الحكومة لا تريد ان تصادرها ، فانني سأتبرع بها .

فنهض المدير وقال وقد هم بالمغادرة :

— لا ، اننا سنحفظها لك . فهل تتفضل بفحصها ؟ لقد اخبرتك من قبل ان الناس المعاد بناؤهم اكثر قيمة بالنسبة لنا .

وعدت الى زنزانتي بالوصل . كان نزلاء زنزانتي يتناقشون في كتاب : «كيف اصبحت الصين مستعمرة وشبه مستعمرة» الذى كنا ندرسه في ذلك الوقت ، ولكن عندما دخلت توقفوا عن مناقشة ذلك ورحبوا بي ترحيبا حارا لم يظهروه من قبل وهنأوني على تقدمي قائلين :

" يا لاو بو (١٤) ، اننا معجبون بك . "

كانوا قد توقفوا من زمانه عن مناداتي بعبارة " السيد بو" وغيروها الى هذه الطريقة غير الرسمية في المخاطبة . وكنت عندما سمعت عبارة " لاو بو" للمرة الاولى لم استسغها في البداية ، ولكنها اليوم جعلتني اشعر انها جيدة .

" لاو بو ، ان تصرفك قد بين لى الطريق . "

" يا لاو بو ، انني لم اكن ادرك انك تتمتع بشجاعة الى هذا الحد . "

" يا لاو بو ، يجب ان اشكرك لأنك اعطيتنى المزيد من الثقة فى سياسة اللين ازاء اولئك الذين يعترفون . "

وهنا يجب ان اضيف الى ان هيئتى اصبحت اكثر اهمالا من السابق ، فقد كنت اغسل ملابسى واصلحها بنفسى . وكان احترام نزلاء زنزانتى لى قد انخفض الى النصف على الاقل بعد تغيير عبارة الخطاب الى " السيد بو " . بل ان بعضهم اخذ يدعونى " سوق الخرق " من خلف ظهرى ، وكانوا غالباما يضحكون منى لعدم صلاحيتى فى الدراسة . ولهذا كله فان مديحهم الحالى قد ابهجنى .

فى فترة الراحة فى ذلك اليوم سمعت لاو يوان ، سفير " امبراطورية منشوريا " السابق لدى اليابان يتحدث عما فعلت . كان لاو يوان شديد الذكاء يستطيع ان يفكر فى لحظة فى ما لا يستطيعه الآخرون فى يوم . وما قاله جعلنى افكر بعض الوقت :

" ان لاو بو رجل عاقل ، ليس غبيا مطلقا . لقد كان مصيبا تماما فى اخذه زمام المبادرة واعترافه بأن لديه تلك المجوهرات . انه بالطبع لا يستطيع ان يخدع الحكومة ، لأن الحكومة لديها معلومات عنا اكثر مما تتخيلون . تذكروا تقارير الصحيفة عن حركة المكافحات الثلاث وحركة المكافحات الخمس . ان ملايين الناس قدموا المعلومات الى الحكومة . فالحكومة تعرف حتى الاشياء التى نسيتموها منذ سنوات . "

لقد ادركت اننى لا استطيع تغطية الكذب الذى ذكرته فى سيرتى الذاتية . اذا كان على ان اعترف لهم ، فهل يمكن ان اسلم كما سلمت عند تسلم المجوهرات ؟ هذه ستكون مسألة سياسية لا اقتصادية ، ولا اعرف ان كانت ستعالج بنفس الطريقة . ان مدير السجن لم يقل شيئا عن ذلك . ولكن الجرائم الاقتصادية كالجرائم السياسية ، والمبادئ التى تكلم عنها مدير السجن يجب ان تطبق عليها ايضا .

ولم استطع اتخاذ القرار . وبدأت انظر بمزيد من الاهتمام الى امثلة اللين الواردة فى الصحف . كانت حركة المكافحات الثلاث وحركة المكافحات الخمس فى طريقهما الى الانتهاء ، والكثير الكثير من الحالات كانت تعالج ، وجميعها باللين . وتفحصت هذه الحالات مع لاو وانغ ، القاضى السابق ، مقارنا ما قرأته من حالات مع سجلى ومتسائلا ان كانت سياسة اللين ستساعدنى .

عندما كانت الحكومة تستعد لمعالجة قضايا مجرمى الحرب اليابانيين طلبت منا سلطات السجن ان نكتب ما نعرفه عن جرائم اليابانيين فى الشمال الشرقى . وسأل احد السجناء اذا كان مسموحا لنا بأن نكتب عن الآخرين بالاضافة الى اليابانيين . فقيل له ان هذا مسموح به طبعا ، ولكن يجب ان نركز على جرائم اليابانيين . فأقلقنى هذا الامر . من هم الآخرون الذين يريد هذا السجين ان يكتب عنهم ؟ ان كلمة " الآخرين " قد اشارت بكل وضوح الى الصينيين ، واكبر المجرمين الصينيين انا دون شك . فهل سيكتب اى من افراد اسرتى عن " الآخرين " ؟

وكتب مجرمو الحرب التابعون لـ " امبراطورية منشوريا " عن جرائم اليابانيين بتحمس كبير . وكتبت مجموعتنا بضعة عشر اتهاما فى اليوم الاول وحده ، وقال لاو وانغ فى رضى : " اننا لم نتصرف على نحو سيئ ، واننى متأكد من اننا نستطيع ان نكتب غدا بمقدار ما كتبناه اليوم . " فتدخل احدهم قائلا : " من يعرف كم سيكتب اهالى الشمال الشرقى اذا طلب منهم ذلك . " فأجاب لاو وانغ : " ان الحكومة ستقوم طبعا بالاستقصاءات بينهم . ما رأيك يا لاو بو ؟ " فأجبته : " اننى متأكد من انها ستقوم بالاستقصاءات . ولكننى اتساءل ان كانت ستسأل عن الآخرين بالاضافة الى اليابانيين . " فقال : " بعض الناس سيكتب عنا لا محالة ، حتى وان لم يطلب منه ذلك . ان ابناء الشعب العاديين يكرهوننا كراهية مرة كما يكرهون اليابانيين تماما . "

فى ذلك المساء جلب لنا عشاءنا لى الكبير . وكان يبدو فى مزاج سيئ للغاية ، فقد وضع الطعام على الارض وانصرف عائدا دون ان ينتظرنى حتى استلمه منه . وتذكرت حالا كيف ساعدنى على الصعود الى خانة الامتعة فى السيارة عندما غادرت " الحديقة الهادئة " فى تيانجين .

امضينا اليوم التالى ايضا نكتب عن اليابانيين . ونظرا الى اننى لم اعرف الكثير فلم استطع ان اكتب الا قليلا ، ولكن لاو وانغ كان ما يزال راضيا لأن الآخرين كتبوا الكثير . وقال : " تصوروا ! كم من المعلومات سيكون ابناء الشمال الشرقى قادرين على تقديمها للحكومة . اننى بوصفى موظفا قانونيا سابقا استطيع ان اخبركم انكم اذا كان لديكم دليل تستطيعون ان تجعلوا اى واحد يتحدث فى النهاية . فى الايام الماضية اعتدنا ان نفكر ان اصعب الامور هو الحصول على دليل ، ولكن الامور مختلفة تماما بالنسبة للحكومة الشعبية حيث الشعب العادى بكامله يقدم المعلومات . " فهبط قلبى . وفكرت فى القضية التى قرأتها عن الرجل الذى اعدم شيوعيا قياديا عام ١٩٣٥ ثم قبضت عليه سلطات الامن مؤخرا فى مخبئه فى اعماق الجبال . ربما كان الشيوعيون يحتفظون اه باضبارة منذ عام ١٩٣٥ .

وفى اليوم الثالث ، عندما كنت اكتب تقريرى الاخير عن اليابانيين ، سمعت صوتا على السلم . فالتفت لأنظر فرأيت شخصا غريبا بالقرب من برج المراقبة متبوعا بالمدير . فخمنت انه قد يكون موظفا من جهاز اعلى جاء للتفتيش . ونظر الى كل زنزانة تباعا ، ولم يظهر اى اهتمام فيما كان المدير يخبره باسم كل سجين . ومع انه لم يكن مرتديا بزة عسكرية ، الا اننى حزرت من تعابير وجهه الصارمة انه لا بد ان يكون رجلا عسكريا . وكان يبدو دون الخمسين من عمره .

وسألنى عندما نظر الى داخل زنزانتنا :

— ماذا تفعل ؟

ودهشت بالاعتدال فى صوته وبطيف الابتسامة التى ارتسمت على وجهه . ونهضت واخبرته بأننى اكتب عن جرائم اليابانيين . فقال باهتمام :

ـ اية جرائم تعرف ؟

فأخبرته بمذبحة العمال فى مشروع البناء ، تلك القصة التى رواها لى تونغ جى شيوى . ولعلى كنت اتخيل ، الا ان الابتسامة بدت تختفى من وجهه كما اصبحت ملامحه صارمة جدا . ولم اتوقع ان الخبر سيثير فى نفسه ردة الفعل الشديدة هذه .

ـ لقد صدمت بتلك الحادثة فى ذلك الوقت حيث لم اكن ادرك ان اليابانيين كانوا بهذه القسوة .

ـ لماذا لم تقدم لهم احتجاجا ؟

ـ انا . . . انا لم اجرؤ .

ـ لأنك كنت خائفا ؟

ودون ان ينتظر جوابى مضى يقول بلهجة هادئة مرة ثانية :

ـ آه ! ما اقرف الاشياء التى يمكن ان يسببها الخوف للانسان .

فقلت بصوت خافت :

ـ هذا كله كان ذنبى : يجب ان اعترف بذنبى للشعب ؛ اننى لا استطيع التكفير عنها حتى ولو مت عشرة آلاف مرة .

ـ لا تضع اللوم كله على نفسك . يجب ان تتحمل نصيبك فقط من المسؤولية وتحتفظ بالحقائق . انك لا تستطيع ان تتهرب من ذنبك ، ويجب ألا تتحمل مسؤولية جرائم الآخرين .

ومضيت اقول اننى تأثرت بالطريقة التى عاملتنى بها الحكومة ، وبأننى اعترفت بذنبى الكبير وصممت على اصلاح نفسى . ولا ادرى ان كان هذا الموظف كان يصغى الى عندما تفحص الزنزانة وطلب من سجين آخر ان يجلب له كوز الاسنان ليفتشه . وعندما انتهيت هز رأسه وقال :

ـــ يجب ان تتشبث بالوقائع . اذا اعترفت بذنبك حقا واظهرت الندم فانك ستعامل باللين بكل تأكيد . ان ما يقوله الحزب الشيوعي معتمد ، وانه ليعلق اهمية كبيرة على الوقائع . وان الحكومة الشعبية مسؤولة عن الشعب . يجب ان تظهر انك تحرز تقدما بما تفعله ، ليس فقط بما تقوله . حاول بجهد .

ونظر الى ما كنت اكتبه ثم ذهب الى باب الزنزانة الاخرى .

كان قلبي ثقيلا جدا . وفيما تصفحت مجموعة المواد التي كتبتها بدا لي انني اليوم فقط ادركت مدى خطورة الاحداث التي وصفتها في كتابتي هذه . ومنذ ذلك الحين كانت عيناه الصارمتان تلازمانني وصدى كلماته يتردد في نفسي . وادركت انني اواجه قوة لا تقاوم ، قوة لن تكل او تستكين قبل ان تكتشف كل شيء . لقد امسكت هذه القوة جلاد عام ١٩٣٥ مع انه كان مختفيا في اعماق الجبال ، وادركت انها ستقدم وصفا كاملا لجرائم اليابانيين في الشمال الشرقي ، وان جرائم العملاء الكبار والصغار في " امبراطورية منشوريا " لن تقوى على الافلات منها .

كان اليوم احد ، وكنت اعلق غسيلي في فناء السجن كي يجف عندما رأيت لي الكبير وروي الصغير وأحد كوادر السجن يقتربون من بعيد . وبعد ان وقف ثلاثتهم عند المزاهر فترة افترقوا وتقدم روي الصغير في اتجاهي ، ولكن عندما هممت بتحيته مرق من جانبي فورا دون ان يلقي نظرة الى ناحيتي . فشككت في انه قد فعل شيئا لا يمكن تغييره .

وعدت الى زنزانتي ثم اعدت فحص المواد المتعلقة بحركة المكافحات الثلاث وحركة المكافحات الخمس في الصحف القديمة . فجاءني لاو وانغ وقال :

ـــ ماذا تفعل ؟ أ تدرس حركة المكافحات الخمس ؟

فوضعت الصحف من يدي واعلنت قراري :

ــ لا . كنت افكر فى بعض احداث الماضى . فى السابق لم ار طبيعتها الحقيقية ، ولكننى الآن ارى انها جرائم . هل تظن ان من الصواب ان اضمنها فى مقالتى الدراسية ؟

فخفض صوته وقال :

ــ طبعا . ان الحكومة على اية حال قد جمعت عنا كثيرا جدا من المواد ، لذلك سيكون من الافضل بكثير الافصاح عنها .

فتناولت قلمى . وكان الهيكل العام لمقالتى هو ان الاقطاعيين والكمبرادور كانوا شيئا لا غنى عنه للامبريالية فى عدوانها على الصين ، واننى انا كنت مثالا نموذجيا . لقد استخدمتنى القوى الاقطاعية لافتة لها من اجل تحقيق احلامها فى اعادة الملكية وتعاونت مع الامبرياليين اليابانيين ، بينما استخدمنى اليابانيون لافتة لهم ايضا عندما حولوا الشمال الشرقى الى مستعمرة لهم . وكتبت تفاصيل نشاطاتى فى تيانجين وتفاصيل علاقاتى وعلاقات زمرتى باليابانيين ، بما فى ذلك لقائى مع دويهارا .

وبعد يومين اخبرنى لاو وانغ بأن ساطات السجن قد قرأت مقالتى ورأت اننى احرزت تقدما كبيرا ينبغى لمجموعتى ان تمتدحنى عليه . وقال لاو وانغ ، القاضى السابق :

ــ ان دليلا حقيقيا واحدا يساوى اكثر من عشرة آلاف كلمة فارغة .

صنع الصناديق

فى نهاية عام ١٩٥٢ انتقلنا من المبنى المحاط بالقضبان الحديدية الى مبنى جديد فسيح ، وكانت فيه اسرة جديدة وطاولات ومقاعد ونوافذ كذلك تدخل قدرا كبيرا من الضوء . ونظرا الى ان ما قاله مدير السجن عن " الاصلاح " بدا حقيقيا ، ونظرا الى اننى مدحت على كتابتى ذلك الجزء

من تاريخي الشخصي بدلا من ان اعاقب ، بدأت ادرس بجدية . ورأيت فى تلك الايام انه لم يكن هناك اكثر من القراءة ليقوم المرء باعادة بناء نفسه ، وتصورت اننى بمجرد تمكني من الافكار الواردة فى الكتب تكتمل اعادة بناء نفسي . ولم يخطر فى ذهنى قط ان القراءة غير كافية ، او ان القراءة وحدها لن تمكننى من فهم معنى مضمون الكتب . فى اواخر عام ١٩٥٠ واوائل عام ١٩٥١ مثلا كنت قد قرأت كتاب « ما هو المجتمع الاقطاعى ؟ » ، ولكن لم افهم ماذا تعنى الاقطاعية حقا الا فى ربيع ١٩٥٣ حيث علمتنى ذلك فترة العمل حينذاك ، صنع الصناديق .

لقد اتفقت سلطات السجن مع مصنع اقلام الرصاص فى هاربين على ان نقوم نحن السجناء بصنع الصناديق الكرتونية التى تحزم فيها اقلام الرصاص . ومن ذلك الحين ونحن نمضى اربع ساعات كل يوم فى الدراسة واربع ساعات فى العمل . وقال لنا كوادر السجن ان هذا سيغير من روتين حياتنا ، حيث سيكون قليل من العمل اليدوى نافعا لنا لأننا لم نقم قبل ذلك بأى عمل . ولم ادرك حينذاك ما المغزى الخاص فى تلك الكلمات بالنسبة لى .

وطبعا لم اقم قبل ذلك قط خلال حياتى كلها بالصاق اجزاء صندوق لأقلام الرصاص الى بعضها ، كما انه لم يسبق لى ابدا ان بريت قلم رصاص . وكل ما عرفته عن اقلام الرصاص هو اننى استطعت ان اتذكر العلامة التجارية المكتوبة عليها — اقلام فينوس وكانت مطبوعة عليها مع صورة امرأة مكسورة الذراع ، وكانت هناك اقلام رصاص المانية عليها صورة ديك . ولم اذكر مطلقا الصناديق التى كانت هذه الاقلام تأتى محزومة فى داخلها ، كما لم تكن عندى فكرة عن ان صنع الصناديق متعب الى هذا الحد . وعلى اى حال لم يمض على وقت طويل حتى زال شعورى بهذه الاشياء الجديدة ، وبدا لى كما لو ان عقلى ملتصق بعجينة ، بليدا مشوشا . فبينما كان الآخرون قد اتموا عددا من الصناديق لم اكن قد انهيت صندوقى الاول بعد ، كما

انه لم يظهر بشكل صندوق او لأى شيء يصلح . فسألني لاو شيان وهو مدير مستشفى عسكرى سابق فى " امبراطورية منشوريا " ، آخذا بيده هذا الشيء الذى صنعته :

– كيف صنعته يا ترى ؟ لماذا لا ينفتح ؟ ما هذا الشيء العجيب ؟

لقد نشأ لاو شيان فى اليابان حيث درس الطب ، وهو شقيق العميلة السيئة السمعة جين بى هوى (التى كان اسمها اليابانى كاواشيما يوشيكو) وابن للامير سو ، اى انه منحدر من اسرة خونة قياديين . وكان رجلا سيئ الطبع ، وقد احب ان يصب جام غضبه على اذ كنت من الجبن بحيث لا اقوى معها على الصمود امامه .

كانت مشاعرى مزيجا من الغيرة وخيبة الامل والخوف من ان اكون مثار سخرية ، وقد لفت هذا الفضولى شيان انتباه الآخرين الى . فاحتشدوا حول صندوقى وراحوا يضحكون على نحو غير مريح . فانتزعت الصندوق من لاو شيان والقيته على كومة الفضلات . فقال محملقا فى وجهى :

– ماذا ؟ أ تتعمد القاءه ؟

فتمتمت قائلا وانا ارفع الصندوق من كومة الفضلات واضعه على كومة الصناديق الجاهزة :

– كلا . انه ليس سيئا جدا بحيث لا ينفع نهائيا .

ولكن هذا كان خطأ واضحا .

– الاشياء المنبوذة هى الاشياء المنبوذة اينما وضعت .

فأغضبتنى هذه الاهانة المزدوجة المعانى اشد الغضب . فرددت عليه وانا ارتجف تقريبا ولا استطيع السيطرة على نفسى :

– انت تتعفرت على . انت تتنمر على الضعيف وتخاف من القوى .

فاحمر وجهه وصاح :

– على من اتنمر ؟ وممن اخاف ؟ انت تظن انك ما تزال امبراطورا

وان كل واحد عليه ان يخدمك ، أليس كذلك ؟

ومن حسن الحظ ان الآخرين تجاهلوه ، وجاء رئيس المجموعة واسكته . ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد . فلاو شيان لم يكن على استعداد للتخلى عن هذه المشكلة بسهولة . وفى اليوم التالى اختار مكان جلوسه بجانبى من اجل الصاق الصناديق . واستمر ينظر الى عملى نظرات انتقادية ، لذلك استدرت واوليته ظهرى .

ومع اننى لم احسن عملى كالآخرين ، الا اننى احرزت بعض التقدم فى ذلك اليوم . وفى المساء جلبت لنا سلطات السجن بعض الحلوى المشتراة بالنقود التى كسبناها من عملنا فى اليوم السابق . وكانت هذه هى المرة الاولى التى تمتعت فيها بثمار جهدى الشخصى . ومع ان جهودى كانت من اقل الجهود نجاحا الا ان حصتى من الحلوى كانت اطيب مذاقا من اية حلوى اكلتها من قبل . وقال لاو شيان :

ــ يا بو يى ، انك لم تعمل على نحو سيئ جدا هذا اليوم ، أ ليس كذلك ؟

فقلت رادا على هجومه :

ــ لا ، لم تكن هناك اشياء منبوذة اليوم .

فأجاب مبتسما ابتسامة باردة :

ــ يحسن بك ان تكون اكثر تواضعا .

ــ واى تكبر فى قولى بأنه ليست لدى صناديق منبوذة ؟

وغضبت ، ولم اعد اشعر بلذة فى الحلوى التى فى يدى . كان من اكثر الاشياء كراهية فى تصرفاته هو براعته فى اختيار اللحظة التى اكون فيها شاعرا بالسعادة ليبدأ فى تتبع الثغرات . وقلت له :

ــ اذا نبذت اية صناديق اخرى ، فبوسعك ان تلقبنى كما تشاء .

ثم تجاهلته ، ولكنه ذهب والتقط احد الصناديق التى صنعتها وعرضه

امام الجميع قائلا :

— انظروا !

فرفعت نظرى ، وكادت الحاوى تخنقنى . كنت قد ألصقت رقعة الورق رأسا على عقب . فتميزت غيظا ، ووددت لو القى الصندوق فى وجهه الكريه . ولكننى كبحت هذه الرغبة الجامحة وتمتمت قائلا :

— فكر كما تشاء .

فرفع صوته قائلا :

— ما هذا الطبع السيئ ! ما تزال تمثل دور الامبراطور النتن . لقد انتقدتك من اجل صالحك ، ليس الا ، ولكنك لا تدرك ذلك .

وسمع صوت سجان يأتى نحو الزنزانة ، فرفع صوته اكثر فأكثر :

— انك ما تزال تحلم فى ان تكون امبراطورا ثانية .

فرددت عليه فى غضب :

— كلامك هذا هراء . انا اغبى منك ، ولست ماهرا مثلك فى التكلم او القيام بالاعمال ، ولقد ولدت على هذا النحو ، هل يكفيك ذلك ؟

وجاء الآخرون ليوقفوا هذا الشجار . وكانت زنزانتنا غرفة كبيرة ، وكان عددنا فيها ثمانية عشر شخصا . فباستثنائى كان هناك ثلاثة من الوزراء العملاء السابقين واربعة عشر ضابطا سابقا . وكان احد هؤلاء الوزراء الثلاثة السابقين تشانغ جينغ هوى الذى اصبح فى هذا الوقت خرفا ، ولم يكن عادة يدرس او يعمل ، بل ظل صامتا تماما . وفى ذلك المساء اجرينا جميعا ما عدا تشانغ جينغ هوى مناقشة حول " مسألة الصناديق " . فقال بعضهم انه ليست هناك حاجة الى ان يرفع لاو شيان صوته حتى وان كان حسن النية فى نقده لى ، وقال آخرون اننى كنت مخطئا فى عدم اعترافى بأننى صنعت الصناديق على نحو سيئ . وقال العجوز المنغولى قوه انه ليس من الغريب ان اخرج عن طورى وقد وقف منى لاو شيان ذلك الموقف ، واعترض

قائد فوج سابق كان صديقا لشيان على ان العجوز قوه ينظر من خلف نظارة معتمة . وظهر رأى آخر يقول ان هذه المسألة يجب ان تناقش فى اجتماع النقد يوم السبت . وشرع كل واحد يتحدث فورا . ثم رأيت قائد الفوج يشد معطف شيان الذى كان يصيح بحدة بحيث غطى الزبد شدقيه . وصمت كل واحد ، والتفت فاذا بموظف فى السجن يدعى لى ، وكان مسؤولا عن الدراسة ، قد دخل . فسأل رئيس المجموعة عما كنا نتشاجر بشأنه ، فقال لاو وى :

— ابلغك يا سيدى ان هذا الشجار قد ثار حول صندوق كرتونى منبوذ .

فتناول هذا الموظف الصندوق الذى لصقت فيه الرقعة رأسا على عقب وقال :

— لماذا تتشاجرون حول امر تافه كهذا ؟ لماذا لا تكتفون بالصاق رقعة اخرى على نحو صحيح ؟

فأصبنا بالذهول . ولكن المشكلة لم تنته بعد . فبعد بضعة ايام اخبرنا روى الصغير عندما جلب لنا مواد عملنا بأن بعض المجموعات الاخرى تجرى مباراة ، واراد ان يعرف ان كنا سنشترك ام لا . فقلنا اننا سنشترك . ثم اخبرنا روى الصغير حينذاك ان قو الصغير فى مجموعتهم قد ابتدع طريقة للصق الصناديق لها ضعفا سرعة الطريقة القديمة . فأدركنا ان علينا ان نرفع من فعالية عملنا اذا كنا سنشترك فى المباراة . فاستخرجنا خلاصة من اخبار الابتكارات الفنية التى قرأنا عنها فى الصحافة ، وبدأنا خط انتاج متسلسل ، كان لكل منا فيه عملية . وقد استهوتنى هذه الفكرة لأنها ستجعل عملى اسهل ، وظننت انها قد تغطى عدم قدرتى . ولكن لم يمض وقت طويل حتى حدث تكدس فى مرحلتى ضمن خط الانتاج ، وكان لاو شيان هو الذى لاحظ ذلك . فتظاهر بتعابير الارتباك ، وقال : " ان عيوب فرد واحد يؤثر فى عمل

المجموعة . فماذا يجب ان نفعل بخصوص ذلك ؟ "

فلم اجادله هذه المرة ، ووقفت مواجها كومة الصناديق نصف الجاهزة ، تماما مثل الناس الذين اعتادوا ان يقفوا خارج بوابة قصر تهذيب العقل فى الايام الماضية منتظرين استدعاءهم لمقابلتى . وعندما اشار الرجل الذى يلينى فى عملية الانتاج الى ان عملى ليس فى المستوى المطلوب واننى بذلك قد رفعت معدل الصناديق المنبوذة لدى المجموعة كلها ، ادركت انه لا احد مهما كان عادلا سيدحض النقد اللاذع الذى وجهه لى لاو شيان . وتركت خط الانتاج وعدت لأعمل بمفردى .

ومرة ثانية عرفت شقاء الوحدة . وبعد ان نبذتنى المجموعة شعرت ان الفرق بينى وبينهم كبير جدا كأنما كنت اقف امامهم عاريا . واوشكت ان انفجر بالغضب عندما تنحنح لاو شيان متعمدا وهو يمر بى ، ووجهه ذو الندوب يكشف عن سروره بسوء حظى . واحتجت الى شخص عطوف اتحدث اليه ، ولكن الآخرين كانوا منهمكين فى العمل . وعندها اصبت بانفلونزا وشعرت بأننى فى غاية التعاسة .

وحلمت تلك الليلة بأن وجه لاو شيان فوق وجهى مباشرة ، يقول لى بفظاظة : " انك منبوذ . انك لست قادرا الا على ان تصبح متسولا . " ورأيت نفسى فى حلمى اقرفص عند احد الجسور مثل واحد من " القردة التى تحرس الجسر " والتى حدثنى عنها الخصيان عندما كنت صبيا . وشعرت بيد تضغط على رأسى فاستيقظت مجفلا . ورأيت شخصا غير واضح المعالم يلبس ثوبا ابيض واقفا امامى ليتحسس جبهتى . " ان حرارتك مرتفعة حيث ان نوبة الانفلونزا ازدادت سوءا . لا داعى الى القلق . دعنى افحصك . "

كان رأسى يؤلمنى ، وصدغى ينبض بشدة ، وعندما تماسكت عرفت ما كان يجرى . لقد سمعنى السجان اهذى فى نومى ، وعندما لم يستطع ايقاظى استدعى طبيبا . فقاس الطبيب درجة حرارتى ، واعطتنى الممرضة

حقنة ، وعدت للنوم .

وبقيت مريضا مدة اسبوعين ، واخذت اتحسن تدريجيا تحت عناية الطبيب والممرضة . وقد امضيت معظم ذلك الوقت فى سريرى ، لا اقوم بالعمل ولا بالدراسة . وفكرت فى هذين الاسبوعين اكثر من سنواتى القليلة الماضية . تسلسلت افكارى من الصناديق الكرتونية الى الوجه المرعب للامبراطورة الارملة تسى شى كما رأيته وانا طفل .

ان ذكراها الغامضة لم تبد لى فى الماضى الا مخيفة ، اما الآن فاننى اكرهها . لماذا اختارتنى انا لأكون امبراطورا ؟ لقد كنت طفلا جاهلا وبريئا ، لا يقل موهبة فى اية ناحية عن بو جيه على اقل تقدير ، ولكن لأننى وقع على الاختيار لأصبح امبراطورا ، فقد عشت حياة محاصرة تماما . اننى لم اتعلم حتى اكثر المعارف العملية ضرورة ، فنتج من ذلك اننى لا اعرف الآن شيئا بل عاجز تماما . ان معرفتى ومهاراتى اقل مما لدى الطفل ناهيك عما لدى بو جيه . لقد سخر منى لاو شيان وامثاله وظلمونى ، ولو سمح لى بأن اعيش بمفردى ، لما عرفت كيف استمر فى العيش . أليست حالتى الراهنة هى بسبب غلطة الامبراطورة الارملة تسى شى والامراء ووزراء اسرة تشينغ ؟

كنت سابقا امتلئ غيظا وحقدا كلما انتقدنى احد او ضحك منى عدم مقدرتى كما كنت احقد على الحكومة الشعبية التى تحتجزنى . ولكننى الآن رأيت ان هذا خطأ منى . لقد كنت حقا مثيرا للضحك وعاجزا وجاهلا . لقد استأت فى السابق من عدم الاحترام الذى عاملنى به ابناء اشقائى ، ولكننى رأيت الآن انه ليس هناك سبب يلزمهم بأن يحترمونى . اننى لم استطع حتى ان اميز الكراث عندما اكلته ، واعترفت بالهة اجنبية على انها من اسلافى .

فما الذى كنت اتصف به بعد هذا كله من السمة السماوية ؟ لقد اخبرنى

لاو تشنغ المنغولى انه عندما تمرد والده بابوجاب فى السنوات الاولى من الجمهورية اقسمت الاسرة بكاملها ان تستعد للموت دعما لاعادة ملكيتى ؛ وان امه كانت تعبدنى كأننى لست اقل من اله . وقال ان من المؤسف جدا انها الآن ميتة ، والا "لاستطعت ان اخبرها بأن الامبراطور شيوان تونغ ليس الا قمامة" . هل استطيع ان الوم الناس على قول مثل هذا الكلام ؟

لقد لمت فقط الامبراطورة الارملة وبقية الامراء والوزراء ، وكرهت المدينة المحرمة كراهية جديدة . ورأيت انها عدو اشد خصومة من لاو شيان .

وعندما تحسنت حالى تقريبا ارسل مدير السجن فى طلبى . وبعد ان سألنى عن صحتى مضى يستجوبنى عن الشجار بينى وبين لاو شيان ؛ وسألنى ان كان هذا قد سبب لى صدمة . وبعد ان قدمت له وصفا موجزا للمسألة انتهيت الى القول :

– لقد صدمت صدمة شديدة فى ذلك الوقت ، ولكننى الآن لست غاضبا كثيرا . اننى لا اكره الا عدم كفاءتى وجميع الناس الذين كانوا فى القصر ببكين .

– شيء جيد ان تعترف بعيوبك ؛ فهذا يدل على تقدم . لا حاجة الى ان تبتئس بخصوص عدم كفاءتك ، فبوسعك ان تتغلب على ذلك اذا كنت راغبا فى التعلم . والشيء الاهم من ذلك انك ادركت مصدر عدم صلاحيتك . عليك ان تسأل نفسك لماذا انشأك اولئك الامراء وموظفو البلاط على هذا النحو .

– انهم كانوا مهتمين فقط بمصالحهم ، فلم يعتنوا بى ، بل بأنفسهم فقط .

فأجاب مدير السجن بابتسامة :

– اخشى ألا تكون مصيبا تماما . هل تستطيع ان تقول ان تشن باو

تشن ووالدك قد عملا ضدك قاصدين ؟ هل تعمدا محاولة ايذائك ؟

لم استطع الاجابة .

— يجب ان تعطى هذه المسألة اهتماما شديدا . اذا تمكنت من ايجاد الجواب فان مرضك سيكون نافعا .

وواصلت التفكير فى هذه المسألة بعد عودتى من مكتب مدير السجن ، واسترجعت حياتى الماضية مرات كثيرة قبل اجتماع النقد الذى اشتركت فيه بعد مرضى . وجعلنى اخفاقى فى العثور على جواب ازداد غضبا على غضب .

وفى اجتماع النقد هذا انتقد احدهم لاو شيان على ضغينته قائلا انه كان دائما يتعمد مهاجمتى . ومعظم الآخرين عبروا عن آراء مشابهة ، بل ان بعضهم حمل لاو شيان مسؤولية مرضى واشار الى انه كان قد ترك تأثيرا سيئا فى اعادة بناء انفسنا . فشحب وجه لاو شيان من شدة التوتر وقام بنقد ذاتى متلعثما . ولم اقل شيئا طوال الاجتماع مع اننى كنت التهب حقدا . وعندما اقترح احدهم ان اتكلم ازداد وجه لاو شيان شحوبا . فقلت بصوت خافت :

— ليس عندى ما اقوله . اننى لا اكره الا عدم صلاحيتى .

فدهش كل واحد فيهم ، وارتخى فك لاو شيان . وبدأت اصيح :

— اننى اكره القصر الذى نشأت فيه ، اكره النظام الشرير . ما الاقطاعية ؟ الاقطاعية تعنى تدمير الناس منذ طفولتهم .

واحسست بغصة فى حلقى فلم استطع المتابعة . واخذ الآخرون يتمتمون بشىء ما ، ولكننى لم استطع سماع ذلك الشىء .

وصول المحققين

مع نهاية عام ١٩٥٣ درسنا كتاب « حول الامبريالية » لمدة ثلاثة اشهر ،

وبعد ذلك عدنا الى فوشون فى آذار ١٩٥٤ . ولم يمض وقت طويل حتى وصلت مجموعة العمل التابعة لهيئة التحقيق ، وبدأت تستجوب السجناء .

واكتشفنا فيما بعد ان الحكومة قد قامت باستعدادات فى غاية الدقة لاستقصاء جرائم مجرمى الحرب من اليابانيين ومن " امبراطورية منشوريا " ، وقد جندت قوى كبيرة للقيام بهذه المهمة . ونقلت دفعة من مجرمى الحرب اليابانيين الى فوشون . وكان الحكومة قد بدأت فى جمع المواد منذ عدة سنوات ، وحشد مائتا محقق تقريبا تلقوا تدريبا فنيا وسياسيا خصوصيين .

وبدأ التحقيق مع مجرمى الحرب من " امبراطورية منشوريا " باجتماع كبير عقد فى نهاية مارس . وبقدرما كان يعينا نحن السجناء فان التحقيقات شملت ابلاغات عن جرائم الآخرين واعترافات بجرائمنا ، وقد انتهت فى نهاية ذلك العام .

واخبرنا رئيس مجموعة المحققين فى الاجتماع انه بعد دراستنا وفحصنا الذاتى خلال السنوات القليلة الماضية حان الوقت لأن نعترف بذنوبنا . ان الحكومة يتعين عليها ان تفحص جرائمنا ، واننا نلتزم بالادراك الصحيح لماضينا والاقرار بجرائمنا ، والابلاغ عن جرائم الامبرياليين اليابانيين وغيرهم من الخونة الصينيين . وعلينا ان نكون امناء سواء فى الاعتراف بجرائمنا او الابلاغ عن جرائم الآخرين ، فلا نبالغ ولا نقلل . والقرار الذى ستتخذه الحكومة اخيرا حول كيفية معاملتنا سيعتمد على جرائمنا وموقفنا ، وسياستها هى اللين مع من يعترف والشدة على من يرفض الاعتراف .

وفى الاجتماع اعلن مدير السجن بعض اللوائح الجديدة . فمنعنا من تبادل المعلومات فى قضايانا ومن ارسال المذكرات الى الزنزانات الاخرى ، وما الى ذلك . ومنذ ذلك اليوم بدأت كل مجموعة تخرج الى الرياضة بالتناوب ، وبذلك تعذر لقاء السجناء من الزنزانات المختلفة .

وبعد انتهاء هذا الاجتماع عادت كل مجموعة الى زنزانتها للنقاش :

وقال كل واحد انه سيقدم اعترافات كاملة وابلاغات تامة ، وانه اعتزم بالاعتراف بذنبه كي يحصل على معاملة لينة ؛ ولكن بعضنا ، مثل لاو شيان ، كان قلقا بخصوص ذلك .

وقد لاحظت تخوفه ، فتلاشى ايماني بسياسة اللين مرة اخرى وحلت محله الشكوك . اذا كان مدير مستشفى سابق عنده ما يدعو الى الخوف ، فمن المؤكد ان يكون عندى انا ، الامبراطور السابق ، المزيد من الاسباب التي تدعو الى الخوف .

ونظرا الى اننى قد اعترفت قبل ذلك بجرائمى الرئيسية فان قلقى الكبير قد انحصر فى كيفية اقناعى المحققين بأننى كنت صادقا . لذلك قررت ان اكتب تاريخ حياتى فى مزيد من التفصيل ، بينما اكتب كل ما عرفته من جرائم مجرمى الحرب اليابانيين . ووعدت نفسى بأن افعل هذا فى اجتماع مجموعتنا .

ولم يكن تنفيذ هذا الوعد سهلا . فلدى الكتابة عن نهاية فترة " امبراطورية منشوريا " وصلت الى اعلان الاتحاد السوفياتى الحرب على اليابان . لقد كنت مرعوبا من ان يشك اليابانيون فى ويركلونى جانبا فى تلك الازمة ، فعصرت ذهنى فى التوصل الى طريقة اكسب فيها ودهم . وفى الليل ، بعد سماعى الاعلان السوفياتى للحرب على اليابان ، ارسلت فى طلب تشانغ جينغ هوى وتاكيب (رئيس " مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة فى امبراطورية منشوريا ") بمبادرة منى . واعطيتهما " مرسوما " شفويا آمرهما فيه بالتعبئة بسرعة والقيام بكل شىء ممكن لدعم اليابان ضد هجومات الجيش الاحمر السوفياتى . ماذا سأقول بخصوص ذلك الآن ؟ كنت مضطرا الى ذكر ذلك بسبب وجود امكانية معرفة الناس الآخرين لهذا المرسوم ؛ ولكن اذا ذكرته ، أ فلا يجعل هذا التصرف الوحيد الذى اتخذته دون تحريض من اليابانيين ، أفلا يجعل المحققين يشكون فى اننى لم اكن اذن تحت سيطرة يوشيوكا

تماما ؟ واذا هم شكوا فى هذا الامر فان سيرة حياتى كلها ستصبح لاغية .
وقررت ان لا اقول الكثير حول هذه المسألة . ولن يضيرنى ان اكون كتوما بعض الشيء حول بعض الاشياء السيئة التى قمت بها . ووضعت اللوم بخصوص هذا المرسوم على يوشيوكا ، ثم دونت الاعتراف مرة اخرى ذاكرا بمزيد من التفصيل الاشياء التى تجرأت على ذكرها ، وكتبت الابلاغ بكل ما استطعت كتابته عن جرائم الآخرين . وسلمت هذا كله وانتظرت امر المحققين للمثول امام القضاء .

وتساءلت كيف سيكون الاستجواب . هل سيكون المستنطق كأى مخلوق عادى او مثل وحش ؟ هل سيستخدم معى التعذيب كما كنت اعذب الخدم والخصيان المذنبين فى المدينة المحرمة وفى تشانغتشون ؟ وايقنت انه سيكون قاسيا . وكنت خائفا من التعذيب ، حتى ولو صفعة على الوجه ، اكثر من خوفى من ان اموت . لقد بقيت فى سجن شيوعى مدة ثلاث سنوات ، فلم ار الناس يضربون او يشتمون بل كانوا يعاملون بالاحترام اللائق بهم بوصفهم بشرا . وهذا كان كافيا لأن يرينى ان مخاوفى السابقة لم يكن لها اساس ، الا اننى اقتنعت بأن المستجوب لا بد ان يكون متشككا ويستخدم العنف مع من يستجوبه .

وامضيت عشرة ايام قلقة اعانى من وساوس كهذه . ثم جاءت اللحظة المخيفة عندما طلب منى سجان ان اذهب لرؤية المحققين .

واخذت الى غرفة مساحتها عشرة امتار مربعة تقريبا . كان فى وسطها مكتب كبير وامامه طاولة صغيرة عليها طاسات الشاى وابريق شاى ومنفضة سجائر . وخلف المكتب جلس رجلان ، احدهما كهل والآخر شاب . واشارا الى بالجلوس على كرسى بجانب الطاولة . فسألنى الرجل الاكبر سنا منهما عن اسمى وعمرى ومسقط رأسى والعرق الذى انتمى اليه ، ومضى قلم الشاب يحك قطعة من الورق فيما كان يسجل اجوبتى . وقال الكهل :

ـ لقد قرأنا اعترافك ، ونود ان نجرى معك حديثا . يمكنك ان تدخن .

وسألنى عن عدد من الاشياء بدءا من طفولتى الى الوقت الذى قبض على فيه . وهز رأسه وانا اجيب كأنما كان راضيا بجوابى :

ـ حسن جدا ، سنترك ذلك الآن . وقد يكون لدى المستنطق تشاو بعض الاسئلة الاخرى ليسألك اياها فيما بعد .

وانهى جو الاستجواب الذى جاء مباغتة تامة قلقى بخصوص التعذيب .

واصبت بشىء من خيبة الامل لدى استجوابى التالى عندما لم اجد فى الغرفة الا تشاو . وتساءلت وانا اجلس امام هذا المستنطق الشاب ان كان كفوءا هو الآخر . وهل سيكون قادرا على تفهم اننى قلت الحقيقة ؟ هل سيكون له الطبع النزق الذى يكون لدى الشباب ؟ وكلام من سيصدق اذا كتب الآخرون عنى تقارير كاذبة ؟

وقال مقاطعا سلسلة افكارى :

ـ هناك سؤال اود ان اسألك اياه :

لقد اراد ان يعرف عن الاجراءات الخاصة باصدار الاوامر والمراسيم الامبراطورية فى " امبراطورية منشوريا " ، فأجبته بصدق . وعندما ذكر لى احد الاوامر ، سألنى عن الوقت التى رأيته فيه قبل اعلانه . ولم اكن متأكدا فأجبت :

ـ ربما قبل يوم او يومين ، ولكن قد يكون قبل ثلاثة او حتى اربعة .

ـ لا داعى لأن تعطى جوابا فى الحال . يمكنك ان تخبرنى عندما تتذكر . دعنا ننتقل الى سؤال آخر الآن .

ولم استطع ايجاد جواب على السؤال الآخر ايضا . وارتبكت وتساءلت ان كان المستنطق سيظن اننى اتعمد اخفاء شىء ويخرج عن طوره . ولكنه قال بدلا من ذلك : " لندع هذا السؤال جانبا ايضا . يمكنك ان تخبرنى عندما تتذكر . " ثم اضطررت الى الاذعان لذلك الشاب فى النهاية .

ففي احدى الجلسات ــ لا اذكر ايها ــ اخرج بعض المواد التي كنت قد كتبتها و وضعها امامي وسألني :

ــ لقد كتبت هنا ان الغزاة اليابانيين اخذوا ستة عشر مليون طن من الحبوب من الشمال الشرقي في سنة واحدة ، تنفيذا لخطة وضعها فورومي تادايوكي ، مجرم الحرب الذى كان نائبا لرئيس "مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة في امبراطورية منشوريا" . فهذا غامض جدا . اية سنة كانت تلك ؟ كيف تعرف رقم ستة عشر مليون طن ؟ ارجو ان تعطيني مزيدا من التفاصيل .

كنت في الواقع قد سمعت مصادفة اثنين من الوزراء العملاء السابقين في زنزانتي يتحدثان عن ذلك ، ولكن لم استطع الاعتراف بهذا ، لذلك قلت ان اليابانيين قد سلبوا من الشمال الشرقي جميع ثرواته ، واخذوا جميع الحبوب التي كانت مزروعة . فقاطعني المستنطق ثانية عند هذه النقطة :

ــ هل تعرف الانتاج السنوى للحبوب في الشمال الشرقي ؟

فلم استطع الاجابة بشيء .

ــ على اى اساس بنيت افادتك فيما كتبت ؟

ورأيت انني لا استطيع ان اجد لنفسي مخرجا من هذا الوضع ، فاعترفت ان مستندى الوحيد كان القيل والقال .

ــ اذن أ انت تصدق ما كتبت ام لا ؟

ــ انني . . . انني لا ادرى .

فنظر الى المستنطق وقد جحظت عيناه ، وقال :

ــ حتى انت لا تصدق ذلك . اذن لماذا كتبته ؟

ولم اعرف ماذا اقول . واغلق قلمه ورتب « حولية امبراطورية منشوريا » و« تقرير الحكومة » السميكين على مكتبه . وبدا واضحا انه لا يريد اى جواب آخر مني ، واقفل الاستجواب قائلا :

ــ سواء كنت تشير الى نفسك او الى الآخرين عايك ان تتشبث دائما بالحقائق .

فنظرت اليه فى صمت ، معترفا لنفسى بحقيقة ما قال ، اذ خفت من ان يكذب الآخرون او يبالغوا فيما يقولونه عنى . وخرجت من الغرفة اتساءل ان كان جميع المحققين واعين مثل هذا الشاب . ماذا سيحدث لو ان شخصا غير كفوء قرأ عنى بعض الاشياء الكاذبة ؟

وسرعان ما حصلت على اجابة عن هذا السؤال عندما اخبرنا لاو يوان عن تجربته . لقد سجل رقما استنتجه لمقدار الحديد والفولاذ الذى اخذه اليابانيون من الشمال الشرقى . فلم يصدق المستنطق هذا الرقم واعطاه قلم رصاص ، وطلب منه ان يحسب كم من الخامات يلزم لانتاج هذا المقدار من الحديد والفولاذ ، وكم من الخامات كان يستخرج فعلا فى الشمال الشرقى كل سنة . وانتهى لاو يوان الى اخبارنا بأن المستنطق كانت لديه اضبارات للموارد الطبيعية فى الشمال الشرقى .

وفهمت الآن لماذا كان لدى المستنطق تشاو كل هذه الكتب الارشادية على مكتبه . وللتحقق من جميع الادلة المكتوبة امضى مئات المحققين اكثر من سنة يطوفون فى كافة انحاء البلاد ويقرأون الاضبارات بأعدادها الكبيرة والموزونة بالطن كما اكتشفت عندما وقعت على الاستنتاجات العامة التى كتبها عنى المحققون .

وسبب اصطدامى بهذا المحقق الشاب هو انه كان واعيا جدا فى بحثه عن الحقائق ، واننى كنت اخشى بغباء ان يظن اننى لست امينا . لذلك اسرعت فى كتابة نقد ذاتي وارسلته اليه . ومن ثم شعرت ان الوضع ليس بالغ الخطورة .

معاناة وحقد الشعب فى الشمال الشرقى

لم اعرف ابدا ولم اهتم بمعرفة الكوارث التى انزلها اليابانيون بشعب الشمال الشرقى ، ولم افكر قط فى ان يكون لهذه الكوارث ما يعنيه بخصوصى . ولكن عندما حضرت اجتماع دراسة حول جرائم مجرمى الحرب اليابانيين فى الشمال الشرقى ادركت مدى خطورة هذه الجرائم . لقد ترك هذا الاجتماع الذى اشترك فيه مجرمو الحرب اليابانيون انطباعا عميقا جدا فى نفسى . وكانت اكثر الشهادات باعثا على الذهول اعترافات فورومى تادايوكى ، نائب رئيس " مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة فى امبراطورية منشوريا " ، واعترافات قائد درك سابق فيها .

كان فورومى مفضلا لدى الجيش اليابانى ، وواحدا من حكام " امبراطورية منشوريا " الحقيقيين . وقد خطط هو ورئيسه تاكيب روكوزو ، عملا بأوامر جيش قواندونغ ، ونفذا حكم الشمال الشرقى وسلبه . وقد تكلم بمزيد من التفصيل عن سياسة انتزاع الاراضى بالقوة من الفلاحين فى الشمال الشرقى لتوطين المهاجرين اليابانيين ؛ وعن " الخطة الخمسية لتطوير الانتاج" التى وضعت لسلب الموارد الطبيعية فى الشمال الشرقى ؛ وعن استخدام الافيون لتسميم الشعب ؛ وعن سياسات اخرى كثيرة ، بما فى ذلك انتزاع كل ما لدى الاهالى من الحبوب والمنتجات الاخرى كجزء من الاستعدادات لحرب الباسيفيك . كما تحدث عن بعض عواقب هذه السياسات ، وكان كل مثال ذكره نموذجا للوحشية . ففى عام ١٩٤٤ ، مثلا ، جند اكثر من خمسة عشر الف عامل من الشمال الشرقى كله تجنيدا الزاميا من اجل البناء العسكرى بوانغيمياو فى جبال شينغآن . وكانت الظروف التى اجبروا على العمل خلالها سيئة للغاية بحيث مات منهم اكثر من ستة آلاف عامل .

وكان لدى فورومى ايضا الكثير مما يمكن قوله عن سياسة الافيون

اليابانية . لقد بدئ بهذه السياسة فى اوائل عام ١٩٣٣ عندما اصبح الجيش الياباني يشكو من نقص فى الاعتمادات المالية قبل غزوه رخه . ونظرا الى انه لم يسيطر على انتاج الافيون فى الشمال الشرقى فى ذلك الحين ، فقد استورد اكثر من مليونى آونس من الافيون الاجنبى وبعثر المنشورات بالطائرة فى كافة انحاء رخه لتشجيع زراعة خشخاش الافيون . وحوالى عام ١٩٣٦ وسع الجيش اليابانى الى حد كبير المساحة الخاضعة لزراعة الافيون فى " امبراطورية منشوريا " ، وفعل كل ما فى وسعه لتوسيع الانتاج ، وفيما بعد اعطى لنفسه الحق القانونى فى احتكار بيع الافيون . واسس اليابانيون " جمعيات لمنع تدخين الافيون " فى كل مكان ، واقاموا صالات للتدخين زودوها بـ " مضيفات " ، وبذلوا جهودا كبيرة لنشر الادمان بين الشباب . وفى عام ١٩٤٢ عقد " مجلس انعاش آسيا " " مؤتمرا حول احتياجات الافيون وانتاجه فى الصين " ، اتخذ قرارا ينص على ان " تغطى امبراطورية منشوريا ومناطق حدود منغوليا متطلبات الافيون لمنطقة الازدهار المشترك فى شرقى آسيا العظمى " ؛ وبعد ذلك زادت المساحة الخاضعة لزراعة الافيون فى الشمال الشرقى الى ٣ آلاف هكتار . ووفقا لحسابات فورومى فان " امبراطورية منشوريا " قد انتجت اكثر من ٣٠٠ مليون آونس من الافيون قبل انهيارها . بلغت ارباحها فى عام ١٩٣٨ سدس الدخل الاجمالى للحكومة العميلة ؛ وفى عام ١٩٤٤ وصل الى ٣٠٠ مليون يوان ، اكثر بمائة مرة عما كان عليه فى بداية " امبراطورية منشوريا " ، وبذلك تزودت اليابان بمصدر من اهم مصادر التمويل لحربها العدوانية . وكان فى رخه وحدها ما يقارب من ٣٠٠ الف مدمن افيون ، وفى الشمال الشرقى عامة وصل معدل مدخنى الافيون الى واحد من كل عشرين نسمة .

وشهد ضابط درك بأن رجال الدرك غالبا ما كانوا يقومون بمذابح جماعية ، ويحشدون الناس بعدها لرؤية الجثث . فكانوا احيانا يقبضون على عدد من

الناس يعتبرونهم مريبين ، فيصفونهم صفا واحدا ويختارون واحدا منهم عشوائيا ، ثم يشقونه بسيف امام الجميع . ولقد قتل بنفسه اكثر من ثلاثين ضحية بهذه الطريقة . وكان المقبوض عليهم يخضعون لشتى الوان التعذيب : فكانوا يضربون ؛ ويصب فى انوفهم الماء البارد وماء الفلفل الحارق والكيروسين ؛ وكانوا يحرقون بأعواد البخور او بالمساعر المحماة حتى الاحمرار ؛ وكانوا يعلقون بالمقلوب . . .

والى جانب ما عاناه اهالى الشمال الشرقى على ايدى الغزاة اليابانيين مباشرة ، ليس من الصعب اظهار الحقائق والارقام بخصوص ما تعرضوا له من تعذيب على ايدى الحكومة العميلة والخونة الصينيين . فقد سلبت منهم عمليا من خلال الاوامر وسياسات الحبوب المتعددة ، ومن خلال نظام تزويد اليابان بالحبوب ، جميع الغلال التى كانوا ينتجونها كل سنة ، وفى نهاية فترة "امبراطورية منشوريا" استطاعوا فقط ان يحافظوا على انفسهم احياء بواسطة اكلهم " الدقيق المركب " الذى يتكون من قشرة الذرة وحثالة فول الصويا بعد استخراج الزيت منه ودقيق البلوط . وكانت الحبوب التى تؤخذ منهم تحفظ للاستخدام العسكرى او ترسل الى اليابان . وقد ارتفع المقدار الذى يرسل الى اليابان سنويا الى ٣ ملايين طن عام ١٩٤٤ ؛ وبلغ مجموع ما ارسل فى السنوات الست الاخيرة من فترة " امبراطورية منشوريا " الى اكثر من ١١ر١٠٠ر٠٠٠ طن .

ونتيجة للقوانين التى كانت تحكم الحبوب والاقمشة القطنية والمعادن وغير ذلك من السلع وجد الاهالى انفسهم يتحولون الى " مجرمين اقتصاديين " . فكان الناس العاديون مثلا ممنوعين من اكل الارز ، ويمكن ان يعاقبوا بوصفهم " مجرمين اقتصاديين " اذا اكتشفت بقايا ارز فى قيئهم . وفى عام ١٩٤٤ — ١٩٤٥ وحده عوقب ٣١٧ر١٠٠ مواطن بصفة " مجرمين اقتصاديين " .

وعلاوة على الحبوب ، فقد الفلاحون اراضيهم . ففى السنتين الاخيرتين

من فترة " امبراطورية منشوريا " انتقل ٣٩٠ الف مهاجر يابانى الى الشمال الشرقى ، فأخذت الحكومة العميلة ٣٦٫٥٠٠٫٠٠٠ هكتار من الارض من اهالى الشمال الشرقى لتقديمها لهؤلاء المهاجرين .

وعندما اراد اليابانيون سلب الموارد الطبيعية من الشمال الشرقى وتحويلها الى قاعدتهم الاقتصادية ، استخدموا الحكومة العميلة لاستعباد اهالى الشمال الشرقى من خلال شتى الحيل الماكرة . وبعد ان صدر باسمى " قانون ضبط العمل " عام ١٩٣٨ كان يساق سنويا ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ رجل (باستثناء اولئك الذين جندوا جنوب السور العظيم) للعمل بالسخرة . ومعظمهم عملوا فى التعدين والبناء العسكرى ، وقد ماتوا بأعداد كبيرة بسبب الظروف المخيفة التى اشتغلوا فيها . وفى مشروع واحد هو " مشروع منع الفيضان " فى مدينة لياويانغ سنة ١٩٤٤ مات ١٧٠ عامل شاب من اصل ٢٠٠٠ عامل سيقوا للسخرة هناك .

وكان جميع الفلاحين والعمال العاديين والطلبة والشباب غير الصالحين للخدمة العسكرية مضطرين الى الاشتراك فى هذا العمل الاستعبادى الذى كان يدعى رسميا " العمل الطوعى " .

والذين عانوا اسوأ المعاناة هم نزلاء " الاصلاحيات " . ففى نهاية عهد " امبراطورية منشوريا " وصلت وحشية الحكم اليابانى الى حد الجنون . فأعلن " قانون تقويم الفكر " و" قانون الامن والتقويم " عام ١٩٤٣ فى محاولة لحل مسألة النقص فى اليد العاملة وكبح تزايد مقاومة الشعب ، واقيمت معسكرات الاعتقال فى كافة انحاء الشمال الشرقى تحت اسم " الاصلاحيات ". وقد القى فى هذه الاصلاحيات حشود من المملقين بتهمة التشرد ، وكذلك من الساخطين بتهمة " الافكار السيئة " واجبروا على القيام بالاعمال الشاقة . وكانت السلطات احيانا توقف المارة وتصنفهم كـ " متشردين " دون ان تزعج نفسها بمجرد سؤالهم ، ومن ثم تلقى بهم الى احدى " الاصلاحيات " التى

لا يخرجون منها بعد ذلك ابدا :

والنزلاء الذين ظلوا احياء بعد انهيار " امبراطورية منشوريا " يخبرون الحكومة الشعبية الآن بكل مرارة وحقد عما فعله الحكام العملاء بهم . لقد قبض على فلاح من مدينة خقانغ عام ١٩٤٤ واخذ الى المقر الرئيسى للشرطة بتهمة قيامه بنشاطات معادية لامبراطورية منشوريا واليابانيين . وكان معه هناك سبعة عشر شخصا آخرون وبعد ان ضربوا ضربا عنيفا اخذوا الى اصلاحية خقانغ واجبروا على العمل فى استخراج الفحم من مناجم دونغشان . وكانوا ملزمين بالعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا ، لا يعطون خلالها الا كتلة صغيرة من الذرة الرفيعة فى كل وجبة ، ولا يعطون ملابس او افرشة ، وكانوا يضربون بمنتهى الوحشية . قال هذا الفلاح :

سمعت امى اننى فى الاصلاحية ، فجاءت الى المكان الذى كنت اعمل فيه لترانى عبر السلك الشائك . وعندما رآها الشرطة قبضوا عليها من شعرها وظلوا يركلونها الى ان تكومت على الارض ولم تقدر على النهوض . وبعد ذلك ضربونى بالمجارف حتى اثخنونى بالجروح وغبت عن الوعى سبعة ايام . وذات مرة ، احتجنا الى خضار نأكله مع وجباتنا فاشترى سجين يدعى سونغ كاى تونغ بعض البصل من احد المارة ببعض النقود منى . فرآه رئيس القسم الخائن وانغ ، فاستدعانا كلينا ، واخذ منى خمس يوانات وامر بضربى ضربا مبرحا بحيث نزفت دما من فمى وانفى . ثم امرنى بالدخول فى كيس ودفعنى فيه بالضرب على رأسي عندما رفضت ، ولما اصبحت داخل الكيس رفعوا الكيس واسقطوه ثلاث مرات ، وفى المرة الثالثة فقدت الوعى . وكان الناس هناك يموتون يوميا ، وكل ثلاثة او اربعة ايام يتم اخراج سبع او ثمانى جثث . ومات تسعة من السبعة عشر رجلا الذين قبض عليهم معى . وقد اصبت انا بالسل ، وما زلت غير قادر على العمل . واصيبت امى بالجنون ، واضطر اشقائى الثلاثة ، واكبرهم لم يتجاوز الحادية عشرة من العمر ، الى التسول لسد رمقهم .

ان القمع الذى كان الشعب يتعرض له فى الشمال الشرقى على يد الجيش والشرطة والمحاكم والسجون فى " امبراطورية منشوريا " ينطوى على فظائع دموية لا يحصى عددها . ولقد شهد الفلاح هوانغ يونغ هونغ البالغ من العمر واحدا وستين عاما والذى القى القبض عليه لأنه بعث برسالة الى الجيش المتحالف ضد اليابانيين ، شهد جريمة مذبحة جماعية وصفها كالتالى :

فى اليوم السادس والعشرين من الشهر الثانى وفقا للتقويم القمرى (الصينى) اخذت الشرطة العميلة اكثر من ثلاثين سجينا منا ليذهبوا ويحفروا حفرة خارج بوابة تشاويوان الغربية . وعدنا الى السجن بعد حلول الظلام . وفى اليوم السابع والعشرين اخذت انا ووانغ يا مين وقاو شو سان وليو تشنغ فا فى مجموعة واحدة واخذ عشرون آخرون فى مجموعة اخرى الى خارج البوابة الغربية ، حيث اطلق الرصاص على مجموعة العشرين كلها . ثم جاءوا بدفعة اخرى من اثنين وعشرين رجلا ورموهم بالرصاص ايضا . وبعد رميهم صب رجال الشرطة البنزين على جثثهم واشعلوا فيها النار ، وكان احدهم حيا ، وعندما ادركته النار حاول ان يهرب ولكن الشرطة اطلقوا عليه النار وقتلوه . وعندما احترقت هذه الجثث طلبوا منا ان ندفنها . وما يزال القبر هناك خارج بوابة تشاويوان الغربية ، وبوسعى ان اجد المكان ثانية .

هذا الجحيم الارضى كان يدعى " الفردوس على الطريقة الملكية " الذى حكمت فيه بصفة " رئيس تنفيذى " ثم بصفة " الامبراطور كانغ ده " . وجميع هذه الاعمال الوحشية قد نفذت باسمى . فلا عجب فى ان تنتهى جميع شهادات ضحايا نظام " امبراطورية منشوريا " بالعبارات التالية :

" اننى اطالب الحكومة الشعبية بأن تنتقم لنا . اننا نريد من اليابانيين والخونة الصينيين ان يدفعوا ما فى اعناقهم من دين الدم . "

" انتقموا لعوائلنا التى قتلت . عاقبوا اليابانيين والخونة . "

" انك لا تستطيع ابدا ان تنجو من عواقب خطاياك "

كانت المشكلة اكثر خطورة من ذلك :

لقد اثارتنا نحن مجرمى الحرب " المانشويين " الاعترافات والافشاءات التى ادلى بها مجرمو الحرب اليابانيون واتهامات ابناء الشعب فى الشمال الشرقى . وكانت ردة الفعل بين الشباب منا قوية ، ولقد كشفنى ابناء اشقائى وزوجا شقيقتى ولى الكبير . ووجدت نفسى محاطا بالكراهية حتى داخل اسرتى . فقد كنت كأننى اقف ضمن دائرة من المرايا ، فأينما نظرت رأيت صورتى الكريهة .

بعد حضورنا اجتماع الدراسة الخاص بمجرمى الحرب اليابانيين جمعنا وطلب منا ان نتحدث عن ذلك . وكان بعضنا ما يزال شديد الاثارة بحيث اقسم ان يعترف بجرائمه ويبلغ عن جرائم الآخرين . وكان الهدف الرئيسى للاتهامات تشانغ هوان شيانغ ، وزير العدل العميل الذى ذهب الى ابعد الحدود فى كسب الحظوة لنفسه لدى اليابانيين واصبح الآن غير مرغوب فيه حتى فى السجن تماما لأنه يتعمد اتلاف الطعام ، ويخرق لوائح السجن ، ويصرخ فى وجه السجانين وما الى ذلك . وقد حذره بعضنا من انه اذا لم يتصرف على نحو لائق فى المستقبل فان الحكومة لا يمكن ان تصفح عنه . ونظرا الى اننى خشيت من ان اعامل بهذه الطريقة ، فقد كنت قلقا اخاف ان يظن الآخرون اننى لا اتصرف على النحو اللائق . ولما لم يكن مسموحا لنا فى ذلك الوقت ان نخبر بعضنا بعضا عن اى شيء من الاعترافات التى ادلينا بها والمعلومات التى قدمناها ، فقد خفت ألا يعرف الآخرون اننى قد اعترفت ، لذلك قررت ان اتكلم فى الاجتماع . وعندما اخبرتهم فى الاجتماع بكل شيء اعترفت به ووصلت الى نهاية حديثى ، وثب قو الصغير على قدميه وسألنى :

— لقد قلت الكثير ، أليس كذلك ؟ ولكن لماذا لم تذكر تلك المذكرة ؟

فبقيت كالابكم لحظة من الوقت . ثم نهض شيو الصغير ايضا وقال :

– المذكرة ، مذكرة روى الصغير . لقد قلت الآن انك سلمت تلك المجوهرات بمبادرة منك . لماذا لم تقل ان روى الصغير قد حثك على ذلك ؟

فسارعت الى سد هذه الثغرة فى قصتى قائلا :

– اجل ، اجل ، كنت سأذكر ذلك . لقد كان روى الصغير هو الذى نورنى . . .

ولكن النظرات المحملقة الى من شيو الصغير وقو الصغير دلت بكل وضوح على انهما غير راضيين بهذا . ومن حسن الحظ ان الاجتماع كان قد انتهى حينذاك .

وعندما عدت الى زنزانتى كتبت نقدا ذاتيا وسلمته الى مسؤول السجن . لقد ايقنت ان مدير السجن سيغضب منى ، واستأت اشد الاستياء من روى الصغير لاخبار الآخرين بأمر المذكرة . كان قو الصغير وشيو الصغير ، عضوى اسرتى ، قاسيين حقا بتصرفهما هذا ازائى . انهما لم يكونا وفيين لى حتى مثل لى الكبير . وقد رأيت بعد وقت غير طويل التقارير التى كتباها عنى وايقنت عندها ان التغيير الذى حدث داخل اسرتى كان اكثر اخافة مما تخيلت .

كان هناك نظام ينص على ان يقرأ كل سجين التقرير الذى يتضمن اتهامات ضده ، فأحضر لى المستنطق تشاو رزمة من التقارير عنى ، وقال : " عندما تنتهى من قراءتها وقع على التى توافق عليها . واذا كنت لا توافق ، فقدم اعتراضاتك . "

وكانت التقارير الاولى التى رأيتها موجهة من بعض الوزراء العملاء السابقين ، ربما انها كانت لا تشير الا الى وقائع معروفة ، وقعت عليها كلها . ولكن عندما بدأت اقرأ التقارير التى كتبها افراد اسرتى سرعان ما تعرقت راحة يدى .

وتضمن تقرير زوج شقيقتى لاو وان ، مقطعا يقول :

فى مساء ٩ اغسطس ١٩٤٥ ذهبت الى القصر لأرى بو يى . فوجدته يكتب شيئا ، وتشانغ جينغ هوى وتاكيب ينتظران خارج غرفته لمقابلته . واطلعنى بو يى على ما كتب ، وكان المضمون العام هو ان على جميع قوات " امبراطورية منشوريا " المسلحة ان تقاتل الى جانب الجيش اليابانى الامبراطورى وتحطم العدو الغازى (الجيش الاحمر السوفياتى) . وقال انه سيسلم هذا الامر الى تشانغ جينغ هوى وتاكيب ، واراد ان يعرف ان كان لدى اى اقتراح اقوله . فقلت ليس هناك من بديل .

وكانت هذه كارثة ، اذ اننى وضعت اللوم فى ذلك على يوشيوكا .

وكانت شهادة لى الكبير اكثر ارعابا . فقد وصف رحيلى من تيانجين ، وذكر كيف اتفقت معه على التشبث بالقصة القديمة قبل ان اكتب سيرتى الذاتية . ولم يكن هذا كل ما فى الامر . فقد كشف ساوكى اليومى بقدر كبير من التفصيل ، مبينا كيف تصرفت مع اليابانيين وكيف عاملت افراد اسرتى . ولو كانت هناك حالة او حالتان من هذا النوع لهان الامر ، ولكن هناك قائمة هائلة من الاتهامات .

فقد كتب لاو وان مثلا :

عندما كانت تعرض افلام فى القصر كنا ملزمين بالوقوف اذا ظهر الامبراطور اليابانى على الشاشة ، وبالتصفيق للجنود اليابانيين اذا شنوا هجوما . وذلك لأن الذين يشغلون الفيلم كانوا يابانيين .

وكانت هناك حملة للاقتصاد فى الفحم عام ١٩٤٤ ، فأصدر بو يى اوامر بألا تشعل المواقد بعد ذلك فى جيشيلو (مبنى فى القصر) لارضاء يوشيوكا ، ولكنه استخدم فى غرفته موقدا كهربائيا دون علم يوشيوكا .

وعندما هرب بو يى الى داليتسيقو وضع الالهة اليابانية وصورة ام هيروهيتو فى عربته فى القطار ، وكان يقوم بانحناءة مقدارها تسعون درجة كلما مر بالصورة وامرنا ان نفعل مثله .

وتضمن تقرير روى الصغير مقطعا حول الايتام الذين استخدمتهم غلمانا وكشف عن المعاملة السيئة التى عوملوا بها والعقوبة القاسية الجائرة التى كنت انزلها بهم فى غالب الاحيان . كما بلغ عن موت الغلام الذى حاول النجاة .

وصيغة الاتهامات التى وجهها ضدى لى الكبير لم تترك شيئا خفيا من احقاده :

لقد كان هذا الشخص ، بو يى ، قاسيا وخائفا من الموت ، ومتشككا للغاية ؛ وكان كذلك شديد المكر كثير النفاق . وكانت معاملته لخدمه لا انسانية : يشتمهم ويضربهم لأتفه سبب . واذا شعر بالتعب او الضجر فان على الخدم ان يتحملوا مغبة ذلك ، وكانوا محظوظين اذا ما تعرضوا فقط للصفع والركل . ولكن عندما يكون مع غرباء فانه يتصرف كأنما هو ألطف انسان على وجه الارض .

وكانت عادته فى تيانجين ان يأمر بضرب الناس بعصى خشبية او بكرابيج الخيل . وفى عهد " امبراطورية منشوريا " اضيفت اشكال جديدة اخرى من التعذيب . . .

وجعل كل واحد يتصرف كأنه شريكه . فكان اذا اراد ان يضرب شخصا ما ، فهو يشك فى كل من يرفض ان يقوم بالضرب تنفيذا لأمره او لا يضرب بقسوة كافية بأنه متواطىء مع المذنب . واذا ما حدث ذلك فان الذى كان من المفروض ان يتولى الضرب يضرب هو الآخر وعلى نحو اقسى عدة اضعاف . وكان جميع ابناء اشقائه واتباعه يجلدون له الناس ما بين حين وآخر . وضرب احد الغلمان ، واسمه تشو بوه رن (يتيم) فى الثانية عشرة او الثالثة عشرة من عمره ، ذات مرة بوحشية بالغة بحيث اصيب بجروح بطول قدم فى فخذيه ، استغرقت شهرين او ثلاثة اشهر الى ان التأمت تحت اشراف الطبيب هوانغ . وفيما كان هذا الصبى يتحسن طلب منى بو يى ان آخذ له لبنا واشياء اخرى واقول له : " ما الطف صاحب الجلالة معك ! هل كنت تحصل على اشياء طيبة كهذه وانت فى الميتم ؟ "

ولدى قراءتى هذا الاتهام الأخير بدأت اشك فى التبرير الذاتى الذى كنت الجأ اليه فى الماضى . لقد ظننت فى السابق ان كل شيء فعلته قد تم تبريره. فأنا لم اكن ازيد عن خضوعى لضغط اليابانيين فنفذت اوامرهم ، لأننى كنت مجبرا على ذلك ؛ اما معاملتى لأهل بيتى ، وتعذيبهم ، فكنت دائما ما ابدو فيه محقا . اما ان اتذلل للقوى واتنمر على الضعيف فهذا كان امرا طبيعيا ومعقولا بالنسبة لى ، وقد تخيلت ان كل واحد فى موضعى سيتصرف نفس الشيء . ولكننى الآن ادركت ان هذا ليس هو الوضع الطبيعى للناس ، وان تبريرى الذاتى باطل تماما .

ليس هناك ، برغم كل شيء ، اضعف من السجناء الذين يجردون من جميع حقوقهم ، ولكن الشيوعيين الذين اخذوا بزمام السلطة لم يضربوهم او يشتموهم ، كما انهم لم يعتبروهم اقل شأنا من البشر . اما القوة ، فان الجيوش الامريكية بمعداتها من الدرجة الاولى يمكن اعتبارها " قوية " ، ولكن القوات الشيوعية لم تخف منها على الرغم من رداءة معداتها ، بل تجرأت على مقاتلتها مدة ثلاث سنوات الى ان اجبرتها على توقيع هدنة .

ولقد رأيت مؤخرا المزيد من الامثلة الجديدة . فمن الاتهامات الجماهيرية علمت ان كثيرا من ابناء الشعب العاديين لم يتبعوا عقيدتى ازاء العنف والاضطهاد . فكان هناك فلاح من محافظة بايان يدعى لى ديان قوى عانى من اضطهاد اليابانيين والخونة الصينيين كل المعاناة . وقد عاق آماله فى الخلاص على الجيش المتحالف ضد اليابانيين . ففى عيد رأس السنة الصينية عام ١٩٤١ ارسل الى المقاتلين المعادين لليابانيين دو واحد (١٥) من الدخن و٤٧ كعكة مفتولة مقلية و١٢٠ بيضة وعلبتين من السجاير . وفيما بعد اكتشفت الشرطة العميلة ذلك فألقت عليه القبض . فعلق وجلد ، ثم اعطى صدمات كهربائية . ووضعت بجانبه الجثث النازفة ، جثث الذين ماتوا تحت التعذيب ، لاخافته ، وكان ذلك لاجباره على كشف بعض الاسرار الهامة المتعلقة بالقوات المعادية

لليابانيين : واستمر تعذيبه الى ان حرر بعد استسلام اليابانيين ؟

وفى عام ١٩٤٣ ، اخذ لى ينغ هوا من قرية جينشان ، وكان ما يزال طفلا ، بعض البيض الى المقاتلين ضد اليابان ، وعندما اكتشف جواسيس الشرطة ذلك اخذ الى المقر الرئيسى للشرطة . وفى البداية قدموا له الشاى والسجاير ودعوه لأكل جياو تسى قائلين : " انك مجرد طفل ولا تدرك الامور ، لذلك اذا تكلمت فاننا سنتركك تذهب . " ودخن لى ينغ هوا السجاير ، وشرب الشاى ، واكل جياو تسى . وفى النهاية قال : " انني مجرد مزارع ولا اعرف شيئا . " فعلقه العملاء رأسا على عقب وضربوه ، واعطوه صدمات كهربائية ، واحدثوا فى جسمه حروقا ، وعروه من ثيابه ليضربوه بهراوات شائكة ، ولكنهم لم ينتزعوا منه اية معلومات .

لقد عرفت الآن انه ليس جميع الناس على هذه الارض ضعفاء . وكان التفسير الوحيد لتصرفاتى فى الماضى هوأننى تنمرت على الضعيف وخفت من القوى ، واننى خفت من الموت وطمعت فى الحياة . وتسويغى الاساسى هو ان حياتى كانت فى نظرى اكثر من غيرها قيمة واننى كنت جديرا بأن اصان اكثر من اى شخص آخر . لقد تعلمت فى السنوات القليلة الماضية شيئا من قيمى الحقيقية من محاولاتى غسل ملابسى وصنع الصناديق ، واصبح لدى الآن عن ذلك فكرة اكثر وضوحا من خلال اتهامات ابناء الشعب العاديين وافراد اسرتى ضدى .

وفى المرايا التى تحيطنى رأيت اننى رجل مذنب ، ومفتقر الى كل صفة من الصفات الحميدة ، وليس هناك اى تسويغ ممكن لسلوكى .

وهكذا وقعت على الاتهام الاخير ضدى ، وانطلقت فى الممشى وذهنى مفعم بالندم والاسى .

" انك لا تستطيع ابدا ان تنجو من عواقب خطاياك . "

الفصل التاسع

اقبل اعادة تكوين نفسى

كيف اصبح انسانا ؟

" لقد بدأت سنة جديدة . فما برنامجك بخصوصها ؟ " هذا كان السؤال الذى سألنى اياه مدير السجن فى عيد رأس السنة عام ١٩٥٥ .

فقلت انه ليس امامى الا ان انتظر عقوبتى . فهز المدير رأسه وقال معترضا بشدة :

– لماذا انت متشائم جدا ؟ يجب ان تقف موقفا ايجابيا من اعادة بناء نفسك وتسعى جاهدا الى ان تصنع من نفسك انسانا جديدا .

فهدأتنى هذه الكلمات ولو انها لم تستأصل تشاؤمى . وشعرت بأننى واقع فى هاوية الاحتقار الذاتى الذى لعب الآن دورا اكبر فى تفكيرى من المخاوف التى كانت مسيطرة على بخصوص ادانتى .

وبينما كنا ذات يوم فى باحة السجن خلال فترة الاستجمام جاء مراسل صحفى ، معه آلة تصوير ليلتقط لنا صورا . ونظرا الى ان فترة الاتهام والاعتراف بذنوبنا قد انتهت ، فقد سمح لنا بأن نقضى فترة استجمامنا فى الفناء سويا ، واضيفت الى الفترة نصف ساعة اخرى . كان الفناء يعج بالنشاط ، بعض الناس يلعب بالكرة الطائرة وكرة الطاولة وبعضهم يتحادثون وبعضهم يغنون . . . وبعد ان صور المراسل كل هذه المشاهد جاء فى النهاية ليأخذ صورة لى . وكان يقف الى جانبى موظف سابق فى " امبراطورية منشوريا " يتفرج على اللعب ، فلاحظ ما سيفعله المراسل ، فابتعد عنى مسرعا وهو يقول : " لن اتصور معه . " وعلى الفور ابتعد عنى جميع الذين كانوا يقفون قريبا منى .

وخلال شهر مارس — آذار — جاءت مجموعة من قواد جيش التحرير لتفتيش السجون الخاصة بمجرمي الحرب التي كانت تابعة لموقع شنيانغ العسكري فاستدعاني مدير السجن انا وبو جيه لنذهب ونراهم . وعندما رأيت القاعة تغص بالكتفيات الذهبية ظننت لأول وهلة ان هذه لا بد ان تكون محكمة عسكرية ، ولكنني اكتشفت بعد ذلك ان الجنرالات يريدون ان يعرفوا دراستي . وكانوا ودودين جدا معي ، واظهروا اهتماما كبيرا في ما قلته ، وسألوني عن طفولتي وعن حياتي ايام " امبراطورية منشوريا " . واخيرا قال قائد ملتحي منهم : " ادرس جيدا واعد بناء نفسك . ستكون في المستقبل قادرا على رؤية بناء الاشتراكية بأم عينيك . " ولدى عودتي الى زنزانتي ظننت انه يجب ان يكون برتبة مشير ، فقال بو جيه انه لم يكن المشير الوحيد بينهم . فتأثرت تأثرا عميقا . ان الشيوعيين ، الذين لم اتوقع ان يظهروا لي ادنى تسامح ، قد عاملوني بالفعل على انني انسان ، سواء كانوا مشيرين او سجانين . ولكن زملائي المساجين لم يكونوا على استعداد حتى للوقوف الى جانبي ، كأنما انا شيء اقل من انسان .

وبعد ان عدت الى زنزانتي اخبرت زملائي فيها بما قاله المشير . فقال لاو يوان ، السفير السابق لـ " امبراطورية منشوريا " لدى اليابان واسرع رجل ادراكا في زنزانتنا : " اهنئك يا لاو بو . اذا قال المشير انك ستكون قادرا على رؤية البناء الاشتراكي ، فهذا يعني انك في امان . "

وبعث هذا سرورا غامرا لدى الآخرين جميعا . اذا كان الخائن رقم ١ في امان ، فمن المؤكد انهم سيكونون على ما يرام .

بعد انتهاء فترة الاتهام والاعتراف بالذنوب اصبح الكثير منا يركزون اهتمامهم على المستقبل . فلاو شيان مثلا لم يبتسم ابتسامة واحدة منذ بداية هذه الفترة ، اما الآن فقد تهلل وجهه بابتسامة عريضة وربت على كتفي بحرارة وقال : " اهنئك يا لاو بو ، اهنئك . "

ورفع الآن الحظر عن التكلم مع بعضنا خلال فترة الاستراحة ، ولم تعد زنزاناتنا تقفل خلال النهار . وصادف ان جاء شخص الى زنزانتنا فى تلك اللحظة ، فانتشرت على الفور الاخبار المفرحة فى كافة انحاء السجن . وفكرت فى ابناء اشقائى ولى الكبير الذين تجاهلونى منذ بدء فترة الاتهام والاعتراف بالذنوب ؛ وايقنت ان هذه الانباء ستجعلهم يبتهجون ، فتعللت بذلك لكى اذهب واتحدث معهم . ورأيت قو الصغير وشيو الصغير بجانب شجرة فى ركن من الباحة . ولكن قبل ان اصلهما غادرا المكان .

وفى ابريل — نيسان — طلبت سلطات السجن منا ان ننتخب لجنة دراسة كما فعل مجرمو الحرب اليابانيون . وقد مكنتنا هذه اللجنة التى كانت خاضعة لاشراف السلطات من تنظيم دراستنا وحياتنا اليومية ؛ وكانت مسؤولة عن نقل اية مشكلة نثيرها الى مسؤولى السجن ، وعن كتابة تقارير باجتماعات النقاش والنقد . وكان بوسعها كذلك ان تبادر الى تقديم بعض الاقتراحات . وكانت تتألف من خمسة اعضاء انتخبوا انتخابا ووافقت عليهم سلطات السجن ؛ وفيهم رئيس ، واربعة اعضاء آخرين يتولى كل واحد منهم مسئولية احد النشاطات الاربعة : الدراسة والحياة اليومية والرياضة والاستجمام . وكان مسؤول الدراسة ومسؤول الحياة اليومية فى كل زنزانة ملزمين بتقديم التقرير الى العضو المعنى فى اللجنة كل يوم . وحرك هذا الابتكار السجناء ، واعتبرناه دليلا على ثقة السلطات باعادة بناء انفسنا . وادرك بعض منا ادراكا اوضح من ذى قبل ان اعادة بناء النفس تتوقف علينا . وبرهنت الحقائق فيما بعد على ان هذه اللجنة قدمت الكثير من المساعدات فى اعادة بناء انفسنا . ولكن مشاعرى ازاء ذلك فى البداية لم تكن كمشاعر الآخرين تماما . وهذا بسبب ان اثنين من الاعضاء الخمسة كانا من اقربائى الذين وجهوا ضدى اشد الاتهامات خطورة . احدهما لاو وان ، الرئيس ، الثانى روى الصغير ، العضو المسؤول عن الحياة اليومية .

وبعد ان انشئت هذه اللجنة بوقت غير طويل قررت ان نقيم ملعبا . كنا فى السابق نستخدم ملعبا بناه مجرمو الحرب اليابانيون ، اما الآن فسنقوم بتسوية قطعة من الارض لأنفسنا . وكان روى الصغير مسؤولا عن هذه المهمة ، فوبخنى امام الجميع عندما كنا على وشك ان نبدأ العمل فى يومنا الاول . لقد تأخرت عن الطابور لأمر تافه ، وفيما رحت اجرى الى مكانى بين الصفوف وازرر ملابسى بسرعة سمعت اسمى ينادى . فأجبت مسرعا الى نهاية الصف :

– حاضر ، حاضر .

فصاح روى الصغير والتجهم باد على وجهه :

– انك تتأخر فى كل مرة نجتمع بها ، فتجعل البقية ينتظرونك . انك لا تملك ادنى اعتبار للآخرين . انظر الى نفسك ، ما اشد الاهمال فى مظهرك ! ألا تستطيع حتى ان تزرر سترتك جيدا ؟

وطأطأت رأسى فرأيت ازرارى كلها فى غير عراها المناسبة . وحدقت فى الحاضرين وانا اتلمس ازرارى فى عجز .

وخشيت الآن من انهم حفظوا تسجيلات اجتماعات النقد الاسبوعية ، فأضافوا اليها تفسيرات غير مؤاتية لتصرفاتى . وكانت اجتماعات النقد الاسبوعية فى مجموعتنا مختلفة عن ذى قبل ، حيث كنا نتصايح او نتبادل مجرد ملاحظات مؤدبة . اما الآن فاننا تحدثنا بمزيد من الوعى والجدية . وهذا يرجع من جهة الى ان بعضنا قد تخلص من اعبائه الايديولوجية او تعلم شيئا حول اعادة بناء النفس ، وبذلك اتخذ المزيد من المواقف الايجابية ، ومن جهة اخرى الى ان الخطابات التى ليست لها علاقة بالموضوع والتى تعودنا ان نلقيها لم تعد تأخذ بها لجنة الدراسة . واحد الاسباب التى جعلتنى اشعر ان اجتماعات النقد الاسبوعية قد تغيرت هو انه عندما كان اناس آخرون يتكلمون عنى فانهم لم يعودوا يفعلون ذلك بتحفظ ؛ وسبب آخر اكثر اهمية

هو ان بين الاعضاء الجدد الذين انتقلوا الى مجموعتنا كان لى الكبير الذى خبرنى جيدا واصبح مسؤولا عن حياتنا اليومية . فعندما كان الآخرون يتكلمون عن نواقصى يبادر هو بتقديماته وتحاليله لمتابعة جذر المشكلة واصابتى فى المكان الموجع . وباضافة توضيحات روى الصغير ولاو وان الى هذا كله ، كنت لا اكاد ابدو انسانا .

وكنت فى الماضى اذا احالتنى صدمة خارجية الى اقصى يأسى القى اللوم احيانا على نفسى واعتبر ذلك عقوبة لى على تصرفاتى ، ولكن كنت اشعر فى احيان اخرى بالسخط على مصيرى وعلى الآخرين لجعلهم الامور امامى صعبة عن عمد . وفى البداية اعتدت ايضا ان اغضب من الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية وسلطات السجن . اما الآن فليس عندى ما يسوغ تذمرى ازاء هذه السلطات الثلاث ، وشعرت شعورا اقوى بأن كثيرا من الاشياء كانت خطأ منى ، ولكننى كنت ما زلت اميل الى لوم الآخرين على مشكلاتى . وعندما قرأت التقارير التى كتبت عنى ، ادركت ان جميع الاشياء التى اردت ان ابقيها سرا قد اصبحت الآن مكشوفة ، لذلك ظننت انه ما دامت الحكومة قد عرفت كل شىء فان من الطبيعى اما ان ينتقموا منى او يتخلوا على الاقل عن آمالهم فى اعادة بناء نفسى . ولكن المستنطقين ومدير السجن والمشير قالوا جميعا اننى يجب ان ادرس ، واعيد بناء نفسى ، واصبح انسانا جديدا . وجميع موظفى السجن شاركوا فى هذا الرأى ، وقد اظهروا ذلك بوسائل عملية كثيرة .

وبعد ان بنينا الملعب قررت لجنة الدراسة ان نجعل فناء السجن اجمل ، استعدادا لعيد العمال ، وذلك عن طريق غرس الازهار والاشجار وازالة الاعشاب الضارة وتسوية الارض . وانطلقنا جميعنا فى العمل متحمسين . واخذت فى البداية اساعد فى ردم حفرة كبيرة ، ولكن السجان جيانغ قال ان هناك تخوفا من ان اقع فى الحفرة بسبب ضعف نظرى ، لذلك حولت الى

ازالة الاعشاب الضارة فى حوض ازهار . وبعد ان مضت على فترة من العمل هناك جاءنى لاو تشنغ المنغولى ، واختطف من يدى النباتات التى كنت قد اجتثثتها وصاح :

ــ ما هذه التى تقتلعها ؟ ها ؟

ــ لقد طلب منى اقتلاع الاعشاب ، أ ليس كذلك ؟

ــ وهل تسمى هذه عشبة ؟ ألا ترى ان جميع ما اقتلعته شتلات ازهار ؟

وتحولت مرة ثانية الى مثار اهتمام حيث كنت اقرفص هناك ، لا اجرؤ على رفع رأسى . وتمنيت لو تختفى جميع الازهار والاعشاب .

وتابع لاو تشنغ يصيح ممسكا النباتات فى يده :

ــ انك حقا منبوذ .

فجاء السجان جيانغ واخذ النباتات من لاو تشنغ ، ونظر اليها ، ثم رماها على الارض قائلا :

ــ ما فائدة مهاجمته على هذا النحو ؟ يجب ان تساعده بتعليمك اياه كيف يزيل الاعشاب على نحو ملائم بحيث لا يخطئ بذلك فى المرة القادمة .

فأجاب لاو تشنغ :

ــ لم اتخيل قط انه ما يزال هناك اناس لا يعرفون الفرق بين الازهار والاعشاب .

ــ وانا لم اتخيل ذلك مطلقا ، ولكن ما دمنا الآن قد عرفنا خلاف ذلك فعلينا ان نتوصل الى كيفية مساعدته .

كانت جملة " لم اتخيل قط " دائما ما تقترن فى ذهنى سابقا بملاحظات مزعجة مثل " لم اتخيل قط ان بو يى بهذا الغباء ــ هو ميئوس منه " ، او " لم اتخيل قط ان بو يى بهذا النفاق او التردى ــ انكم لا تستطيعون اعادة

بناثه " ، او " لم اتخيل قط ان بو يبى موضع كراهية هذا العدد الكبير من الناس — انه لا يمكن ان ينقذ " . اما الآن فقد اصبحت جملة " لم اتخيل قط " تتبع حقا بـ " ولكن بما اننا عرفنا الآن فعلينا ان نتوصل الى كيفية مساعدته " .

وذات يوم كسرت نظارتى مرة اخرى . وبعد شيء من التردد اضطررت الى طلب المساعدة من لى الكبير ثانية ، فقلت له بصوت خافت :

— ارجوك ساعدنى . لقد حاولت ان اصلحها بنفسى عدة مرات ، ولكننى لم استطع . ولا احد آخر يمكن ان يصلحها ، لذلك هل يمكنك ان تصلحها لى ؟

فأجابنى محملقا :

— ما تزال تريدنى ان اخدمك . أ ما كفتك تلك الخدمة الطويلة ؟

وانتقل الى مكان آخر من الطاولة غاضبا . ووقفت مكانى يائسا ، اتمنى لو استطيع ان ادق رأسى فى الجدار . وبعد اقل من دقيقتين عاد لى الكبير واخذ النظارة منى وهو يشخر فى غضب :

— حسنا ، سأصلحها لك . ولكن دعنى اقل لك اننى لا افعل هذا الا لمساعدتك على اصلاح نفسك ، والا فليس عندى وقت .

وعندما حان موعد الاستراحة ذهبت الى قاعة المطالعة الجديدة لأريح نفسى ، فقابلت هناك بو جيه . فأخبرته بما فى ذهنى ، وذكرت له اننى امضى احيانا بعض الليالى دون نوم بسبب عداوة افراد اسرتى لى . فسألنى عن السبب فى عدم اخبار سلطات السجن بذلك . فسألته :

— لماذا ؟ لقد عانوا منى الكثير فى الايام الماضية ، فبدهى ان يكرهونى .

فأجاب بو جيه بأنه سمع مسؤولى السجن يطلبون منهم ان ينسوا الضغائن الماضية ويساعدونى . وعندها فقط ادركت لماذا كبت لى الكبير غيظه وعاد من الجانب الآخر للطاولة .

وكانت المساعدة التى تلقيتها على نوعين . احدهما عملى ، مثل اصلاح لى الكبير نظارتى ومساعدة الآخرين لى على خياطة لحافى وفرشتى بعد غسلهما ، فمن دون هذه المساعدة كنت امضى يوما كاملا فى هذا العمل معيقا بذلك النشاطات الجماعية . والنوع الثانى من المساعدة كان شفويا ، وهذا هو القسم الذى اضع فيه الانتقادات التى يوجهها لى الآخرون . كان مسؤولو السجن غالبا ما يقولون انه يجب ان نساعد بعضنا من خلال النقد والنقد الذاتى وتبادل الآراء . لكننى لم اقدم للآخرين الا النزر اليسير من هذه المساعدة ، ولم اكن مطلقا راغبا فى قبولها منهم ايضا . لذلك ومع ان لى الكبير اخبرنى بأن هدفه من اصلاح نظارتى هو مساعدتى على اعادة بناء نفسى ، ومع ان مدير السجن اخبرنى بأن النقد هو احد الطرق التى تساعدنا على اصلاح تفكيرنا ، الا اننى ما ازال غير قادر على رؤية اية علاقة بين اى من هذه المساعدات وبين اصلاح تفكيرى واعادة بناء نفسى . لقد رأيت ان المساعدة العملية التى يقدمها لى الآخرون لا تثبت الا عدم كفاءتى واحتقارهم اياى ؛ واعتبرت النقد ليس اكثر من طريقة لاعادة فتح جراحى واثارة اوجاعى وكنت افضل عدم المساعدة اطلاقا .

كلما تحدث موظفو الحكومة عن التحول الى انسان جديد ربطوا ذلك باصلاح المرء لفكره وتغييره لوجهة نظره . ولكن ما اقلقنى هو مسألة الكرامة . كنت اتساءل كيف سيعاملنى المجتمع واسرتى ، وهل سأكون منبوذا . وحتى اذا تعين ان يسمح لى الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية بالعيش ، فقد لا يتسامح معى المجتمع ، وحتى اذا لم اضرب فاننى اخشى ان يشتمنى الناس ويبصقوا على .

وكلما تحدثت سلطات السجن عن اصلاح الفكر اشارت الى ان تصرفات المرء يجب ان تكون مدعومة دائما بأيديولوجيا ، لذلك كان من الضرورى تحليل الجذور الايديولوجية لجرائم المرء من اجل منعه من ارتكابها ثانية .

وكنت من جهة اخرى مقتنعا بأننى لن اكرر ابدا ما قد فعلت فى الماضى . اذا كان شعب الصين الجديدة مستعدا لمسامحتى فبوسعى ان اتعهد بذلك . فما الحاجة اذن الى معالجة تفكيرى ؟

ورأيت ان المفتاح لتحولى الى انسان جديد لا يكمن فى نفسى بل فى الطريقة التى يعاملنى بها الآخرون . لقد قال مدير السجن اننا اذا اصلحنا انفسنا جيدا ، فان الشعب سيعاملنا باللين ، ولكنه لن يتسامح معنا عندما نرفض اعادة بناء انفسنا . وهذا فى الواقع يعتمد على . وبدأت افهم هذا لمجرد ان شيئا صغيرا حدث لى بعد كروب طوال .

ذلك يعتمد على

كنت ذات احد اغسل ملابسى كالمعتاد . وعندما انتهيت من غسلها حان موعد الاستجمام ، وشعرت برغبة فى ان اذهب الى غرفة المطالعة لأقرأ وحدى . وما كدت اجلس حتى سمعت اصوات متحدثين فى الخارج :

— ألا يستطيع اى منكم ان يلعب التنس ؟

— انا لا استطيع ، ولكن بو يى يستطيع . يجب ان تسأله .

— حتى اذا استطاع فلن يكون لديه وقت مطلقا للعب التنس . فالسماء وحدها تعرف متى سينتهى من غسل ملابسه .

— انه الآن اسرع بكثير مما مضى .

— لا اصدق ذلك .

فأغاظنى هذا اغاظة شديدة . لقد انهيت غسل ملابسى دون شك ، واننى قمت بالكثير من الاعمال كالآخرين ، ولكن ما يزال هناك اناس لا يصدقون ، كأنما انا عاجز فى طبعى عن احراز اى تقدم . واحضرت مضربى وخرجت الى الفناء غير متحمس للعب بقدر تحمسى الى ان يرانى الآخرون وقد انتهيت من غسيلى . وعندما وصلت الباحة كان اللذان سمعتهما يتحدثان

قبل لحظة قد غادرا فلعبت مع آخرين ممن ارادوا اللعب . وتجمع بعض المتفرجين لمشاهدة اللعبة ، ولعبت بحيوية كبيرة ، وتصببت عرقا .

وعندما ذهبت الى الحنفية لأغسل يدى لقيت مدير السجن الذى كان يمضى آحاده غالبا فى السجن .

ــ لقد احرزت تقدما هذا اليوم يا بو يى .

فسررت لسماعى هذا الكلام وقلت :

ــ لم العب منذ وقت طويل .

فقال مشيرا الى غسيلى المنشور على الحبل :

ــ اننى احدثك عن ذلك . فما دمت تستطيع ان تنهى غسيلك بنفس السرعة التى ينتهى بها البقية من غسيلهم ، فان بوسعك ان تتمتع بنفس القدر من الراحة والاستجمام كما هم يفعلون .

فهززت رأسى ورحت اطوف معه حول الباحة .

ــ فى الايام الماضية كنت مشغولا جدا عن التمتع بالراحة والاستجمام كأى شخص آخر ، لذلك لم تكن متساويا معهم واستأت . اما الآن وقد اصبحتم متساوين ، فانك تكون مرتاحا عندما يحين موعد الغسيل . انظر اذن ، لقد امسكت بمفتاح المشكلة بنفسك . لذلك لا داعى للقلق بخصوص كيفية معاملة الآخرين لك .

وبعد لحظة مضى يقول :

ــ لقد حولتك الحرب العالمية الثانية من امبراطور الى سجين . وفى الوقت الحاضر ، هناك معركة كبيرة تدور رحاها داخل عقلك ، معركة لتحويل امبراطور الى عامل عادى . لقد ادركت شيئا من ماهية الامبراطور ، ولكن هذه المعركة لم تنته بعد ، وانك ما تزال لا ترى فى نفسك انك مساو للآخرين . ولكن يجب ان تتفهم نفسك على نحو افضل .

وفكرت فيما قاله وقتا طويلا . وبينما وافقت اننى امسكت مفتاح

المشكلة بنفسى ، لم استطع ان ارى اننى ما ازال اظهر كبرياء الامبراطور . ولكن مع مرور الوقت اخذت الحياة تعلمنى تدريجيا ان هذا صحيح .

وعندما عادت مجموعتنا الى الزنزانة ذات يوم بعد ان قمنا بازالة الفضلات، نقدنا عضو لجنة الدراسة الذى كان مسؤولا عن الحياة اليومية فقال :

— انكم لم تقفلوا الحنفية بعد ان غسلتم الايدى ، والماء ما يزال يجرى . هذا تصرف لا مسؤول ، ويجب ان اطلب منكم ألا تفعلوا هذا ثانية .

وسألنى لى الكبير على الفور ان كنت انا آخر من غسل وعندما اعترفت اننى ربما نسيت ان اقفل الحنفية ، قال ان هذا مثال للطريقة التى كنت اتصرف بها وانا امبراطور ، ولكننى ظللت اتصرف على هذا النحو . واستطرد قائلا :

— فى تلك الايام لم تكن تلمس حتى مقبض الباب حيث كان هناك دائما اناس آخرون يفتحون لك الابواب ويغلقونها . وانك حتى الآن تفتح الابواب ولا تغلقها خلفك مطلقا . انك لم تتوقف بعد عن التصرف كأمبراطور .

وقال لاو يوان :

— لقد تذكرت الآن ، انك غالبا ما تغطى مقبض الباب بصحيفة عندما تفتحه . لماذا تفعل ذلك ؟

وابتدرنى لى الكبير بالقول :

— ذلك لأنك تخشى ان يكون المقبض قذرا ، أليس كذلك ؟

فأجبت قائلا :

— كل واحد يلمسه ، فطبيعى ان يكون قذرا .

واثار هذا حملة مفاجئة من الهجومات على :

— لماذا تكون الوحيد الذى يهتم بذلك ؟

— ماذا تكره ، قذارة الباب ام قذارة الناس ؟

— ألا يدل هذا على انك تظن نفسك فوق الآخرين ؟ انك تظن اننا جميعا ادنى منك منزلة ، أليس كذلك ؟

حاولت جهدى فى تبرير نفسى بأننى لا احمل شعورا مثل هذا ولكنى لم استطع طرد شكوكى : هل فعلت ذلك حقا ؟ هل حملت حقا مثل هذه الافكار ؟ وفيما بعد اشار لى احدهم بأننى كنت دائما عند الاستحمام اول من يدخل الى الحمام واخرج منه دائما عندما يدخل الآخرون ؛ وذكرنى سجين آخر بأننى كنت دائما آخذ الطاس الاول من جياو تسى فى الاتحاد السوفياتى . ويجب ان اعترف بنفسى ان لى الكبير كان مصيبا عندما قال اننى لم اتخلص بعد من كل كبريائى الامبراطورى .

وعندما استعيد الماضى ارى ان لى الكبير كان معلما لى ، وان كان صارما . انه ، مهما كانت دوافعه ، حرص دائما على ان يجعلنى ارى الاشياء التى لم اكن انتبه اليها بنفسى . وفى النهاية ادركت اننى انا الذى يجب ان الوم نفسى على معظم ما يعترضنى من متاعب .

وذات مرة افقدت مجموعتى عددا من النقاط فى التفتيش الصحى ، وذلك لأننى لطخت الارضية وانا انظف اسنانى ، واكتفيت بمسح البقع عن الارض بقدمى بدلا من تنظيفها جيدا . فجاءنى لى الكبير بخرقة مسح وسألنى لماذا لم استخدمها .

ـ لم يخطر ذلك ببالى .

فغضب من جوابى هذا ، متهما اياى بمجرد التفكير فى نفسى :

ـ انك لا تستطيع ان تفكر الا فى حقوقك ، وليس فيما عليك من واجبات .

وكان على وشك التنظيف بنفسه ، ولكنه قذف الممسحة على الارضية وطلب منى ان امسح البقع بنفسى ففعلت ذلك طائعا .

منذ الوقت الذى اكتشف فيه ان الامريكان يستخدمون القنابل الجرثومية فى كوريا والشمال الشرقى ، ومنذ بدأت الحركة الصحية على نطاق الوطن التى تلت ذلك ، صارت تنظم حملات فى السجن فى مواعيد محددة كل

سنة لابادة الحشرات . وبين جميع ذكرياتي عن هذه الحملات برزت الآن مسألة ضرب الذباب .

لقد جلب لي الكبير ذات يوم بعض المذبات الجديدة ولكنها لم تكن كافية ، وكان الآخرون جميعا يطلبونها ، فلم ابذل جهدا للحصول على واحدة ، ولكن لي الكبير سلم اول مذبة لي . وكانت هذه اول مرة جربت فيها ضرب الذباب ، فشعرت بالانزعاج ، اقول الحق ، لأنني لم اقتل في حياتي اية ذبابة من قبل .

ولم يكن في السجن ذباب كثير ، فحسب مقياس " العاصمة الجديدة " لـ " امبراطورية منشوريا " كان قد انقرض هناك تقريبا . ورحت افتش عن الذباب ، واخيرا وجدت واحدة تحط على حافة نافذة مفتوحة ، فلوحت بالمذبة لأطردها . فصاح لي الكبير من ورائي :

ـ ماذا تفعل ؟ انت تقتل الحشرات ام تنقذ حياتها ؟

وبدت هذه كأنما هي دعاية للآخرين ، ولكنني عرفت ما كان يرمي اليه . فاحمر وجهي خجلا ، وقلت مكرها :

ـ طبعا لا انقذ حياتها .

وفي الوقت نفسه تساءلت لماذا تركت الذبابة تطير :

ـ انت لا تقتل الذباب خشية العقاب ، أليس كذلك ؟

وشعرت بالذنب فيما راح يحدق الي ، ولكنني صمدت بقوة ، وقلت :

ـ عما تتحدث ؟ الذبابة طارت ، هذا كل ما في الامر .

ـ فكر في ذلك جيدا .

وفي اجتماع النقد في ذلك المساء لم يذكر احد في البداية هذا الامر ، ولكن بعد ذلك اخبر لي الكبير كل واحد كيف منعت قتل الذباب في تشانغتشون بل وجهت الناس الى انقاذ الفأر من فكي القطة . فانفجر الجميع بالضحك ، ثم نقدوني على خرافاتي . وفي الوقت الذي اضطررت الى الاعتراف

فى نفسى بأنهم مصيبين سمعت نفسى اقول :

— اننى لست خرافيا . ألم اقتل ذبابا فى السنة الماضية ؟

فلم يتمالك لاو يوان نفسه عن القهقهة ، وقال :

— اتذكر — شكرا على تذكيرك اياى . لقد سلمت مذبتك لشخص آخر ، وطردت جميع الذباب بصحيفة كى تدعه ينجو .

ووسط جلجلات الضحك الساخر الذى تلا ذلك ، كان لى الكبير هو الوحيد الذى ظل وجهه متجهما :

— لا ادرى ما معنى ان يقوم الآخرون بـ " انقاذ الحياة " ، ولكن فى حالتك انت فأنا متأكد من انها انانية كاملة . انك تفعل هذا لتحصل على بركة بوذا . انه ليس مهما اذا قتل الآخرون جميعا ما دام هذا يؤمن لك بقاءك حيا . انك تظن نفسك اغلى شخص على وجه الارض .

فاعترضت قائلا :

— هذه مبالغة .

فتدخل لاو يوان قائلا :

— ان بو يى يحتقر نفسه احيانا .

فأضفت قائلا :

— نعم ، اننى لا اعتبر نفسى مطلقا اعلى من اى شخص آخر .

فقال لى الكبير :

— ربما تحتقر نفسك احيانا ، ولكنك ما زلت تعتبر نفسك احيانا اخرى اعلى واهم من اى شخص آخر . اننى لا اعرف كيف تتصرف هكذا .

وفيما بعد اخذت ادرك تدريجيا ، فبعد اربعين سنة من العيش فى منزلة عالية جدا اهوى الى الارض فجأة . وهذا يفسر السبب فى اننى كنت اخالف الآخرين احيانا واخرج عن طورى واشعر بالظلم . ولكنى ايضا كنت ارى

على الدوام اننى اقل شأنا من الآخرين ، مما يسبب لى الاكتئاب والحقد والشعور بالهوان والتعاسة . وباختصار ، لقد فقدت كبريائى الامبراطورى ، ولكننى ما زلت احتفظ بمقياسى القديم . ولقد ادركت هذا فيما بعد عندما اكتشفت ان من المستحيل الحكم على الناس بهذا المقياس . وبينما كنت فى نفس الزنزانة التى كان فيها لى الكبير قبل ان اتوصل الى فهم هذا الامر ، لم استطع تفهم الا ما تحدث عنه مدير السجن . وادركت اننى لم اعامل الآخرين على انهم انداد فى علاقاتى بهم ، وهذا ما اثار استياءهم ومنعهم من معاملتى على اننى ند ، او من احترامهم لى . ولم اكتشف اى نوع من الناس كنت حقا الا عندما قوبلت بكرم من الناس الذين لا يمكن ان يقاسوا بمقياسى .

لماذا كل هذه الشهامة ؟

ذات يوم ، مباشرة بعد عيد رأس السنة الصينية لعام ١٩٥٦ ، ادلى مدير السجن بالبيان التالى فى نهاية حديث له عن نمو الاقتصاد الوطنى :

" لقد درستم جميعا وثائق الخطة الخمسية الاولى والتعاون الزراعى والتحويل الاشتراكى للحرف اليدوية والصناعة والتجارة الفردية . ولقد قرأتم ايضا فى الصحف عن ظهور مؤسسات مختلطة تملكها الدولة والافراد فى بعض المدن الكبرى . ولكن كل ما تعرفونه عن البناء الاشتراكى هو ما تعلمتموه من الكتب . انكم بحاجة الى رؤية الحالة الحاضرة للبلاد بأم اعينكم لتتمكنوا من ربط دراساتكم بالواقع . ولهذا ستنظم لكم الحكومة زيارات الى الخارج فى المستقبل القريب . سترون فوشون اولا ، وتزورون مدنا اخرى فيما بعد . "

اصبح جو السجن فى ذلك اليوم ابهج مما كان عليه فى اى يوم مضى ،

ورأى بعض السجناء فى ذلك اشارة الى اننا سيطلق سراحنا قريبا . ولم اشاركهم آمالهم ، مقتنعا بأننى لن يطلق سراحى بالتأكيد حتى وان اطلق سراحهم . بل وخفت ايضا من اظهار وجهى امام الناس فى زيارة . وبعد ظهر ذلك اليوم سمعت آخرين يتكلمون فى هذه المشكلة التى كانت تشغل ذهنى :

— ماذا تظن ان الناس سيفعلون عندما يروننا ؟

— لن يحدث شىء حيث ان موظفين حكوميين سيأخذوننا ، والا فلن يدعونا نخرج .

فقال لاو فو ، وزير الزراعة فى "امبراطورية منشوريا" سابقا :

— لست متأكدا من ذلك . ماذا يحدث اذا ما اثيروا ؟ يا للسماء لقد كنت موظفا صغيرا ، وقد رأيت الجماهير عندما تهيج . انهم اذا ما خرجوا عن طورهم ، فمن المؤكد ان تستجيب الحكومة لمطالبهم .

— لا تقلق ، ان الحكومة لن تدعنا نخرج اذا لم تكن متأكدة تماما مما يجرى .

وجاء الرئيس الجديد لمجموعة الدراسة فى زنزانتنا ، وهو موظف سابق فى حكومة وانغ جينغ وى العميلة ، وقال :

— لا اظن ان الحكومة ستفشى شخصيتنا :

فضحك لاو يوان وقال :

— ان الشعب سيعرفنا سواء افشت الحكومة شخصيتنا ام لا . هل تظن ان الامر سيكون على ما يرام لمجرد ان اهالى الشمال الشرقى لن يعرفوكم ؟ انهم بمجرد ان يميزوا واحدا منا ، ومن المحتوم ان يفعلوا ذلك ، سيعرفون من نحن .

وفكرت فى صورى التى اجبر اهالى الشمال الشرقى على الانحناء لها فى الماضى ، وايقنت انهم لن يجدوا صعوبة فى تشخيصى . فكيف ستستطيع الحكومة منعهم من الهيجان والمطالبة بمحاكمتى علنيا ؟ وقد تساءل لاو

فو بدوره أ لن تستجيب الحكومة لما يطالب به الشعب ؟

كنت فى تلك الايام ما ازال انظر الى ابناء الشعب العاديين على انهم جهلة وهمج تماما . ومن المؤكد انهم سيحاسبوننى ، اذا عدوهم اللدود ، بقسوة شديدة متجاهلين سياسة اللين واعادة بناء النفس التى تسلكها الحكومة والحزب . وشككت فى ان تكون الحكومة قادرة على منع حدوث ذلك ، وشككت ايضا فى انها ربما تكون مستعدة لأن " تضحي " بى كى تكسب التأييد الشعبى . ولكننى كنت مخطئا تماما .

سأصف فى الجزء التالى كثيرا من الاشياء غير المتوقعة التى رأيتها فى الزيارة ، ولكننى اريد ان اصف اولا اكثر الناس الذين قابلتهم شهامة .

كانت الاولى امرأة شابة عادية . عاشت مذبحة بينغدينغشان ، واصبحت الآن مديرة روضة لمنجم الفحم المكشوف فى فوشون . وقد حدثنا بعض مسؤولى المنجم عن تاريخ المنجم والمذبحة .

كان فى القسم الشرقى من المنطقة التعدينية قرية تضم الف اسرة تقريبا ، تدعى بينغدينغشان . ومعظم سكانها كانوا من عمال المناجم المعوزين . وبعد الاحتلال اليابانى للشمال الشرقى ظهر مقاتلون وطنيون فى هذه المنطقة كما فى اى مكان آخر . وفى ليلة عيد منتصف الخريف عام ١٩٣٣ اصطدم المتطوعون المعادون لليابانيين من جنوبى منشوريا باليابانيين فى بينغدينغشان ، وقتلوا ضابطا وبضعة عشر من الحرس اليابانى ، واحرقوا مخزنا يابانيا .

وفى اليوم التالى ، عندما غادر المقاتلون ، طوق بينغدينغشان حوالى ١٩٠ حارسا يابانيا مع بعض الخونة الصينيين ، وساقوا جميع السكان — رجالا ونساء واطفالا — برؤوس حرابهم الى تلة خارج القرية . وهناك اطلقوا النار بالرشاشات على جميع هؤلاء السكان البالغ عددهم ثلاثة آلاف نسمة ، ثم اخذ الجنود يشقون الجثث بحرابهم ليتأكدوا من انها فارقت الحياة . وبعد هذا سكبوا البنزين على كل البيوت فى القرية واحرقوها ، وقصفوا التلة بالمدفعية

الثقيلة ليغطوا بقايا جريمتهم . واخيرا احاطوا القرية بسياج من الاسلاك الشائكة ، ولم يسمحوا لأى غريب بدخولها . وصدر انذار بأن كل من يؤوى الفارين من بينغدينغشان سيقتل هو وجميع افراد اسرته . وهكذا تحولت بينغدينغشان الى سفح تلة معزول مغطى بالعظام . وقد ظهرت مرثاة شعبية فى منطقة فوشون ، تقول :

بينغدينغشان
بينغدينغشان
التى كانت ملاذا للحياة
هى اليوم خراب تغطيه الدماء والادغال
لملموا بعض الآجر
التقطوا العظام
فقد ذبح اليابانيون آباءنا وابناءنا
بحر الدماء عميق
وحقدنا لن يموت

ولكن اليابانيين لم يتمكنوا من ذبح جميع القرويين او ترويع عمال فوشون . وقد نجت صبية فى الخامسة من عمرها ، تدعى فانغ سو رونغ ، من بين اكوام الجثث الدامية ، وتعهدها بالرعاية سرا عامل منجم عجوز مقعد . وهكذا عاشت شاهدا على ذلك العمل الوحشى الشنيع .

بعد ان رأينا نحن السجناء المنجم انتقلنا لمشاهدة خدمات الرفاهية ، ولذلك ذهبنا الى روضة فانغ سو رونغ . ونظرا الى انها كانت فى شنيانغ فى ذلك الوقت حدثتنا عاملة الروضة الاخرى عن اجتماع فانغ بمجرمى الحرب اليابانيين فى اليوم السابق . وقالت لنا ان شغيلات الروضة رفضن فى البداية ان يسمحن لها بمقابلتهم ، لأن هذا قد يسبب لها صدمة كبيرة . الا ان مجرمى الحرب اليابانيين ناقشوا الامر ورجوا ان يسمح لهم برؤيتها لأنهم

ارادوا ان يعتذروا لها . وبعد ان تم التغلب على معارضة الشغيلات دخلت فى النهاية لتراهم . فانحنوا لها انحناءة شديدة تعبيرا عن اعترافهم بذنبهم ، وطلبوا منها ان تحدثهم عن المذبحة .

فروت لهم كيف قادها جدها الى الخارج بينما حملت امها شقيقها الطفل . "كان الجنود اليابانيون والخونة يصيحون اننا سنذهب لالتقاط صورة . وسألت جدى ماذا تعنى الصورة فأعطانى طاحونة هوائية كان قد صنعها لتوه وطلب منى ألا اسأل اية اسئلة . " وهكذا ذهبت مع جميع القرويين الى ساحة الاعدام . وعندما بدأت الرشاشات تطلق النار غطاها جدها بجسمه ، واغمى عليها حتى دون ان تبكى . وعندما عادت لوعيها وجدت نفسها محاطة بالدماء السائلة والمتخثرة ؛ والدخان يغطى السماء .

واحست بألم مخيف بسبب جروح الرصاصات الثمانى والحربة فى جسمها ، وكانت آلامها المهلكة من شدة الخوف اكثر من ذلك بكثير . كان جدها ساكنا ، ولم تستطع رؤية امها او شقيقها . وزحفت خارجة من بين اكوام الجثث ، وعادت الى القرية ، لتفاجأ بأنها قد تحولت الى انقاض ينبعث منها الدخان . وزحفت عبر السلك الشائك ، ومنه الى جذامة الذرة الرفيعة ، مغطية وجهها بيديها . فرآها شايب ولفها بسترته ، وبعد ذلك فقدت وعيها ثانية .

كان هذا الشايب عامل منجم ، اصبح مقعدا بعد حياة غاصة بالصعوبات والمعاناة ، وقد آلت حاله الى بائع سجاير لسد رمقه . ووضعها داخل كيس لا يفتحه الا ليلا ليطعمها . ولما ادرك انه لا يستطيع ان يستمر على هذا النحو وقتا طويلا هربها فى كيسه من اليابانيين ، واخذها الى بيت خالها الذى احتفظ بها خارج منزله فى كومة من القش واعتنى بجروحها ، وراح يطعمها ليلا . وعندما اقترب الشتاء اخذها الى اقرباء آخرين فى قرية ابعد ، وعاشت هناك معهم باسم آخر .

نشأت فانغ سو رونغ مجروحة فى جسمها ونفسها ، ونما معها حقدها الشديد . ولكن عندما استسلم اليابانيون فى النهاية حل محلهم موظفو الكومينتانغ الفاسدون والمرتشون ، واضافت الى حقدها على قتلة اسرتها حقدا آخر على قوات تشيانغ كاى شيك التى مارست القتل والحرق والسلب كما فعل اليابانيون تماما . واخيرا تحررت قريتها ، واشرق النور فى حياتها . واعالها الحزب والحكومة وثقفاها . ووجدت فيما بعد عملا ، وتزوجت وانجبت اطفالا . واصبحت الآن عاملة نموذجية فى فوشون .

ماذا قالت هذه المرأة للمجرمين الذين ارتكبوا جرائم شنيعة كهذه ضد الصين عندما قابلتهم وجها لوجه ؟

" حتى لو عضضتكم حتى الموت فاننى لن اشفى غليلى . ولكننى عضوة فى الحزب الشيوعى ، والقضية العظيمة قضية الاشتراكية وتغيير العالم تعنى الشيء الاكثر بالنسبة لى من احاسيسى الخاصة . ولقد وضع حزبنا جميع انواع السياسات لتحقيق هذه الاهداف . وانا اؤمن بهذه السياسات وسأعمل على تنفيذها . ومن اجل هذه القضية نحيت حقدى الشخصى جانبا . "

لقد ادهش هذا التسامح المذهل المئات من مجرمى الحرب اليابانيين وجعلهم لفترة لا يحرون جوابا ، ثم شرعوا يبكون من شدة احساسهم بالخزى وركعوا امامها ، طالبين من الحكومة الصينية ان تعاقبهم .

ان شهامة فانغ سو رونغ كانت مذهلة بما فيه الكفاية ، ولكن لو قلنا انها ملزمة بوصفها عضوة وكادرة فى الحزب ان تقف موقفا كهذا ، فما الذى جعل الفلاحين العاديين فى تايشانبو يظهرون نفس الشهامة ؟

وتايشانبو قرية فى ضواحى فوشون ، انشأت فى ذلك الحين تعاونية زراعية . وقد ذهبنا اليها فى اليوم الذى تلا زيارتنا لروضة الاطفال ، وكان قلبى يخفق على الطريق من شدة الخوف . وتذكرت الاتهامات التى كتبها الفلاحون

ضدى والتى قرأتها ، وتساءلت كيف ستكون معاملتهم لى ، وايقنت ان الفلاحين " الافظاظ " و " الجهلة " سيكونون غير قادرين على التصرف مثلما تصرفت فانغ سو رونغ . والواقع اننا قابلنا عددا من العمال وافراد اسرهم فى اليوم السابق ، ولكننى عزوت تصرفهم الى انهم كانوا يجهلون من نحن . لقد زرنا فى المساء السابق دار عجزة لعمال المنجم المتقاعدين . ان هؤلاء المسنين الذين عملوا فى المناجم طوال حياتهم او الذين طردهم اليابانيون بعد ان اصبحوا عاجزين نتيجة حوادث العمل قد انقذوا على الفور بعد تشكيل الحكومة الشعبية ، وحول فندق يابانى فخم الى ملاذ يمكن ان يقضوا فيه بقية حياتهم فى اطمئنان ، كانوا يمضون اوقاتهم فى لعب الشطرنج وزراعة الازهار وقراءة الصحف وفى اية طريقة اخرى تلائمهم . وعندما زرت احدهم مع بضعة سجناء آخرين حدثنا عن الحياة التعسة فى المناجم ايام " امبراطورية منشوريا " . فشعرت بالخزى والخوف ، واختبأت فى الزاوية صامتا مخافة ان يميزنى . ولاحظت انه علق بدلا من صور الاسرة التى رأيناها على الجدران فى مسكن العمال صورة الرئيس ماو فقط ، اذ بدا واضحا انه اعز عليه من اقربائه — هذا اذا كان قد بقى له اقرباء على قيد الحياة . وتساءلت ان كان قد فهم سياسة الرئيس ماو فى اعادة بناء المجرمين .

خلال اليوم الاول من زيارتنا حاولنا جميعا ان نجعل انفسنا غير واضحين تمام الوضوح . فالفم الكبير الذى كان ذات مرة مسؤولا عن بناء معبد لديانة شينتو اليابانى فى فوشون ، كان شاحب الوجه ، وقد حاول ان يظل طوال الوقت مختبئا وسط مجموعتنا . وعندما وصلنا تايشانبو لم يتجرأ واحد منا على رفع رأسه . وفى هذه الحالة من الاضطراب استمعنا الى مسئول التعاونية وهو يحدثنا عن ماضى التعاونية وحاضرها . وطفنا بها ورأينا ادوات جديدة ومزرعة دواجن ودفيئات ملأى بالخضار وحظائر مواشى ومخازن قمح واشياء اخرى . وكل من قابلناه كان لطيفا معنا واوقف بعض الناس العمل الذى

كان يقوم به ووقف وحيانا . وهنأت نفسي على بقائي كل هذه الفترة دون ان يعرفني احد ، ولكن عندما كنت في بيت احد اعضاء التعاونية في نهاية الزيارة لم اعد قادرا على اخفاء هويتي اكثر من ذلك .

كان البيت الذي زرته انا وبضعة آخرون لأسرة تدعى ليو . وكان كلا الوالدين يعملان في الحقول ، وكان الابن الاكبر كاتب حسابات لقبو التخزين ، والابن الثاني طالبا في مدرسة متوسطة ، والبنت تعمل في محطة كهرمائية . ولم تكن في البيت عندما وصلنا الا السيدة ليو وكانت تطبخ ، وعندما رأت كادر التعاونية يقودنا الى داخل البيت خلعت مئزرها وطلبت منا ان نجلس في الغرفة الشمالية التي كانت مبنية حديثا بالاسمنت . وعاملتنا على اننا ضيوف حقا ، فطلبت منا ان ندخل الى صدر الغرفة ونجلس على سرير الكانغ المبني على طراز الشمال الشرقي . وكان ينتصب مع الجدار خزانة لها ادراج ، وعليه ساعة منبهة كبيرة وطقم شاي يلتمع وعدد من الزهريات وعلبة شاي .

ولم يخبرها الكادر الذي جلبنا من نكون نحن ، بل اكتفى بأن قدمنا لها على اننا زائرون جئنا لمشاهدة التعاونية . ثم طلب منها ان تتحدث لنا . وعلى الرغم من انها لم تكن متحدثة جيدة الا انها اخبرتنا بأنهم كانوا اسرة من سبعة افراد يحرثون حوالي نصف هكتار من الارض ، وانهم عاشوا خلال فترة " امبراطورية منشوريا " شبه متسولين تقريبا . "كنا نزرع الرز ، ولكننا نضطر الى اكل دقيق البلوط . وكان علينا ان نسلم كل الرز الذي نزرعه ، واذا ما وجدوا حبة واحدة منه في البيت اعتبرونا ' مجرمين اقتصاديين ' . ولقد القى البوليس القبض على رجل ذات مرة عندما كان في الطريق مريضا واكتشفوا حبات ارز في قيائه . ولبسنا جميعا الاسمال البالية . وتردأت احوال بعض العوائل على نحو اسوأ منا ، فلم تجد الفتيات البالغات في تلك العوائل ما يلبسنه سوى الاكياس . . . وفي عيد رأس سنة لم يجد الاطفال ما يأكلونه ،

وليس بوسعى ان اخبركم كيف كان ذلك ، لهذا قال الشايب يجب ان نأكل سرا وجبة ارز . وجاء البوليس الى القرية فى منتصف الليل ، فأفزعنا هذا حقا . لقد جاؤوا فى الواقع للقبض على الرجال واخذهم الى العمل الاجبارى ، وارسلوهم لقطع الاشجار وبناء مواقع دفاعية . وقالوا ان ذلك من اجل الحماية من قطاع الطرق ، ولكنها اقيمت حقا بسبب ذعرهم الشديد من جيوشنا المتحالفة ضد اليابانيين . واخذ الشايب كذلك . وتقريبا لم يرجع احد من الرجال الذين اخذوا من قريتنا الى العمل الاجبارى حيا . . . "

ودخل ابنها فيما كانت تتكلم . كان قصيرا جدا . ولدى تدقيقنا النظر استطعنا ان نرى انه قد ولد مقعدا بساقين متوقفتين عن النمو . وفى اجابته عن سؤالنا قال ان عاهته قد اجبرته على ان يعيش حياة الكلاب فى المجتمع القديم ، بينما يعمل الآن كاتب حسابات فى قبو التخزين ، وله من الاعتبار ما لأى شخص آخر . كانت عيناه تلتهبان حقدا على الماضى ، ولكن عندما تحدث عن الحاضر بدا الابتهاج والثقة فى صوته واسارير وجهه كأمه تماما . وحدثنا عن جميع الخضروات التى لم تكن تزرع فى القرية من قبل ، واطلعتنا امه على خابية رز فى زاوية الغرفة . وسأل ابنها ضاحكا : " من يريد ان ينظر الى الارز ؟ " واجابت هى على نحو سريع لاذع : " لا اهمية لذلك فى هذه الايام ، ولكن كم مرة رأيتم الارز فى زمن كانغ ده (١٦) ؟ "

فنسعتنى هذه الملاحظة على الفور .

لقد كنت خائفا فى بداية قدومنا الى هذا البيت من ان يسألونى عن اسمى ، والآن شعرت بأنه لخداع لا يغفر اذا لم اخبرهم عن شخصيتى قبل ان اغادر . فنهضت وقلت ناكسا رأسى : " ان كانغ ده الذى تتكلمين عنه هو بو يى ، امبراطور منشوريا العميل الخائن . انه انا . اننى مدين لك بعذرى . "

وقبل ان أنتهى من كلامى نهض الوزراء العملاء السابقون واخبروها

بشخصياتهم . وكان احدهم مسؤولا عن العمل الاجبارى ، وكان الآخر مسؤولا عن ارسال الحبوب الى اليابان ، والثالث قائد عسكرى اجبر الرجال على الدخول فى الجيش العميل للقتال الى جانب اليابانيين .

فصعقت العجوز . ومع انها حزرت ان نكون من مجرمى الحرب المانشويين العملاء ، الا انها لم تعرف بوضوح شخصياتنا ، ولم تتخيل كذلك اننا سنطلب منها ان تصفى حسابها معنا .

كيف فى الواقع تعاملت معنا ؟ انها لم تشتم او تبكى ، كما انها لم تستدع الجيران او الارامل والايتام الذين قتل ذووهم فى الايام الماضية ليصبوا جام غضبهم علينا . بل قالت بدلا من ذلك متنهدة تنهيدة حزت فى قلبى : " لقد انتهى كل شيء الآن . لا داعى الى قول اى شيء آخر بخصوص ذلك . " ومسحت دموعها واستطردت قائلة : " انكم ما دمتم راغبين فى الدراسة فافعلوا ما يقوله الرئيس ماو وتحولوا الى اناس محترمين ، فانكم ستصبحون على ما يرام . "

كنا امامها نبكى فى صمت ، ولكن مع كلماتها هذه انفجرنا بالنحيب :

وقال ابنها فى صوت منخفض : " اننا نعرف اى نوع من الناس انتم : ان الرئيس ماو يقول ان الغالبية العظمى من المجرمين يمكن ان يعيدوا بناء انفسهم ، وما يقوله لا يمكن ان يكون خطأ . فاذا انتم اصلحتم انفسكم واعترفتم بذنبكم فان الشعب سيصفح عنكم . "

هكذا كانت شهامة الفلاحين الذين ظننتهم افظاظا وجهلة وانهم سينتقمون منا دون ان يلتفتوا الى سياسة اللين واعادة بناء النفس .

انهم الآن سادة انفسهم ، ومن خلفهم حكومة قوية وجيش قوى يقودهما الحزب الشيوعى . ومع ذلك فانهم عندما واجهوا السجناء الذين ارتكبوا فى حقهم اشنع الجرائم مثل هذا الكرم .

لماذا وثقوا بالحزب والرئيس ماو الى هذا الحد ؟ ولماذا قبلوا سياسة

الحزب ازاء اعادة بناء المجرمين عن طيب خاطر ؟ ولماذا كان الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية على ثقة تامة بأن الشعب سيقبل سياساتهما حتما ؟ اننى فى هذه الزيارة عرفت الجواب عليها .

التغيرات توضح كل شىء

كان مزاجنا فى نهاية زيارتنا التى استغرقت ثلاثة ايام متباينا تماما عنه عند ابتداء الزيارة ، فقد حلت المحادثة الحيوية محل الصمت المتجهم . وبقينا طوال اليومين الاولين من عودتنا الى السجن نتحدث فى موضوع جولتنا . وكان القول المتكرر هو : " ان الامور قد تغيرت ، والمجتمع قد تغير ، وجميع الصينيين قد تغيروا . " وطبعا كان موضوع التغيير هو الذى غالبا ما قرأنا عنه فى الصحف وفى رسائل الاهل او ما سمعنا عنه من سلطات السجن خلال السنوات القليلة الماضية ، ولكن بعض المجرمين منا اراد ان يختبر هذا بأنفسهم . ومن بين هؤلاء كان لاو يوان نزيل زنزانتنا ، وفى هذه المرة اقتنع هو الآخر .

وذات مساء كنا نتحدث عن الكعك الذى ذقناه بأنفسنا فى مطعم العمال ، فقال احدنا ان من المؤسف اننا لم نر ايا من الوجبات تطبخ على مواقد الغاز فى شقق العمال عندما شاهدنا الطعام الذى يقدم وقت العمل . فأخبرنا لاو يوان عند ذلك بما قد اكتشفه . فبينما كان بقيتنا يتفرجون على غرف العمال ذهب هو الى ما وراء المبنى لينظر الى داخل صناديق القمامة ، فشاهد عظام سمك وقشور بيض وبقايا طعام اخرى .

وكان لاو فو ، وهو ضابط تموين مع جيش الشمال الشرقى السابق قبل ان يصبح وزير زراعة فى حكومة " امبراطورية منشوريا " ، شخصا صموتا على نحو طبيعى ، ولكنه اليوم بدا حيويا : " فى ايام ' امبراطورية

منشوريا ' لم تكونوا تجدون سمكا او لحما فى بيوت العمال ، بل حتى قبل ذلك نادرا ما كان يرى اى منهما . ويجب ان اعرف — لقد بدأت الحياة موظفا صغيرا . "

وقال لاو تشنغ بصراحة ، وكان قد رباه اليابانيون : " عندما قرأت الصحف ودرست الوثائق السياسية فى الماضى اقتنعت فى بعض الاحيان وشككت احيانا اخرى ، وكنت اظن ان هذه القاعدة الصناعية فى الشمال الشرقى هى شيء خلقه اليابانيون . ولكن فى المصنع التابع للمدرسة الصناعية رأيت المخارط اليابانية القديمة ذات الحزام الجلدى قد حلت محلها هناك معدات صينية الصنع من طراز جديد ؛ فالآن اصدق ان الصينيين قد نهضوا حقا . لقد تغيروا حقا . "

ووافقت بالتأكيد على انهم قد تغيروا ، ونمت عندى احاسيس اخرى بخصوص الزيارة ايضا .

ان الشهامة المذهلة التى اظهرها لنا الناس خلال الايام الثلاثة من زيارتنا قد جعلتنى اتساءل هل يمكن ان يكون ذلك حقيقة واقعة . أكانوا مستعدين لتجاهل الجرائم التى ارتكبها الخونة ضدهم . هل لديهم حقا تلك الثقة بسياسة اعادة بناء المجرمين ؟ كيف يمكن ان يكون هذا ؟

ان التغيرات قد وضحت كل شيء . فمنذ اواخر القرن التاسع عشر وفوشون شهيرة بثروتها المعدنية ، ولكن اولئك الذين استفادوا من هذه الثروة لم يكونوا عمال المناجم الفقراء البائسين . وفى عام ١٩٠٥ خضعت المناجم المفتوحة للسيطرة اليابانية بعد هزيمة روسيا القيصرية ، وفى العقود الاربعة التى تلت وصل عدد عمال المناجم الذين ماتوا من شدة بؤسهم رقما يتراوح بين ٢٥٠ الف الى ٣٠٠ الف عامل .

وكان العمال ، ومعظمهم فلاحون عاطلون من شاندونغ وخبى والشمال الشرقى ، يأتون فى حشود كبيرة كل سنة . وكانوا يعملون اكثر من اثنتى

عشرة ساعة يوميا . ومعظمهم اقاموا فى " بيوت جماعية كبيرة " : وربما وصل عددهم فى القاعة الواحدة الى مائة او مائتين ، ولبسوا الاسمال على مدار السنة . وكان الكثير منهم يعجز عن ايجاد ملابس لمواليده ، وعندما يموت الاطفال جوعا ، يضطرون الى دفنهم عراة . وعلى الرغم من انخفاض اجورهم الزموا بدفع حصة منها الى المدراء والمراقبين . والذى يتبقى لهم كان لا يكفى لتأمين الطعام والكساء . علاوة على ذلك فان قلة منهم الذين استطاعوا تحمل اعباء الزواج ، وكان حوالى سبعين فى المائة من الرجال العاملين فى منجم لونغفنغ عزابا .

ولم يكن هناك اهتمام بمسألة الاحتياطات الامنية فى المناجم وكانت الانفجارات والانهيارات حوادث عادية . وقد تعود العمال ان يقولوا : " اذا اردت ان تصبح عامل منجم ، فعليك ان تغامر بحياتك . " وبعد انفجار غازى فى منجم عام ١٩١٧ ختم الملاك اليابانيون على المنجم ليمنعوا حدوث خسارة فى الفحم ، تاركين فى داخله ٩١٧ عاملا ليحترقوا احياء . وحدث فيضان فى نفس المنجم عام ١٩٢٨ مات فيه ٤٨٢ عاملا . ووفقا لاحصائيات " امبراطورية منشوريا " الرسمية فان ٢٥١٫٩٩٩ عاملا قد قتلوا واصيبوا فى هذه المناجم ما بين عام ١٩١٦ وعام ١٩٤٤ . وقد ملئ واد جبلى بجثث اولئك الذين لم يدفنوا داخل الحفر ، وسمى الوادى لذلك " قبر العشرة آلاف رجل " .

وفتح اليابانيون مكانا سموه " حديقة المتعة " كان يضم اكثر من الف مومس وصالونات للقمار وللافيون والمورفين .

وفى فوشون القديمة كانت هناك بيوت ممتازة لليابانيين وابراج الرفع الشاهقة للمناجم ، ولكن كان هناك ايضا متسولون وقطط ميتة واطفال ميتون بجانب نهر يانغباى ، واخرى عائمة فى البالوعات . وفى الشتاء كان يعثر على جثث جديدة كل يوم عند جسر يانغباى . وكان فى فوشون ايضا " اصلاحية "

خلال عهد " امبراطورية منشوريا " ، وهى معسكر حشد للعمال الذين عارضوا " امبراطورية منشوريا " واليابان .

لقد حدثت منذ ذلك الوقت تغييرات هائلة . فبدلا من الاكواخ الممتدة على مساحة ٣٥٠٠ متر مربع التى بناها اليابانيون للعمال خلال واحد وثلاثين عاما ، انتصبت مساكن جديدة للعمال على مساحة ١٧٠ الف متر مربع ، بنيت خلال السنوات السبع التى تلت التحرير . وقد زرنا هناك بيت عامل قد يكون واحدا من الـ ٨٠ فى المائة من عمال المناجم الذين تزوجوا منذ التحرير .

وفى تلك الغرف رأينا اللهب الازرق المنبعث من موقد غاز .

وحدثنا رئيس مكتب المنجم عن الغاز ونحن نمشى تحت الارض فى المسالك المؤدية الى منجم لونغفنغ . ان مناجم الفحم فى لونغفنغ وشنغلى ولاوهوتاى كانت تغص بالغازات — ذلك العدو اللدود لعمال المناجم فى كل العالم . وكانت لا تزال مرعبة بعيد التحرير ، لاسيما منجم لونغفنغ الذى انسدت مسالكه بالانهيارات الناجمة عن تخريب اليابانيين اولا والكومينتانغ من بعدهم . وكانت الغازات الكثيفة داخله تمنع من اعمال النسف او استخدام المعدات الكهربائية .

وفى خريف ١٩٤٩ اقترح احد مهندس المنجم على لجنة الحزب خطة لسحب الغاز بأنابيب الى السطح للانتفاع به والتخلص من خطره فى آن واحد . فأيدت اللجنة اقتراح المهندس واعرب العمال ولاسيما المسنون منهم وعيالهم ، انهم راغبون فى القيام بأى شىء لانجاح هذه الخطة . ونظم المشروع التجريبى . واندفع العمال الذين كانوا اعضاء فى الحزب الى الجبهة الاولية للنضال الذى شن ليلا ونهارا داخل الطرق المملوءة بالغازات تحت الارض . وفى البداية واجهتهم الصعوبات وهم يعملون وسط الغاز الكثيف ويتعرضون لمضايقات الجبناء والمحافظين على القديم ؛ ولكن فى ١ يوليو ١٩٥٠ تمت التجربة ، واندفع لهب ازرق من فوهة الانبوب الذى

يسحب الغاز من تحت الارض . وبكى العمال المسنون ، وصاح الشباب : " لقد انتصرنا ثانية . "

وقد ذكرتنى هذه التجربة بأغنية كنت قد سمعت بعض الاولاد يغنونها فى روضة الاطفال ذلك الصباح :

لو لا الحزب الشيوعى ،
لما كانت الصين الجديدة .

وفيما كنا نمشى فى الطريق التحتانى وصلنا الى دكان مشرق الانارة يبيع الفواكه والحلوى والمناشف والمناديل وغير ذلك . فتوقفنا هناك ، وشرح لنا دليلنا ان هذا المكان كان مستنقعا للقاذورات والجرذان ايام " امبراطورية منشوريا " ولم يكن احد يجرأ على مكافحة الجرذان بسبب خرافة شائعة تقول ان هذه الجرذان هى خيول الاله الطاوى لاو تسى (١٧) . وكان عمال المناجم يعبدونه طلبا للامن والرجاء فى حياتهم البائسة . فى هذه الايام القوا جميعا صور لاو تسى الى خارج بيوتهم . واخبرنا وهو يشير الى الارضية الخرسانية النظيفة بأن العمال كانوا يمشون حفاة فى الماء القذر هنا فى الماضى ، وانهم كانوا فى بعض الانفاق يعملون عراة .

ومررنا بعربات تجر كهربائيا لنقل الفحم الى الخارج . "كانت هنا فى الماضى طرق تمر بها القطارات فقط وغالبا ما داست القطارات على العمال الذين لا يجدون ممرا يسلكونه الى المنجم ، ولكن عدد الذين قتلوا بهذه الطريقة لم يكن يساوى شيئا بالطبع قياسا الى اولئك الذين قتلوا فى الانفجارات . وكان عمال المناجم يقولون انهم 'كتل من اللحم لاصقة داخل نفق الفحم' . كانوا يعودون من عملهم الطويل تحت الارض كل ليلة حامدين الصدف التى جعلتهم يخرجون احياء وكان هناك دائما حشد من اهالى العمال ، النساء والاطفال ينتظرون فى اعلى الوهدة حيث يخرج العمال ،

وحين لا يخرج عامل مع الخارجين يعرف اهله انه قد مات . وغالبا ما كانت الجثث تبقى فى مكانها . " واشار الى الجدار قائلا : " رأيت اربعة رجال دفنوا هنا احياء . لقد نزلت الى وهدة المنجم اول مرة وانا فى الرابعة عشرة من عمرى ، ولا اود ان اقول كم مرة اصطدمت بالموت منذ ذلك الحين . "

واخبرنا بمدى الذعر الذى كان يصاب به العمال اذا ما مرضوا . فمقاومتهم كانت ضعيفة جدا ، حيث ان اكواخهم خالية من التدفئة ، وثيابهم اسمال ، وفراشهم اكياس ، وحصتهم من الطعام ثمانى كعكات ضئيلة الحجم من الذرة فى اليوم . وكان اليابانيون اذا ما وجدوا احد العمال مريضا ، وضعوه فى مكان منعزل محروس حراسة مشددة ، ولا يعطونه الا طاسا من عصيدة الارز فى كل وجبة . وبعض المرضى كان يحرق قبل ان يموت ، او يدفن حيا فى " قبر العشرة آلاف رجل " . وقال لنا دليلنا ان والد الرجل الذى رأيناه قبل لحظة يقود القطار قد دفن حيا .

وبعد لحظة صمت تابع يقول لنا انه اوشك ذات مرة على الاختناق فى الجو العفن عندما كان داخل المنجم . وقد مرض عندما خرج ، ولكن المراقب هدده بالجلد اذا هو لم يعد الى الوهدة ثانية . ونظرا الى انه كان اصغر عامل فى الكوخ الذى يسكن فيه فقد جاء زملاؤه الكبار وطردوا هذا المراقب . وقال ان العمال الذين كان اليابانيون والمراقبون يخافونهم اشد الخوف هم سجناء من الجيش الثامن ، كانوا على استعداد لقتل مضطهديهم اذا هم قبضوا عليهم تحت الارض . وهذا يعنى ان اليابانيين قد اجبروا على معاملتهم معاملة افضل . وعلى الرغم من ان هؤلاء المساجين كانوا معزولين عن العمال الآخرين عزلة تامة ، الا ان مقاومتهم اظهرت لبقية العمال ان المراقبين واليابانيين ليسوا اكثر اخافة من فئران المنجم وان ايامهم قد اصبحت معدودة .

وادركت مدى التباين بين هذا العامل الواثق بنفسه وبينى انا عندما كنت

فى الماضى مريضا من اكل اللحم ، اتناول الحقن والدواء يوميا ، ويستبد بى الشعور بأن نهايتى قد اقتربت ، وبأننى فقدت كل كرامة انسانية . لقد كان فى تلك الايام لا يرى فى وفى امثالى اكثر من جرذان . فما رأيه بنا الآن ؟

وتذكرت الدموع التى ذرفها العمال المسنون عند سحب الغاز عبر الانبوب لأول مرة بنجاح وصيحات الانتصار التى اطلقها الشباب . لقد صار ممكنا ان تتكشف لهم حقائق المجتمع والبشر والطبيعة . كل شىء وكل واحد قد اعيد بناؤه . وماذا يهمهم من امبراطور ما دام المستقبل مستقبلهم ؟ هذا كان سببا آخر فى قدرتهم على ان يكونوا متسامحين معى . كل شىء قد تغير ، وكان ابرز تغيير اساسى هو ذلك الذى طرأ على الشعب . وبالتأكيد فلو لا الحزب الشيوعى لكانت جميع هذه التغييرات والشهامة التى قوبلنا بها مستحيلة .

لقاء الاقرباء

تعلمت من هذه الزيارة انه اذا كان الشعب سيصفح عنى فعلى ان اصبح انسانا حقيقيا . وقد تعلمت اشياء اخرى ايضا . فى اليوم الاول من الزيارة نظرت الى الحكومة الجديدة من المنظار القديم ، رافضا ان اصدق ان اى نظام يمكن ان يكون على علاقة بالجماهير قائمة على الثقة المتبادلة ، وفقا لما قرأته فى الكتب . وظننت ان السبب الذى جعل الحزب الشيوعى يملك هذه القوات المسلحة الجبارة وتلك الحكومة القوية هو مكره الشديد ومهارته الديماغوغية . وهذا ما جعلنى اخاف من ان يقتلونى تنفيسا عن غضبة الجماهير . وعرفت الآن ان السبب الذى جعل الشعب يدعم الحزب ويثق به هو الفوائد التى جناها من الحكم الجديد والتى لم يكن فى وسع ، ولا فى نية اى حكومة

سابقة ان تقدمها له .

كنت اقول فى نفسي انه من الطبيعى ان يفرح الفقراء بالمجتمع الجديد ، ولكن اولئك الذين كانوا اغنياء او كبراء فى الماضى والناس الذين كانوا على علاقة وثيقة بى او بأمثالى وابناء الاقليات القومية لن يكونوا راضين مطلقا . وبعد زيارتنا بوقت قصير زارنى بعض اقربائى ، فعلمت ان هذا الرأى كان سخيفا هو الآخر . فالواقع ان قطاعا كبيرا لا مثيل له فى التاريخ من جميع الطبقات الاجتماعية يشعر الآن بالرضا عن هذه الوضعية الجديدة .

لقد بدأنا نحن السجناء نتبادل الرسائل مع اقربائنا فى صيف عام ١٩٥٥ . واكتشفنا من هذه الرسائل ان اقرباءنا لم يعاملوا معاملة سيئة بسبب اننا مجرمون . فبعض الاولاد فى المدارس وبعضهم يعمل ؛ وبعضهم اصبح متخصصا وآخرون انضموا الى عصبة الشبيبة الشيوعية او الحزب الشيوعى . وقد فاجأتنا هذه الرسائل بقدرما شجعتنا ، وادركنا بمزيد من الوضوح معنى التغيرات الاجتماعية بالنسبة لنا . على اننا لم نكن سواء فى ذلك فبعض من كانوا اكثر تشككا بيننا اقتنعوا نصف قناعة فقط ، وقلة كانوا متحيزين كثيرا فذهبوا فى تأويلاتهم الى ما شاء لهم خيالهم . وعندما تسلم لاو تشانغ ، وهو جنرال سابق من العملاء ، الرسالة الاولى من ابنه وجدها تبدأ بما يلى : " السيد تشانغ ، اننى آسف ، ولكننى لا استطيع ان اخاطبك بأية طريقة خلاف هذه . . . " وكاد لاو تشانغ يجن من الحزن ، وتعاطف معه كثير من السجناء الآخرين . وتمتم بعضهم : " هذه اذن الطريقة التى يربى بها المجتمع الجديد الشباب . لأن الوالد فى السجن فان الابن لم يعد يريده . " ولم يسعنى الا ان اتذكر كيف قال تشن باو تشن ان الشيوعيين قساة غير عادلين . وكان لاو ليو ، وهو جنرال سابق آخر فى نفس زنزانة بو جيه ، مولعا جدا بابنته ، وكان شديد القلق على ان تكون قد اصبحت ضحية للمعاملة السيئة . وكان فى السابق كثير التشكك بخصوص الصين الجديدة ، ولكنه

قرأ الآن فى رسالة جاءته منها انها تعال اعالة جيدة وانها قبلت فى عصبة الشبيبة . وان منظمتها تعتنى بها عناية جيدة ، ولها كثير من الصديقات ، وقد ارسلتها الدولة الى مدرسة فنية ، وذلك تحقيقا لطموحها السابق . وهز لاو ليو رأسه الاشيب وقال : " حتى اذا كانت كل كلمة فيها صحيحة ، فاننى لن اصدق ما لم ارها بأم عينى . " ومنذ عام ١٩٥٦ صرنا نجد الجواب لكل اسئلتنا ، وعلمت ان القضايا التى عواجت لم تكن فقط قضايا عوائل بمفردها ، بل قضايا الامة بكاملها والجيل الناشئ بكامله .

فى ١٠ مارس ، بعد زيارتنا بثلاثة ايام ، طلب السجان منى ومن بو جيه وزوجى شقيقتى وابناء اشقائى الثلاثة ان نذهب الى مكتب مدير السجن . ودخلنا الى غرفة الاستقبال ، فرأينا لشدة دهشتنا عمى تساى تاو وشقيقتى الثالثة والخامسة . وكنا قد فصلنا عن بعض منذ اكثر من عشر سنوات .

وعندما رأيت عمى يبدو معافى كالسابق وشقيقتى فى ملابسهما المحشوة بالقطن شعرت كأننى فى حلم .

كان تساى تاو القريب الوحيد من بين اقربائى من الجيل السابق الذى ما يزال على قيد الحياة . فى عام ١٩٥٤ تم انتخابه للمجلس الوطنى لنواب الشعب مندوبا عن قومية المانتشو البالغ عددها مليونين . وكان كذلك عضوا فى اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى . واخبرنى انه قابل الرئيس ماو قبل بضعة ايام فى الاجتماع الثانى للمجلس ، حيث قدمه رئيس مجلس الدولة شو ان لاى الى الرئيس ماو على انه السيد تساى تاو عم بو يى . فصافحه الرئيس ماو قائلا : " لقد سمعت ان دراسة بو يى تجرى على نحو جيد تماما ؛ يمكن ان تذهب لزيارته . "

واختلج صوت عمى بالعاطفة الشديدة وهو يحدثنا حتى انه لم يكد يسمع ، ولم اقو انا على كبح دموعى . وبكينا جميعا ، وفى النهاية شرع ابن شقيقى روى الصغير ينتحب بصوت عال .

وتعلمت فى هذا اللقاء مع اقربائى اننى لست الوحيد الذى انقذ بل عشيرة آيشين — جيولوه وقومية المانتشو كلها ايضا .

واخبرنى عمى ان عدد قومية المانتشو الذى كان قبل التحرير ٨٠ الف نسمة فقط قد بلغ ثلاثين ضعفا فى الوقت الحاضر . وفهمت مغزى هذا التغير . وعرفت حالة البؤس التى عاشها حملة الراية تحت حكم امراء الحرب من زمرة بييانغ وحكومة الكومينتانغ ، عندما وجدوا صعوبة كبيرة فى الحصول على عمل اذا لم يتظاهروا بأنهم من قومية الهان . فغير كثير من ابناء عشيرة آيشين — جيولوه اسماء عوائلهم الى جين او تشاو او لوه . اسرة والدى فى تيانجين مثلا اتخذت اسم جين . وبعد التحرير اعترف الكثير من ابناء قومية المانتشو بقوميتهم ، وعندما سجلوا جميعا بعد اعلان الدستور دهش حتى المانشويون انفسهم لعددهم الاجمالى البالغ ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة .

وتذكرت غضبى عند سرقة المدفن الشرقى والعهد الذى قطعته على نفسى امام لوحات اسلافى اننى سأنتقم لهم . ولكن الذى فعلته فى الواقع قد عجل فى تدمير ابناء قومى وعشيرتى ، الذين لم يجدوا مستقبلا مأمونا الا بعد انهيار زمرتى وانهيار اليابانيين الذين ادعوا انهم يدعموننى . والبرهان على ذلك هو التغير من ٨٠ الف نسمة الى ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة .

ان هذا التغير التاريخى لم يؤثر فحسب فى الشباب من عشيرة آيشين — جيولوه بل فى الـ " بى — له " (١٨) تساى تاو وفى شقيقتى ايضا . كان عمى حينذاك فى التاسعة والستين لكننى لم ار فيه علامة شيخوخة وهو بهذه الحيوية فى الجسم والعقل . ولاحظت ان طريقته التقليدية فى التحدث معى لم تتغير . وقد حدثنى انه عمل بعد التحرير فى ادارة لجيش التحرير الشعبى كانت مسؤولة عن الخيل ، وشعر بنشوة كبيرة وهو يخبرنى كيف امضى بعض الوقت فى حضاب الشمال الغربى . وكان حينذاك يخطط للقيام برحلة تفتيشية عن اوضاع الاقليات القومية باعتبار ذلك جزءا من مهماته كعضو فى المجلس

الوطنى لنواب الشعب :

عند دخول جيش التحرير الى بكين قلق العديد من ابناء المانتشو لاسيما افراد عشيرة آيشين — جيولوه ولم تذهب مخاوفهم حتى بعد اصدار بيان جيش التحرير الذى تضمن ميثاقا من ثمانية بنود لضمان ارواح وممتلكات ابناء الشعب على اختلاف انتماءاتهم من غير اعداء الثورة والمخربين . وكان معظم المقيمين فى بكين من هؤلاء اشخاصا عاديين ليسوا اعضاء فى " طبقة النبلاء الجديدة " لـ " امبراطورية منشوريا " او فى نظام وانغ جينغ وى العميل . ولكن بعضهم لم يفقد ، بعد ، احترامه الخرافى الشخصى ، وقد ذعروا اكثر عندما سمعوا انى سجين . وزد عليه ، لم تكن لدى ابناء قومية المانتشو المفقرين ، والمتناقصى العدد ، اوهام ازاء جيش التحرير الشعبى . وكانت دهشتهم الاولى عندما علموا ان الحكومة الشعبية فى الشمال الشرقى قد فتحت مدرسة خاصة لأبناء المانتشو . وفيما بعد رأوا مندوبين عن القومية يشتركون مع مندوبين من جميع الاوساط الاخرى فى اجتماعات المؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى الذى ناقش المنهاج المشترك (١٩) وقد زار كوادر من الحكومة الشعبية بيوت البعض منهم ليتحدثوا معهم حول مندوبيتهم الى المؤتمرات الاستشارية السياسية المحلية . وحثهم الكوادر على تقديم اقتراحاتهم بشأن الامور المتعلقة بقوميتهم وان يسهموا بجهودهم فى بناء مجتمع جديد .

كانت اعمار جميع ابناء جيلى فى بكين من سلالة والد جدى الامبراطور داو قوانغ والامير دون والامير قونغ والامير تشون فوق الستين ، ما عدا قلة من ابناء عمومتى كانوا اصغر سنا . وكان ابن عمى الثانى بو جين (معروف ايضا باسم بو شيويه تشاى) ، رساما بارزا وخطاطا وعازفا على الـ " قو تشنغ " (اداة وترية صينية قديمة) ، وكان حينذاك قد تجاوز الستين . وقد دهش حين وجد نفسه قادرا على انزال اداته الموسيقية عن الجدار مرة ثانية والذهاب

مرة كل اسبوع الى ضفاف بحيرة بيهاى فى بكين ليطلق العنان لعاطفته بهذا الفن القديم مع اصدقائه القدامى والجدد ، حيث رأى مستقبلا مشرقا للموسيقا الكلاسيكية الصينية لدى الشباب الذين كانوا طلابه . والاكثر من ذلك انه انتخب نائب رئيس لجمعية البحث فى آلة " قو تشنغ " ورئيسا لجمعية دراسة الخط ؛ ودعى الى حضور المؤتمر الاستشارى السياسى على مستوى المنطقة ؛ واصبح معلما فى اكاديمية الرسم الصينى . وكان شقيقه بو جيان يعلم الرسم الصينى ايضا . وكان ابن عمه بو شيو " دليل بوابة تشيان تشينغ " داخل المدينة المحرمة وهو الذى اعتنى بممتلكاتى فى تيانجين عندما كنت فى تشانغتشون ، ولكنه منذ فقد بصره اصبح غير قادر على كسب معيشته . وبعد التحرير قدرت السلطة الجديدة تقديرا عاليا خبراته ومعلوماته التاريخية وعينته عضوا فى احد معاهد الادب والتاريخ . وكانت هذه المعاهد قد اسست فى جميع انحاء البلاد وضمت علماء كانوا قد اجتازوا الامتحانات الامبراطورية فى عهد اسرة تشينغ ، واعضاء شهدوا احداث فترتى امراء الحرب وتشيانغ كاى شيك ، واعضاء اشتركوا فى ثورة ١٩١١ ، واعضاء من المنظمة الثورية المبكرة — تونغ منغ هوى ، وحتى من الذين كانوا مغمورين فى اسرار البلاط الاقطاعى الاخير . فأفعم بو شيو بالثقة فى الحياة ، واعاد سرد ما تذكره عن تاريخ اسرة تشينغ للآخرين ليكتبوا نيابة عنه .

هذه الظواهر التى بدت طبيعية بالنسبة للمجتمع الجديد كانت جديدة كل الجدة بالنسبة لى فجعلتنى اتأثر تأثرا عميقا . ولكن الشىء الذى ترك عندى اعمق الانطباع هو التغيير الذى رأيته فى شقيقتى .

قبل ستة اشهر تقريبا تبادلت الرسائل مع اخوتى واخواتى فى بكين . فأدركت مما كتبوه ان تغييرات كبيرة قد طرأت على اسرتى ، ولكننى لم افكر فى هذه المسألة تفكيرا جادا . خلال ايام " امبراطورية منشوريا " كان جميع اخوتى واخواتى ، ما عدا اخى الرابع واختى السادسة والسابعة ، يقيمون

معي في تشانغتشون ، وقد رافقوني في هربي الى تونغهوا . وبعد ان اسرت قلقت خشية ان يعاملوا على انهم خونة . كان زوج اختي الثانية هو حفيد رئيس وزراء " امبراطورية منشوريا " تشنغ شياو شيوى ، بينما زوجت الاخت الثالثة الى شقيق زوجتي الاولى الاصغر ؛ وتزوجت الاخت الخامسة ابن رئيس اركان تشانغ شيون ، الجنرال الماكي الذى اعادني الى العرش عام ١٩١٧ . وكان هذان الزوجان كلاهما برتبة مقدم في جيش " امبراطورية منشوريا " .

وكان والد زوج اختي الرابعة هو الموظف الرسمي لأسرة تشينغ الذى ساءت سمعته لقتله امرأة ثورية بارزة تدعى تشيو جين عام ١٩٠٧ . وكان جميع ازواج اخواتي اما ضباطا واما موظفين لدى النظام العميل . وكان زوجا اختي السادسة والسابعة وحدهما طالبين منتظمين ، ولكنني كنت ما ازال قلقا على هاذين الاختين من ان تكونا قد تعرضتا لسوء بسبب ان شقيقهما الاكبر هو كبير الخونة . وقد عمت هذه المخاوف جميع المساجين ، ولكن مخاوفي كانت اشد بكثير مما لدى الآخرين . ثم اظهر لي تبادل الرسائل بيني وبين اسرتي ان قلقي لم يكن له مسوغ . فأشقائي وشقيقاتي قد تمتعوا بنفس الحق في العمل كالآخرين ، وامكن لأبنائهم ان يدخلوا المدارس ويتلقوا المنح الدراسية المعتادة . وكان شقيقي الرابع واختي السابعة ما يزالان معلمين في مدارس ابتدائية ، وكانت اختي السادسة رسامة واختي الخامسة خياطة ، وكانت اختي الثالثة نشيطة اجتماعيا فاختارها جيرانها عضوة في لجنة الزقاق مسؤولة عن الامن . وعلى الرغم من انهن كن يطبخن ويعتنين بأولادهن ، الا ان رسائلهن قد اظهرت انهن راضيات مسرورات . فلم اعد قلقا عليهن . والآن ، وقد رأيت هاتين الشقيقتين مرة ثانية وسمعت ما قالتاه لزوجيهما ، بدأت افكر فيهما اكثر فأكثر .

وما ازال اتذكر كيف حملق لاو وان زوج الاخت الخامسة وسألها : " أتستطيعين حقا ان تركبي دراجة ؟ أ تستطيعين ان تخيطي ايضا ؟ " هذه

كانت الاشياء التى اذهلته فى رسائلها ، فأراد ان يسألها عن ذلك شخصيا . وكان لديه السبب الكافى الذى يجعله مندهشا . فعندما كانت طفلة لم تكن تجرؤ حتى على الجرى ، وعندما كبرت احاطت بها الوصيفات والخادمات ، فلم تدخل مطبخا قط كما لم تلمس مقصا ؛ فكيف امكنها الآن ان تركب دراجة الى العمل وان تستخدم مقصا لتفصيل الثياب ؟ وهل هى خياطة تعيل نفسها حقا ؟

وكان الاشد اثارة للعجب هو الطريقة التى اجابت بها على اسئلتنا : " وما الغريب فى ذلك ؟ هذا شيء لا يستحق الذكر . "

وكانت الاخت الثالثة قد مرت بامتحانات اصعب . فنظرا الى ان ابنها كان مريضا فانها لم تعد الى بكين مباشرة بعد استسلام اليابانيين ، بل مكثت فى تونغهوا مع مربيتين . لم يكن لديها ممتلكات وخافت من لفت الانظار بسبب اصلها ومجوهراتها وثيابها الفاخرة ففتحت كشكا لبيع السجاير فى تونغهوا وكادت ان تقع فى فخ عملاء الكومينتانغ كما خدعها تاجر باعها كبريت (شخاط) لا يشتعل . وبعد بضع سنوات من هذه الحياة غير الآمنة عادت الى بكين عام ١٩٤٩ . ونظرا الى انها عرفت شيئا عن سياسات الحكومة خلال احتكاكها بجيش التحرير الشعبى والحكومة الشعبية فى الشمال الشرقى ، وكذلك لما تمتعت به من ثقة جيرانها ، تم اختيارها لعضوية لجنة الزقاق . وكان جزء من عملها الذى تحدثت عنه بحماسة عظيمة هو شرح قانون الزواج الجديد .

لن يكون هذا مدهشا لأناس آخرين كما هو لى . لقد كانت هذه الاخت اكثر دلعا من الاخت الخامسة فى الماضى ، وكانت تسألنى دائما عن الهدايا التى اقدمها للناس وتريدها لنفسها . من كان يتوقع ان هذه الفتاة الكسولة المدللة التى لم تكن قادرة الا على طلب الاشياء ستصبح نشيطة اجتماعيا ؟ كان ذلك مما يصعب تصديقه وفهمه . . . لكنها كانت واعية للاسباب والحوافز

التى جعلتها داعية متحمسة لقانون الزواج الجديد والتى دفعتها احيانا الى ان تنفجر بالدموع وهى تقرأ الصحف .

فعلى الرغم من انها كانت مثقفة ثقافة جيدة وامرأة من النبيلات ، الا ان حياتها فى الماضى كانت تافهة عديمة المعنى . وعندما كانت مقيمة مع زوجها فى اليابان كتبت اليها مرة اطلب منها ان تخبرنى بالحياة اليومية فى تلك البلاد . فكان جوابها كما يلى : " اننى اجلس فى غرفتى مع خادمتى وهى تكوى لى ثيابى بجانبى . وخارج النافذة خادم عجوز يسقى الازهار ، وكلب صغير يرنو ، وهو رابض ، الى صندوق الحلوى . . . هذا كل ما استرعى انتباهى . " لكنها الآن تحيا حياة ذات معنى وعندما تجلس فى الزقاق لتقرأ الجرائد لجيرانها وهم يصغون اليها بانتباه فانها تستعيد الشعور بوجودها . وقد علقت وهى تقص على ذلك : " فى الماضى لم اكن الا حلية . "

وحدثتنى عن تجربتها يوم كانت فى تونغهوا بعد استسلام اليابانيين : " ذات يوم جاءت الميليشيا الشعبية الى وقالت ان ابناء الشعب يعقدون اجتماعا ويريدوننى ان احدثهم فيه عن الماضى الذى عشته . وكنت مذعورة من اجتماعات النضال ضد الخونة وكنت مستعدة لأن افعل ما يريدون اذا عفوا عنى . وفى ذلك الوقت رأيت بعض الكوادر ممن اخبرونى بألا اكون خائفة حيث ان الجماهير متعقلة تماما . وتوجهت الى المنصة وانا ارتعش خوفا ، وحدثتهم عن حياتى . وكانت هناك حشود ضخمة من الناس فيهم من جاؤوا لمجرد رؤية الاميرة . وعندما انتهيت من كلامى بدأ نقاش هامس . ثم نهض احدهم وقال : ' انها لم تتصرف هى نفسها اى تصرف سيئ ، لذلك ليس لدينا اى شيء ضدها . ' فوافق كل من هناك على هذا الرأى وانتهى الاجتماع . وعندها ادركت ان الشعب متعقل جدا . "

وهذه النقطة الاخيرة هى ما فهمت انا كذلك ولو بعد حين .

وفى اليوم التالى من لقائى بالاسرة صادف ان استلمت رسالة من الشقيقة الثانية ، قالت فيها ان ابنتها الكبرى فى السنة الثانية من كلية الرياضة البدنية وانها اصبحت مدربة غير متفرغة بارزة للسائقين . ولقد سافرت مؤخرا على دراجة نارية من تيانجين الى هانكو وكتبت اختى بكل سرور عن ان ابنتها التى كانت آنسة ارستقراطية قبل اثنتى عشرة سنة قد اصبحت الآن لاعبة ممتازة وان ابناءها الآخرين مجدون فى المدرسة كذلك . وعندما ذكرت هذا للاختين الخامسة والثالثة مسحتا الدمع من عيونهما وحدثتانى عن ابنائهما حديثا مماثلا . واقنعنى ذلك بأن قدر عشيرة آيشين — جيولوه قد تغير حقا .

قمت ذات مرة بحساب على اساس " السجل اليشبى " للاسرة الامبراطورية الذى اعيد تصنيفه عام ١٩٣٧ والمعلومات التى زودنى بها اخوتى واخواتى حول معدل عدد الوفيات بين اطفال فرعى فى عشيرة آيشين — جيولوه . فتبين ان ٣٤ فى المائة من الاطفال ماتوا فى عهد اواخر اسرة تشينغ ، و١٠ فى المائة خلال فترة الجمهورية ، ولا احد من الاطفال مات خلال السنوات العشر التى تلت التحرير . اما ارقام العشيرة فى جملتها فهى اعجب من ذلك حيث ان حوالى ٤٥ فى المائة من الاولاد والبنات من جيلى وجيل والدى ماتوا فى طفولتهم — دون الثانية من العمر فى الغالب .

هذه الحسابات لم اقم بها عندما قابلت عمى واختى ولو انها ذكرتنى الموت المبكر لعدد كبير من اطفال اسرتى فى الماضى . فى ذلك الوقت لم تكن مواهب وقدرات الجيل الاكبر تزيد على حمل اقفاص الطيور . ولم يكن لديهم ما يفعلون غير الانسلال من البوابة الخلفية واقفاص الطيور فى ايديهم ، او الجلوس لشرب الشاى من الفجر الى الغداء حيث تصف عشرة اطباق من الطعام لأجل العرض . فاذا انتهى الغداء اخذوا بالعربدة على اهل الدار .

اما الصغار فنادرا ما كانوا يدركون الحاجة الى تعلم اى شىء غير خدمة

ذويهم الكبار ومحاكاتهم . وعندما حل بهم الفقر عجز بعضهم عن مزاولة اى عمل لاعالة انفسهم وفشل آخرون فى ايجاد عمل لاظهار مواهبهم . وقد حدثت حالات كثيرة كهذه بعد جمهورية ١٩١١ .

لكن الامور تغيرت تماما الآن . فصغار الاسرة قد ضمنت حياتهم ومستقبلهم بشكل غير متوقع فى الماضى . ان لدى شقيقى وشقيقاتى الست فى بكين سبعة وعشرين ولدا جميعهم فى المدارس والجامعات عدا من هم دون سن الدراسة ، ولدى عمى تساى تاو ستة عشر حفيد او ابن حفيد يعمل احدهم فنيا فى محطة كهرمائية وواحدة منهم من المتطوعين الشعبيين وقد ابلت بلاء حسنا فى كوريا ، والاخرى شغيلة ثقافة فى الجيش والبقية (ما عدا من هم دون سن الدراسة) يدرسون او يشتغلون . واصبحت حياة الماضى فى نظرهم مجرد مهزلة .

ولقى احد افراد هذا الجيل الاصغر مصيرا مختلفا . فقد كتبت زوجة اخى بو جيه الى زوجها من اليابان تقول له ان ابنتهما الكبيرة ، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، قد انتحرت مع صديقها الشاب بسبب قضية حب ، وقد سمعت منذ ذلك الحين كثيرا من الروايات المختلفة لهذه القصة ، وانا على قناعة بأن الشاب كان سيئ الحظ مثل ابنة اخى . هكذا كان التباين فى مصير الشباب فى فترات ومجتمعات مختلفة .

منذ تلك السنة والزيارات العائلية الى السجن مستمرة . ومما يستحق الذكر ذلك اللقاء الذى تم بين لاو ليو ، الاكثر تشككا ، وبين ابنته التى كانت تدرس لتصبح فنانة . فقد زارته مع زوجها المقبل . وسألته :

ـــ ألا تصدق ذلك يا والدى ؟ اننى فى مدرسة فنية . وهذا هو خطيبى .

فأجابها والدها قائلا :

ـــ نعم اصدق الآن .

ـــ هل تعرف اننى ما كنت لأستطيع دخول المدرسة الفنية لو لا قيادة

ماو تسى تونغ ؟

— اعرف ذلك .

— ما دمت تعرف هذا فعليك ان تدرس جيدا وتصلح نفسك .

ان لاو تشانغ كاد فى السابق يفقد عقله عندما تسلم رسالة خاطبه فيها ابنه بكلمة " السيد " . ولكن ابنته الآن جاءت لتزوره ومعها رسالة من شقيقها . وقد اطلع تشانغ كل واحد فى السجن تقريبا على هذه الرسالة ، وفيما يلى نصها :

والدى العزيز :

اننى ارى الآن اننى كنت " يساريا " متطرفا . ان التعليم الذى تلقيته من عصبة الشبيبة ونقد رفاقى لى صحيحان تماما : كان ينبغى لى ألا اتخذ منك موقفا كهذا . . . ما هى الصعوبات التى تعترضك فى دراساتك ؟ اظن انك تستخدم القلم فى دراساتك ، لذلك اشتريت قلما وطلبت من اختى ان تجلبه لك . . .

مجرمو الحرب اليابانيون

فى يونيو ويوليو ذهبت انا وبعض السجناء بصفتنا شهودا الى شنيانغ لحضور المحكمة العسكرية التى تحقق فى قضايا مجرمى الحرب اليابانيين .

وقد قرأت فى الصحافة ان اكثر من الف مجرم حرب يابانى قد اعتقلوا فى الصين ، بعضهم فى فوشون وآخرون فى تاييوان . وجميعهم ممن ارتكبوا جرائم خلال الغزو اليابانى للصين . وفى يونيو ويوليو عام ١٩٥٦ حكم على خمسة واربعين منهم فى شنيانغ وتاييوان ، بينما لم تقدم البقية الى المحكمة بل اعيدوا الى بلدهم بمساعدة الصليب الاحمر الصينى . وهناك ستة وثلاثون سجينا من مجموعة فوشون قد حكم عليهم فى شنيانغ على دفعتين . وكنت

اعرف احوال بعضهم ايام " امبراطورية منشوريا " ، وسمعت آخرين منهم يتحدثون فى اجتماع فى سجن فوشون . واحدهم كان فورومى تادايوكى ، نائب رئيس سابق لـ " مكتب الشؤون العامة فى مجلس الدولة لامبراطورية منشوريا " . وكنت انا واربعة وزراء عملاء سابقين سندلى بشهادة ضده وضد رئيسه تاكيب روكوزو . وكان فورومى هو الذى سيحاكم اولا ، وقد حكم عليه فيما بعد بالسجن ثمانية عشر عاما (٢٠) .

ولدى دخولى قاعة المحكمة فكرت فى الانتصار فى الحرب الكورية والتوقيع المظفر لاتفاقية جنيف ومركز الصين فى العالم منذ تأسيس الجمهورية الشعبية . ان محاكمة مجرمى الحرب اليابانيين على الاراضى الصينية امر ليس له نظير من قبل .

عندما انتصر متطوعو الشعب الصينى والجيش الشعبى الكورى فى كوريا ظننت انه لا امل لى ما لم اعترف بذنبى واضع نفسى تحت رحمة الشعب الصينى . ومع جلب مجرمى الحرب اليابانيين الى المحكمة الآن لم اعد قلقا على مستقبلى ، بل ملئت بدلا من ذلك بالزهو الوطنى . وفكرت بالاضافة الى ذلك فى مشكلات اخرى كثيرة .

فى القسم الاخير من الخطاب الذى القاه فورومى قبل الحكم عليه قال شيئا كهذا :

ليس هناك انش مربع من الارض فى الشمال الشرقى بأكمله الا ويحمل اثر الهمجية الامبريالية اليابانية ، وجرائم الامبريالية كانت جرائمى . اننى اعترف من اعماقى بأننى مجرم حرب انتهكت القانون الدولى والمبادئ الانسانية انتهاكا صريحا بارتكابى اشنع الجرائم ضد الشعب الصينى ، واننى اعتذر للشعب صادقا عن جرائمى هذه . طوال السنوات الست الماضية عاملنى الشعب الصينى معاملة انسانية على الرغم من اننى مجرم مرعب ، واتاح لى فرصة لافكر مليا فى جرائمى . وبفضل هذا استعدت وعيى وعقلى ، وتعلمت

اى طريق يجب ان يسلكه الناس . اننى لا اعرف كيف يمكننى ان ارد هذا العطاء الكريم الذى منحنى اياه الشعب الصينى .

واذكر اننى بعد ان ادليت بشهادتى سأله القضاة عما يريد تقديمه من الملاحظات . فانحنى انحناءة شديدة وقال ان كل كلمة من شهادتى صحيحة .

وعادت بى افكارى الى المحكمة العسكرية الدولية فى طوكيو . فهناك استخدم مجرمو الحرب اليابانيون محامين لاثارة المتاعب ومهاجمة الشهود . واتبعوا ، املا فى تخفيف احكامهم ، كل وسيلة ممكنة لتغطية جرائمهم . ولكن فى هذه المحكمة اعترف جميع مجرمى الحرب بذنبهم وخضعوا للعقوبة .

وقد اخبرنى شقيقى وزوجا شقيقتى الشىء الكثير عن السجناء اليابانيين . وكانوا قد ساعدوا فى ترجمة اعترافات هؤلاء السجناء والرسائل التى ابردها بعضهم من اليابان بعد ان اعيدوا الى بلدهم . وعندما اطلق سراح زوجى شقيقتى كان بو جيه ولاو بانغ وآخرون هم الذين قاموا بهذا العمل . ومنذ عام ١٩٥٦ وانا اسمع العديد من القصص عن مجرمى الحرب اليابانيين .

كان احدهم قائدا عسكريا ، وعندما بدأ جهاز التحقيق عمله عام ١٩٥٤ لم يخبرهم بشىء تقريبا . ولكنه اعترف فى هذه المحكمة بأنه قد وجه رجاله لارتكاب ست مذابح جماعية للمدنيين فى خبى وخنان . ففى اكتوبر ١٩٤٢ قامت على سبيل المثال وحدة تحت قيادته بذبح اكثر من ١٢٨٠ مواطنا من سكان قرية بانجيادای واحراق نحو الف بيت . وبعد ان حكم عليه بالسجن عشرين عاما قال للصحفى انه يستحق ان يحكم عليه بالاعدام ، واخبره كيف استجوب وحوكم على نحو منصف . ولقد زود ايضا بمحامى . " عندما اتذكر كم قتلت من ابناء الشعب الصينى وكم جعلت الحياة صعبة لعيالهم يتفطر قلبى ألما وانا ارى اقرباءهم بالذات هم الذين يعتنون بى

الآن . "

وقابل الصحفيون عقيدا يابانيا سابقا على المركب الياباني الذى كان عائدا به الى بلده دون ان يحاكم . ونظرا الى انه كان غاضبا جدا عندما سأله مرؤوسوه فى السجن عن جرائمه ، فقد املوا انه سيقول شيئا ما ضد الصين . وعندما لم يقل ما ارادوا ، سأله احدهم :

— لماذا تستمر فى التحدث على هذا النحو ؟ أما تزال خائفا من الصين ؟

فأجاب :

— اننى على متن مركب يابانى ، فلماذا اكون خائفا من الصين ؟ انا اقول لكم الحقيقة ، هذا كل شيء .

كان زوج اختى الثالثة مسئول المرضى فى احدى ردهات التمريض . وكان هناك مجرم حرب يابانى يثير المتاعب دائما للممرضات والسجانين ولا يحترم لوائح السجن ؛ ولكنه فى حفلة وداع اقيمت بعد اعلان اطلاق سراحه انفجر بالدموع والقى خطابا تحدث فيه عن اخطائه . وكان هناك مريض آخر ليس متعبا كالسابق ، الا انه رفض ان يعترف بذنبه . وقد ارسل الى المستشفى لاجراء عمليتين طارئتين لسرطان مميت فى المستقيم ، وتبرع الطبيب له بشيء من دمه لانقاذ حياته . وبعد ان غادر المستشفى تحدث فى اجتماع كبير كيف ذبح وعذب ابناء الشعب الصينى فى الماضى ، وقارن هذا بالطريقة التى اتبعها ابناء الشعب الصينى لانقاذ حياته عندما كان يحتضر . وطوال تحدثه وهو ومستمعوه يذرفون الدموع .

وذات مرة ، عندما كنا نسوى ارض الملعب لنبنى احواض ازهار ، استخرجنا هيكلا عظميا ، قحفه مثقوب برصاصة . فقال لاو يوان ولاو شيان اللذان درسا شيئا من الطب الحديث انه لفتاة . وفيما بعد ترجم زوج شقيقتى ، لاو وان ، مقالة لمجرم حرب يابانى كان مدير هذا السجن فى الماضى ، يصف فيها الحياة الجهنمية للسجناء الذين كانوا محتجزين هناك . كان

المكان يضج بصرخات المعذبين وصدى قعقعة السلاسل . وكان متعفنا قذرا تكتسى جدرانه فى الشتاء بالجليد ، وفى الصيف يمتلئ بالذباب والبعوض . وكان السجناء لا يعطون فيه الا طاسا صغيرا من الذرة الرفيعة كل يوم ويتعين عليهم ان يقوموا بالاعمال الشاقة من الفجر الى الغروب . وكثير منهم ضربوا واجهدوا فى عملهم حتى الموت . ومضت هذه المقالة تصف التغييرات التى طرأت على السجن منذ ذلك الحين والتباين الحاد بين الظروف فى الماضى والظروف التى عاشها هو نفسه سجينا .

وكتب كثير من مجرمى الحرب رسائل ومقالات قالوا فيها انهم شعروا بالخوف والكراهية عندما اعادهم الاتحاد السوفياتى الى الصين . وبعضهم ، مثلى انا ، حاول ان يفهم الامور على ضوء ايديولوجيته القديمة ، واخفق فى ان يرى لماذا عامله الشعب الصينى هذه المعاملة الكريمة . وعندما رأوا المرجل يبنى تخيلوا انه سيكون غرفة للقتل ، وعندما رأوا التسهيلات الطبية يزود بها السجن قدروا انهم سيخضعون للتجارب كما كان يحدث للسجناء ايام حكمهم ؛ وآخرون رأوا فى هذه المعاملة اللينة والانسانية علامة ضعف ، ولكن انتصارات متطوعى الشعب الصينى فى كوريا بينت لهم ان الشعب الذى عاملهم بهذه الحكمة لم يكن ضعيفا قط . وفى الحقيقة ان علامة الضعف هى القسوة والهمجية .

لقد شاع الكثير عن التغيرات التى طرأت على مجرمى الحرب اليابانيين قبل ان اسمع بها ، اذ كنت منهمكا فى مشكلاتى الخاصة مما منعنى من ان افكر فيهم . والواقع ان هذه التغيرات قد اصبحت اكثر فأكثر وضوحا منذ عام ١٩٥٤ او نحو ذلك ، وقد كتب بو جيه فى يومياته لعام ١٩٥٥ يصف المسرحيات وعزف الموسيقا والرقص التى اداها السجناء اليابانيون . واحدى المسرحيات كانت حول الآثار المرعبة التى خلفتها القنبلة الذرية التى القيت على ناغازاكى . وذكر ايضا اللقاءات الرياضية التى اقامها السجناء اليابانيون

على ارض الملعب الذى مهدوه بأيديهم .

والآن ، عندما استرجع ذكريات التغيير الذى طرأ عليهم ، اراه واضحا جدا . لماذا اصبح هؤلاء السجناء سعداء جدا ومنشرحى الاسارير ؟ لماذا اخذوا معهم بعد اطلاق سراحهم الادوات الموسيقية التى كانت سلطات السجن قد اعطتهم اياها وعزفوا والدموع فى اعينهم وهم ينظرون الى الصين من على متن المركب اليابانى الذى كان يأخذهم الى وطنهم ؟ لماذا كانوا مولعين بغناء " طوكيو — بكين "؟ لماذا قال حتى اولئك الذين حكم عليهم : " اننا متشكرون للشعب الصينى ونشعر بالخجل من . . . "

ان الرسائل التى ارسلها مجرمو الحرب اليابانيون الذين اعيدوا الى بلدهم غالبا ما احتوت عبارات كهذه : " لقد تعلمت فى الصين كيف ينبغى للمرء ان يعيش " ؛ " الآن اصبحت اعرف ما معنى الحياة " ؛ و " عندما خطوت الخطوة الاولى فى طريق الحياة الانسانية اود ان اقول ايها السيد المدير اننى لن انسى ابدا دفء مصافحتك وانت ترجو لى صحة جيدة . "

وقرأ بعض السجناء فى الصحف اليابانية عن فتيات صاحبن القوات الامريكية على غرار " فتيات الجيب " (٢١) قبل تحرير الصين ، وأدانوا مثل هذه النسوة بشدة . فكتب احد السجناء رسالة الى زوجته يسألها ان كانت هى ايضا قد فعلت ذلك . وعندما فحصت سلطات السجن هذه الرسالة ارجعوها الى كاتبها وطلبوا منه بصبر عظيم ان يعيد النظر فيها . " هل من الملائم ان تكتب الى زوجتك رسالة كهذه ؟ حتى وان كان لديك اى مسوغ لطرح مثل هذا السؤال — وليس لديك هذا المسوغ — فغلطة من ستكون هذه ؟ ليست غلطتها بالتأكيد . " فلم يقل السجين شيئا بل كور الرسالة والقاها على الارض . ثم وضع رأسه بين يديه وشرع يبكى .

لقد كانوا ممتنين للشعب الصينى الذى علمهم كيف يكونون صادقين والذى عاملهم باللين . ومثلما تعلمت كيف ومن هم الاباطرة عرفوا هم حقيقة

العسكرية وحقيقة اليابان . وفى رسائلهم التى ارسلوها من اليابان وصفوا الازدياد المرعب فى جنوح الاحداث . واشاروا الى القواعد الامريكية فى اليابان وكيف ان الدبابات تسير على ارضهم ؛ والطائرات العسكرية الامريكية تغطى سماءهم ؛ والجنود الامريكان يعتدون على نسائهم . وكانت احدى الرسائل التى جاءت من رجل عاد الى قريته ملأى بالحديث عن التغييرات التى طرأت على الشباب هناك . " بعضهم قد اصبحوا قطاع طرق ، وآخرون يقتلون بسبب النساء ، وبعضهم انضم الى قوة الدفاع الذاتى ويعيش حياة متفسخة منصرفا للشرب والنساء . " وقال ان الشباب لا يطيعون والديهم ، وان الثقافة اليابانية قد انحطت وصارت اليابان مسرحا للانتهاكات .

وتحدث السجناء الذين اطلق سراحهم عن الصين الجديدة وعن العسكرية اليابانية ، معارضين اعادتها ومطالبين بالاستقلال والسلم والديمقراطية . وقد كتبوا ذلك وسط المراقبة والقيود التى تجنبوها ببراعة كبيرة .

وكان يعجبهم اداء الرقص الصينى بأنفسهم فتمنعهم الرجعية من ذلك : فأخذوا يعلمونه للراقصين المحترفين الذين نشروا الرقصات الصينية فى كافة انحاء اليابان . وطلب منهم ان يتحدثوا عن حياتهم فى السجن وعن الصين الجديدة ، فتحدثوا عن الصداقة التى يكنها ابناء الشعب الصينى لشعب اليابان ، وعن موقفهم من الحرب الآن بعد ان اصبحوا اقوياء ، وعن آمالهم ومثلهم . بعض الناس متشككون ، وبعضهم له تحفظاته ، والآخرون مقتنعون . وقالوا ان الحكومة الموالية لامريكا تكرههم للغاية ، بينما ايمان الشعب بما قالوه يزداد .

وقد نشروا كتابا بعنوان « سياسة التدميرات الثلاثة » (٢٢) وصفوا فيه الاعمال الوحشية التى ارتكبها الجيش اليابانى فى الصين كيف ابادوا السكان فى بعض المناطق ، وكيف استخدموا ابناء الشعب الصينى كمواد للتجارب فى الحرب البكتيرية ، وكيف شرحوا الناس احياء ، وما الى ذلك . وقد طبع من هذا الكتاب خمسون الف نسخة نفدت كلها فى اسبوع .

وعندما سمع عدد من الجنرالات المتقاعدين احد زملائهم السابقين يصف تجربته فى الصين ، ظلوا صامتين وقتا طويلا قبل ان يقول احدهم : " ان فطرتنا وما عرفناه منكم تكفى لاقناعنا بحقيقة كل كلمة قلتموها لنا . ولكننا لا نستطيع ان نقول ذلك الا من خلف ابواب مغلقة . "

وعندما عاد عسكرى سابق الى قريته ، جاء اهالى قريته لاستقباله حاملين راية كتب عليها " نصر ابدى " . ولكن عندما نزل من القطار القى خطابا مؤثرا اعمق التأثير ، فهم اهالى القرية منه بعد ذلك اسباب كارثة هيروشيما وبكوا . وسقطت الراية على الارض .

ان كثيرا من اهالى مجرمى الحرب كانوا من ابناء الشعب العامل البسطاء ومن الناس ذوى المشاعر الودية . وقد كتب عدد ليس قليلا منهم الى الحكومة الصينية فى الماضى يطلبون اطلاق سراح ازواجهم وابنائهم " الابرياء " . وسمح لبعضهم فيما بعد بالمجىء الى الصين لزيارة اقربائهم المسجونين . وعندما سمع هؤلاء ما قاله اقرباؤهم واستمعوا الى تساجيل الاتهامات التى وجهها ابناء الشعب الصينى امام المحكمة بكوا مع السجناء . وفهموا الآن ان هؤلاء السجناء مذنبون وان العسكرية قد غررت بهم .

ان التغيرات التى طرأت على مجرمى الحرب اليابانيين ، شأنها شأن التغيرات التى حدثت فى اسرتى ، قد هزتنى من الاعماق . وبرزت فى ذهنى حقيقة واضحة كل الوضوح : ان الحزب الشيوعى قد استخدم العقل فكسب قلوب الناس .

" المجد العالمى "

منذ النصف الثانى لعام ١٩٥٦ دأب الصحفيون على زيارتى والاجانب يكتبون الى يطلبون صورتي . وفى فبراير ١٩٥٧ استلمت رسالة من فرنسى يطلب

منى فيها ان اوقع له على صورة لى ، وقد ارفقها بمقالة لا اعرف ما الغاية منها . هذه المقالة تقول :

امبراطور الصين السجين

ان المجد العالمى لا قيمة له : هذا يلخص حياة سجين سياسى ينتظر الآن الحكم عليه فى سجن فوشون فى الصين الحمراء . لقد لبس الحرير الثمين وهو طفل ، ولكنه الآن يلبس ثيابا رثة محشوة بالقطن فيما يمشى وحيدا فى باحة السجن . اسم هذا الرجل هنرى بو يى . قبل ٥٠ عاما اعلن عن ولادته بعرض حيوى من الالعاب النارية ؛ والآن يعيش فى سجن . عندما كان هنرى فى الثانية من عمره اصبح امبراطورا للصين ، ولكن ست سنوات من الحرب الاهلية اطاحت به عن عرشه الامبراطورى . وكان عام ١٩٣٢ عاما هاما لـ " ابن السماء " هذا : فبدعم من اليابانيين اصبح امبراطورا لامبراطورية منشوريا . وبعد الحرب العالمية الثانية لم يعد احد يسمع به الى الوقت الحاضر ، عندما كشفت صورته اللافتة للنظر مصيره المأساوى . . .

لو ان كاتب هذه المقالة ارسلها الى قبل سنتين لأمكن ان اذرف عليها قليلا من الدموع ، ولكنها جاءت متأخرة جدا . وفى جوابى اليه كتبت اقول : " اننى آسف ، فأنا لا يمكن ان اوافقك على رأيك . ولا استطيع كذلك ان اوقع على الصورة . "

قبل مدة غير طويلة وجه الى بعض الصحفيين الاجانب فى مقابلات معهم عددا من الاسئلة " المتعاطفة " الشبيهة بما ورد فى المقالة : " هل تشعر بالحزن لكونك آخر امبراطور فى اسرة تشينغ ؟ " " هل تشعر بأن من غير العدل انك لم تحاكم بعد كل هذه المدة الطويلة ؟ ألا تجد هذا مدهشا ؟ " فأجبت بأن ما كان محزنا هو حياتى الماضية وانا امبراطور لأسرة تشينغ وامبراطور عميل . اما بخصوص الاشياء المدهشة ، فلقد اذهلنى اللين الذى عوملت به . وبدا ان الصحفيين لم يفهمونى ، وتخيلت ان السيد الفرنسى الذى

كتب الى سيشاركهم دون شك فى عدم فهمهم عندما يقرأ جوابى .

ان ما كان مجيدا حقا فى نظرى هو شهامة فانغ سو رونغ ، البنت التى نجت من المذبحة ، والكلمات البسيطة التى قالها فلاحو تايشانباو ، والتغيرات الكبيرة التى طرأت على شباب عشيرة آيشين — جيولوه ، ولهيب موقد الغاز فى مطابخ عمال مناجم فوشون ، والمخارط الصينية التى حلت محل المخارط اليابانية فى مدرسة الصنائع التى زرتها ، والحياة الآمنة التى يحياها العمال المتقاعدون فى مأوى العجزة . أ كان هذا كله " لا قيمة له " بالنسبة لى ؟ أ كان امرا لا قيمة له ان وضع الآخرون آمالهم وثقتهم فى تحولى الى انسان حقيقى ؟ أ لم يكن هذا اهم الاحكام التى يمكن ان تصدر بحقى ؟

اننى مقتنع بأن مشاعرى هذه يشاركنى فيها كثير من السجناء الآخرين ، وان بعضهم قد توصل الى هذه النتيجة قبلى . ان الكثير منا مصممون حقا على اعادة بناء انفسهم من خلال جهودهم الخاصة بحيث كانت سنة ١٩٥٧ الجديد مختلفة تماما عن السنوات السابقة .

لقد كنا نقيم فى عيد رأس السنة وغيره من الاعياد حفلات يؤدى فيها ذوو المواهب منا بعض العروض . وكانت الممرات التى تقام فيها الحفلات عادة تتدلى منها المصابيح واشرطة الزينة ، ويأتى هذا مع الطعام الجيد الذى يقدم الينا فى تلك المناسبة فيعطينا شعورا زائدا بالسعادة . ولكن قبل رأس سنة ١٩٥٧ بوقت قصير شعرنا ان تلك الاحتفالات غير كافية ، وعزمنا على اقامة حفلة كبيرة فى القاعة كما كان يفعل مجرمو الحرب اليابانيون . فأخبرت سلطات السجن لجنتنا الدراسية بأننا اذا كنا نظن ان بوسعنا ترتيب مثل هذه الحفلة فيمكننا ان نباشر ، ويمكننا ان ندعو مجرمى الحرب التابعين لتشيانغ كاى شيك الذين وصلوا مؤخرا ليكونوا متفرجين . وعندما نقلت لجنة الدراسة هذا الخبر الى الزنزانات انطلقنا جميعنا بحماسة كبيرة .

لقد سررنا نحن السجناء سرورا عظيما لأننا قدرنا اننا سنقضى عيد رأس

سنة مسرورين . ودعمتنا سلطات السجن لأن هذه الوسيلة التى تمكن السجناء من تثقيف انفسهم قد نجحت نجاحا كبيرا لدى مجرمى الحرب اليابانيين : لقد كتب السجناء اليابانيون المسرحيات بأنفسهم ، وقد بنوها على اساس ما قرأوه فى الصحف اليابانية . وكانت احدى هذه المسرحيات تتناول المخاوف الناجمة عن التفجيرات النووية فى اليابان والجرائم التى ارتكبتها العسكرية اليابانية ضد شعب اليابان وبقية شعوب العالم . وقد تركت هذه المسرحيات تأثيرا تثقيفيا عميقا على الكتاب والممثلين والمتفرجين على السواء . لذلك قررت لجنتنا الدراسية ان تدرج فى عرضنا مسرحيات من هذا الغرار . وقد لقى هذا الاقتراح دعما عاما ، وسرعان ما وضع الهيكل العام لتمثيليتين احداهما كانت " صحيفة حية " تدعى « هزيمة المعتدين » حول صد العدوان البريطانى على مصر (عام ١٩٥٦) ؛ وكانت الاخرى حول التحول الذى طرأ على خائن من " امبراطورية منشوريا " وقد كتب التمثيليتين بو جيه وموظف سابق فى حكومة وانغ جينغ وى العميلة .

ومع مضى العمل فى التمثيليتين جرى اعداد جميع اشكال العروض الاخرى . فقد اعلن مشعوذنا لاو لونغ مثلا انه سيقوم بحيلة اكبر من اخراج البيض من قبعة او ابتلاع كرات الطاولة . وكان اكثرنا انشغالا لاو وان ، رئيس لجنة الدراسة الذى كان مسؤولا عن جميع الترتيبات . وكان روى الصغير مسؤولا عن التزيينات ، ولى الكبير الذى اصبح عامل كهرباء بارعا هو الذى تعهد بالانارة .

اننى لم اشترك فى السنوات السابقة فى العروض التى كانت تتم فى الممرات ، ورأيت ان من غير الملائم ان اكون ذا نفع فى تلك الاستعدادات . وهذه المرة ايضا توقعت ان لا يطلبنى الآخرون لأية مهمة ، ولكننى دهشت دهشة كبيرة حين اكتشف رئيس زنزانتنا لاو تشو اننى استطيع ان اغنى على نحو مقبول ، وعيننى فى الجوقة . فتأثرت تأثرا عميقا ، وغنيت بمنتهى الحيوية .

وبعد ان تعلمت اداء اغنياتي ، استدعاني لاو وان رئيس اللجنة الدراسية وقال لي :

— يا بو يي هناك دور لك في التمثيلية الاولى . انه ليس صعبا جدا ، وليس فيه اسطر كثيرة تستدعي الحفظ . وعلى اية حال يمكنك ان ترتجل اذا اردت ذلك . وهذا عمل ذو شأن وجزء من التثقيف المتبادل . . .

— لا داعي الى ان تقنعني . ما دمت ترى انني ملائم لهذا الدور فانني على استعداد لتأديته .

فقال لاو وان مبتسما :

— بالطبع تستطيع ذلك . انك ملائم لهذا الدور بالتأكيد . ان لك صوتا واضحا قويا . انك . . .

— هون عليك . اى دور تريدني ان اؤديه ؟

— لقد سمينا المسرحية « هزيمة المعتدين » ، وانها تدور حول الغزو البريطاني لمصر والاهتياج الذى سببه هذا الغزو . وهي مبنية على اخبار الصحف . وسيقوم لاو رون بالدور الرئيسي — بوصفه وزير الخارجية البريطاني سلوين لويد . وانت ستمثل نائبا عماليا من الجناح اليساري .

وذهبت لأرى بو جيه واقرأ النص واسمع شرحه لهذا النص واسجل الاسطر التي سأقولها . ثم تعين على ان اختار بدلتي . ونظرا الى انني كنت اقوم بدور اجنبي فمن الطبيعي ان البس بدلة من الثياب الغربية التي لم يكن السجن يفتقر اليها حيث كانت كثير من ثياب السجناء محفوظة فيه . وعدت الى زنزانتي بالبدلة الزرقاء التي لبستها في المحكمة العسكرية الدولية في طوكيو ، وهي عبارة عن قميص وربطة عنق وثياب اخرى . نظرا الى عدم وجود اناس غيري في الزنزانة فقد لبست بمفردي . وعندما لبست قميصا ابيض دخل لاو يوان وسألني مندهشا عما افعل .

ونظرا الى انني كنت مهتاجا وطوق قميصي ضيق جدا فانني لم استطع

الاجابة فى البداية . واخيرا قلت لاهثا : " اننى سأقوم بأداء دور فى مسرحية . تعال وفك لى الحزام الذى فى مؤخر صدرتى . "

ففعل ذلك ولكن الصدرة ظلت ضيقة جدا . فأدركت اننى قد ازددت وزنا . ولقد ضغط حذائى الجلدى المستورد من انكلترا قدمى ، لذلك سألت لاو يوان فى تردد ان كانت هناك حاجة للبس حذاء جلدى لتأدية دور نائب من حزب العمال البريطانى .

ـ ستحتاج الى ذلك بالتأكيد . ان نواب حزب العمال البريطانى يستخدمون حتى العطور ، لذلك لا يمكنك بالطبع ان تلبس الحذاء القماشى المحشو بالقطن . لا تقلق ، ان حذاءك الجلدى لن يؤذى قدميك اذا واظبت على لبسه بعض الوقت ، والصدرة يمكن ان تعدل . اذهب وتعلم الاسطر التى ستقولها . انه لخبر عظيم ان تقوم بالتمثيل .

وانهى كلامه بضحكة ظلت ترن فى اذنى وانا خارج امشى فى الممر : كنت منشرح الاسارير : لقد قال لاو وان ان هذا سيكون تثقيفا ذاتيا ونوعا من المساعدة المتبادلة . وكانت هذه هى المرة الاولى التى اساعد فيها الآخرين بدلا من ان اكون انا الذى احصل على مساعدتهم . وفوق هذا كله اصبحت لدى قدراتى كأى انسان آخر تماما ، واصبحت على علاقة مساواة بالآخرين عندما طلب منا مساعدة بعضنا بعضا .

ومنذ ذلك الوقت رحت اتلو اسطرى دون انقطاع . وكانت هذه الاسطر ، كما قال لاو وان ، قصيرة جدا . وكان دورى من اصغر الادوار فى المسرحية . وفى نهاية المسرحية القى سلوين لويد خطابا فى مجلس العموم ليبرر اخفاق الغزو ، فبدأ بعض نواب المعارضة يسأله ، ثم اشترك الجميع فى الهجوم عليه . وعند هذه النقطة كان على ان اقف فى وسطهم واقول مخاطبا سلوين لويد : " لا حاجة الى ان تستمر فى الدفاع عن تصرفاتك . انها تصرفات مخزية ، مخزية ، واقول ثانية مخزية . " ويفترض ان تموج القاعة حينذاك

بالشتائم الغاضبة وبمطالبة لويد بالاستقالة ، وخلال ذلك اصيح انا : " اخرج ! اخرج ! " كان لهذه التمثيلية عقدة بسيطة جدا ، اهم عنصر فيها تلك المناظرة البرلمانية التي تستمر خمس عشرة دقيقة فقط . وقد امضيت اضعاف هذا الوقت استعد لدوري مخافة ان انسى اسطري او اخطئ فيها مخيبا بذلك الآمال المعقودة على . لقد عانيت في الماضي من الارق او كنت اتحدث في نومي ، ولذلك لأنني كنت قلقا او خائفا . اما الآن فأنا اعاني الارق للمرة الاولى بسبب الاثارة والاهتياج التي سببتها لى هذه التجربة الجديدة .

وعندما حل عيد رأس السنة وذهبت الى القاعة من اجل الحفلة انساني الجو المهرجاني والمسرح الرائع ما كان عندي من توتر . وبدا عرضنا جيدا بالقياس الى حفلات مجرمي الحرب اليابانيين : غناء جوقة وغناء منفرد ، واغان ورقصات منغولية ، وحديث متداخل ، وقصائد مصحوبة بالمخشخشات ، والعاب سحرية ، ومسرحية الصحيفة الحية « هزيمة المعتدين » ، ومسرحية « من الظلمة الى الضياء » . وعندما رأينا مدى التأثر على مجرمي الحرب من اتباع تشيانغ كاي شيك تغامزنا في انفعال .

واديت الفصول الاخرى اداء ناجحا استدعت الكثير من التصفيق . وكانت المادة الاولى بعد الاستراحة هي مسرحية الصحيفة الحية . وبدأت المناظرة . وظهر لاو رون بملابس سلوين لويد . ونظرا الى انه كان يملك انفا كبيرا فقد كان الوحيد الذي بدا كانكليزي ، وكان تمثيله بارزا : لقد كان في غضبه وخوفه ويأسه وغطرسته الصورة الحية لوزير الخارجية المهزوم . وبعد عشر دقائق تقريبا همس الى لاو يوان (وهو تصرف كان ضمن النص) : " لا تكن متخشبا جدا . قم بحركة ما . " وحدقت الى الامام ناظرا الى المتفرجين . وتملكني شعور بأن اهتمام الجميع قد تركز على ، عضو البرلمان اليساري من حزب العمال ، فجعلني ذلك شديد التوتر . لم ينتبه الى احد عندما كنت اغني في الجوقة ، اما الآن فأعين الجميع نظرت الى . وقبل ان

استرد هدوئى استحثنى لاو يوان قائلا : " قل شيئا ما ؛ قل شيئا ما لتدحضه . " فوقفت متوترا والتفت الى لاو رون الذى كان ما يزال مسترسلا فى الحديث ، وكنت قد نسيت كلماتى . ولكن جاءنى الالهام فى اللحظة الحرجة فصحت بالانكليزية " لا ! لا ! لا ! " واسكتت صيحاتى هذه لاو رون ، وتذكرت اسطرى . وبعد ان قلتها سمعت دوى التصفيق من المتفرجين وصيحات " اخرج ! اخرج ! " تنبعث من المسرح . وغادر وزير الخارجية خشبة المسرح وهو يعدو مضطربا .

وكان لاو يوان اول من هنأنى بعد انتهاء العرض قائلا : " انك لم تخطئ التصرف مطلقا . وعلى الرغم من انك كنت متوترا بعض الشىء ، الا انك لم تخطئ قط . " ثم عبر الآخرون عن رضاهم وجلجلوا بالضحك للكلمات التى ارتجلتها .

وهدأت القاعة تدريجيا ، وبدأت تمثيلية « من الظلمة الى الضياء » التى نقلتنا الى عالم مختلف . فأظهر المشهد الاول كيف ان اثنين من موظفى الشمال الشرقى السابقين اصبحا خائنين قياديين . وفى المشهد الثانى حاولا التواطؤ مع الكومينتانغ بعد استسلام اليابانيين ، ولكن الجيش الاحمر السوفياتى اسرهما . وفى المشهد الثالث حاولا خداع السلطات بعد ان اعيدا الى الصين ، ولكنهما لم ينجحا فى ذلك ، وفى النهاية استجابا للتثقيف الذى تلقياه من الحكومة ولسياسة اللين التى اتبعتها ، فاعترفا بذنوبهما وقبلا اعادة البناء . وعلى الرغم من ان التمثيلية لم تكن ممتازة فى تأليفها ، الا اننا نحن مجرمى الحرب استطعنا ان نرى انفسنا فيها . لقد ذكرتنا بماضينا ، وشدت انتباهنا ، وجعلتنا نشعر المزيد من الخجل من انفسنا . وقد تضمن احد فصول التمثيلية كيف اجبر بعض الخونة ابناء الشعب على بناء معبد الامبراطور جيمو . وعرف " الفم الكبير " ان هذه قصته ، وسمعه الآخرون يغمغم : " ما الغاية من اظهار ذلك العمل المخزى ؟ " وفى مشهد آخر ظهرت مجموعة

اخرى من الخونة يجلسون فى غرفة ويتملقون اليابانيين ، مقترحين عليهم وسائل لسلب الحبوب من ابناء الشعب فى الشمال الشرقى . وسمعت شخصا بجانبى يزفر قائلا : " ما اقذر هذا التصرف ! " اما انا فشعرت ان اقذر شىء ليس ايا من هذه الشخصيات فى المسرحية بل المشكاة المغطاة بستارة فى زاوية القاعة والتى علقت فيها " الصورة الامبراطورية الحقيقية " للامبراطور الخائن . وعندما انحنى لها الممثلون فى المسرحية فى كل مرة ظهروا فيها على المسرح ايقنت ان هذا هو اقذرشىء فى العالم .

وجاءت ذروة الحفلة فى المشهد الاخير عندما شرح موظفو الحكومة سياسة اعادة بناء المجرمين . ودوى التصفيق وترديد الشعارات اعلى من اى شىء آخر كان يسمع من قبل . وهذا لم يكن راجعا الى المسرحية نفسها بقدر ما كان راجعا الى التأثيرات الموحدة التى خلفتها الرسائل والزيارات العائلية ورحلاتنا الى خارج السجن واعترافات مجرمى الحرب اليابانيين فى المحكمة العسكرية وعوامل اخرى . ووسط الهتاف والتصفيق اللذين صكا الآذان امكن سماع نحيب مكبوت . لاو ليو الذى لم يكن يصدق ان ابنته تلقت عناية جيدة الا بعد ان رآها بأم عينيه كان يهتز بالنحيب ؛ ولاو تشانغ الذى اصبح ثانية على علاقة جيدة بابنه كان يجأر بالبكاء وقلم الحبر يلتمع فى الجيب الذى على صدره .

ان العواطف التى اثيرت فى هذه الحفلة قد اظهرت لنا اى نوع من " المجد " كان ما يزال ممكنا بالنسبة لنا فى هذا العالم الحالى ، " المجد " الذى كان يزداد اشراقا ووضوحا على الدوام . وبعد رأس السنة مباشرة اطلق سراح ثلاثة عشر سجينا دون محاكمة ، وكان من بينهم ابناء اشقائى الثلاثة ولى الكبير . وبعد ان ودعناهم اقمنا حفلة اكبر من هذه تخللتها مسرحية عن قرية فى الشمال الشرقى فى فترة " امبراطورية منشوريا " وبعد التحرير . ومن ثم اطلق سراح اربعة سجناء آخرين ، من بينهم زوجا شقيقتى . وهذا

كان فى الوقت الذى استلمت فيه رسالة الفرنسى التى يتحدث فيها عن " المجد العالمى " .

زيارة اخرى

فى النصف الثانى من عام ١٩٥٧ خرجنا فى جولة اخرى ، وهذه المرة الى شنيانغ وآنشان وتشانغتشون وهاربين . ورأينا مشروع خزان مياه فى داهوفانغ بالقرب من شنيانغ وثمانية عشر مصنعا وست وحدات علمية ومدارس وثلاث مستشفيات ومعرضين وقصرا لرياضة . وفى هاربين زرنا المنطقة التى عانت من النكبة التى انزلتها بها وحدة البكتريا اليابانية ٧٣١ وقاعة شهداء الشمال الشرقى . وتركت فى نفوسنا هذه الجولة انطباعا اعمق مما تركته الجولة السابقة .

ان معظم المؤسسات التى زرناها قد بنيت حديثا باستثناء عدد ضئيل من المؤسسات الموروثة من اليابانيين . فالمصانع اليابانية كانت قد حطمت تحطيما كاملا تقريبا عند الاستسلام . كما كان اليابانيون والكومينتانغ قد خربوا مصنع آنشان للحديد والصلب ومصنع الآلات فى شنيانغ . وبعد ان تسلمتهما الحكومة الشعبية اعيد بناؤهما ، ووسعا الى حجمهما الحالى الضخم . وقد ذهل كثير من وزراء " امبراطورية منشوريا " السابقين الذين كانوا قد رأوا هذه المصانع فى الماضى بهذا النمو الذى اصبحت عليه . واكثر ما ادهشنى هو كمية المعدات التى تحمل العلامات التجارية والمواصفات باللغة الصينية . لقد فكرت ، على ضئالة خبرتى ، كم من المعدات سيكون مكتوبا عليها " مصنوع فى امريكا " او " مصنوع فى المانيا " عندما ذكرت لنا الآلات ، اما الآن فقد رأيت مجموعات كاملة من المعدات كتب عليها " صنع فى الصين " . وكانت هذه المصانع قد بدأت تنتج

للتصدير ايضا . ومما جعلنى بالفخر تلك المنتجات التى رأيتها تخرج من المصانع تحمل الكلمات التالية : " صنع فى جمهورية الصين الشعبية " .

وفى مصنع آنشان للحديد والصلب وقفت امام البنايات الهائلة من الحديد والصلب وحاولت عبثا ان افكر كيف تولد كل هذا من ركام معدنى مهمل . ولكن هذا ما قد حدث فعلا . عندما ترك اليابانيون آنشان قالوا : " اتركوا آنشان للصينيين كى يزرعوا فيها الذرة الرفيعة . فحتى لو ارادوا ان يبدأوا فى تشغيل هذا المصنع ثانية ، فانهم يحتاجون الى عشرين سنة على اقل تقدير . " ولكن الشعب الصينى لم يستغرق عشرين سنة بل ثلاث سنوات فقط ليستأنف تشغيلها ويحقق انتاجا سنويا يبلغ ١٫٣٥٠٫٠٠٠ طن ، وهذا اعلى بكثير من الرقم الذى سبق ان تم التوصل اليه فى فترة " امبراطورية منشوريا " . وبعد خمس سنوات ارتفع الانتاج السنوى الى ٥٫٣٥٠٫٠٠٠ طن ، وذلك اكثر من مجمل الانتاج خلال واحدة وثلاثين سنة منذ تأسيس مصنع شوى للصلب على يد اليابانيين عام ١٩١٧ حتى الانسحاب النهائى للكومينتانغ عام ١٩٤٧ . ورأيت اشياء كثيرة كهذه فى الجولة ، بينت لى بأن الشعب الصينى قد نهض . فالشعب لم يحقق انتصارات عسكرية فحسب ، بل استطاع ان ينتصر على الجبهة الاقتصادية ايضا . ولو اننى لم اشهد هذا بعينى ، او لو ان احدا تنبأ به قبل عشر سنوات ، لكنت متشككا كاليابانيين الذين نصحوا الصينيين بأن يزرعوا الذرة الرفيعة .

لقد نسيت خلال السنوات الاربعين الماضية اننى صينى ايضا . فقد انضممت الى اليابانيين فى الاشادة بأمتهم كأروع امة على وجه الارض ؛ وشاركت تشنغ شياو شيوى اوهامه فيما يتعلق باستخدام " موظفين اجانب " و " قوة اجنبية " للاستفادة من موارد الصين ؛ وكثيرا ما تأففت مع بو جيه من غباء الصينيين اذا قورنوا بأبناء العرق الابيض الاذكياء.. وحتى بعد دخولى السجن ظللت ارفض تصديق ان الصين الجديدة ستكون قادرة على الاحتفاظ

بمكانتها فى العالم . وبدلا من ان اكون مزهوا بانتصار القوات الشعبية الصينية والكورية فى معارك كوريا كنت مذعورا من ان يلقى الامريكيون قنابل ذرية علينا . ولم اكن قادرا على فهم السبب الذى جعل الحزب الشيوعى الصينى يتجرأ على فضح الامبريالية الامريكية على منبر الامم المتحدة او السبب الذى جعل وفود الجانب الصينى — الكورى تتجرأ على تحذير الامريكان فى محادثات " بان مون جوم " من انهم لن يكونوا قادرين على ان يكسبوا على مائدة المفاوضات ما اخفقوا فى كسبه فى ميدان المعركة . وباختصار ، كنت مصابا بحالة سيئة جدا من " داء العظم الطرى " .

وبعد ان وقعت الهدنة الكورية ولعبت الصين دورا جديدا فى الشؤون العالمية فى مؤتمر جنيف ، فكرت فى علاقات الصين الدولية منذ حروب الافيون : منذ عهد والد جدى الامبراطور داو قوانغ الى الكومينتانغ وتشيانغ كاى شيك ، كانت الصين مصابة بهذا الداء " داء العظم الطرى " . وخلال تلك السنوات المائة والتسع جاء حملة المدافع والافيون والمبشرون المزيفون — الاجانب الذين ظنوا انفسهم اعلى حضارة ومنزلة — الى الصين وحرقوا وقتلوا وسلبوا واحتالوا . لقد ركز الغزاة الاجانب قواتهم فى عاصمة الصين وموانئها ومدنها الكبيرة وطرقها الحيوية وحصونها الهامة . واعتبروا الصينيين عبيدا وبدائيين وجعلوا منهم دريئة لهم . وسببوا للصين كثيرا من ايام الخزى الوطنى ، واجبروها على توقيع المعاهدات التى حولت شعبها الى عبيد . ان تعابير مذلة كثيرة قد ظهرت فى التاريخ الدبلوماسى لتلك الحقبة : تساوى الفرص ، الباب المفتوح ، الدولة الاكثر حظوة ، الاراضى المؤجرة ، التعرفة المرهونة ، السلطة القضائية القنصلية ، حقوق الحامية العسكرية ، حقوق بناء الخطوط الحديدية ، حقوق التعدين ، حقوق النقل النهرى ، حقوق النقل الجوى ، وما الى ذلك . هذا مع ما تمتعوا به من الامتيازات الخاصة حيث كان الاجنبى غير خاضع لاختصاص المحاكم الصينية عن جرائمه التى يرتكبها

ضد الصينيين كاغتصاب النساء وكانت دية الصيني اذا قتله اجنبي ثمانين دولار وهي اقل بعشرين دولار من دية الحمار .

ولكن هذه الحقبة المخزية قد ولت الى الابد . فلقد نهض الشعب الصيني وشرع الآن يبني بلاده بكل ثقة ، جاعلا الاجانب الذين ضحكوا استهانة منا يغلقون افواههم .

لقد سمعت عند زيارتي مصنع السيارات في تشانغتشون ان تلاميذ احدى المدارس الابتدائية ارادوا زيارته عند بدء الانتاج فيه . فرتب المصنع ان يرسل لهم باصا مستوردا لاحضارهم ، ولكنهم اصروا على الذهاب في شاحنة صينية الصنع .

ان الوطن الام قد حل منزلة سامية في نفوس الاطفال ولكنه ظل اربعين عاما لا يعني شيئا بالنسبة لي .

ان بوسع اى صيني اليوم ان يفخر بأنه صيني اينما كان ومهما كان .

لقد كنت في الماضي دائم الفضول بخصوص كيفية معيشة الآخرين — باستثناء فترة " امبراطورية منشوريا " الاخيرة وكانت اول مرة خرجت فيها لاشباع هذا الفضول هي عندما زرت قصر والدي ، والمرة الثانية كانت عندما تذرعت بمرض تشن باو تشن وذهبت لرؤيته . ولقد تأثرت تأثرا عميقا بالحرية في حياتهما . وعندما انتقلت الى تيانجين شعرت ان " الصينيين ذوي المنزلة العالية " الذين رأيتهم في المطاعم الغربية وحدائق التسلية الاجنبية كانوا اكثر مني حرية مع انهم ليسوا من اصل عريق ؛ ولهذا السبب لم اعجب بهم كثيرا ، ولكنني ظللت فضوليا بشأنهم . وفي ايام " امبراطورية منشوريا " كنت شديد القلق على مركزي فلم تكن امامي فرصة للشعور بالفضول الشديد . وبعد اعادتي الى الصين لم اظهر اهتماما بمسائل كهذه في البداية ، شاعرا ان حياة الآخرين ليست مهمة بالنسبة لي ، ولكن عندما نظرت الى مستقبلي نظرة تفاؤلية اصبحت هذه الاشياء تعني الكثير عندي . وفي هذه الجولة ابديت

اهتماما كبيرا بالطريقة التى يعيشها الناس ، وما اكتشفته اثار فى نفسى الذكريات وسبب لى ألما شديدا .

لقد تركت هاربين فى نفسى اعمق الانطباع . فخط الاطفال الحديدى فى منتزه الاطفال هناك ذكرنى كيف كنت العب مع النمال فى طفولتى ونسبة العائشين من المواليد الجدد فى مستشفى الاطفال ، والمستوى الصحى العام يندان عن تخيل اسرة تشينغ الامبراطورية . وعندما جلست على مقعد فى جزيرة الشمس فى هاربين ، انظر الى قوارب المتعة فى النهر واستمع الى الشباب يغنون ويعزفون الاكورديونات ، استعدت ذكرى النصف الاول من حياتى . اننى لم يسبق لى ان غنيت مستمتعا ، او لم يسبق لى ان عرفت متعة الجلوس على العشب تحت الشمس بمفردى ، ناهيك عن تمكنى من التمشى كما يحلو لى . لقد كنت فى تلك الايام قلقا اخشى ان يخدعنى الطباخ ، واخاف ان يقتلنى اليابانيون . اما هنا فقد بدا الناس متحررين من الهم والقلق . لقد كان على مقربة منى فنان شاب يرسم الطبيعة ووراءه حقيبته واشياؤه وهو مستغرق فى الرسم ، لم يلتفت اليها مرة واحدة ليتفقدها . لقد بدا واثقا كل الثقة بأنه فى امان . وهذا كان شيئا لا يمكن تصوره فى زماننا .

وقد رأيت فى المنتزه صندوق خشبى داخل كشك للهاتف لصقت عليه ورقة كتب عليها : " الرجاء ان تضع اربعة فنات فى الصندوق مقابل كل مكالمة . " واخبرنى احد زملائى من السجناء انه كان هناك ناد فى جزيرة الشمس فى الماضى . كان المرء يدفع فيه بقشيشا حتى حين دخل المرحاض . ولكن الرسائل التى تأتينا من الاهل اليوم تخبرنا ان العاملين فى اى مطعم او فندق او حمام او اى مكان من هذه الامكنة سوف يشعررن بالاهانة اذا ما حاولت اعطاءهم بقشيشا .

لقد قمنا بزيارة لمكانين فى الايام الاخيرة من وجودنا فى هاربين ، فأظهرتا لى هاتان الزيارتان الفرق بين نوعين من الناس فى هذا العالم . زرنا اولا المكان

الذى ارتكبت فيه وحدة البكتريا اليابانية رقم ٧٣١ اعمالها الوحشية ، ثم زرنا قاعة شهداء الشمال الشرقى .

هناك كتاب يدعى « وحدة البكتريا رقم ٧٣١ » نشره فى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية رجل يدعى اكياما هيروشى كان عضوا فى هذه الوحدة . ووفقا لهذا الكتاب كانت هناك مجموعة من المبانى يبلغ محيطها اربعة كيلومترات تقريبا ، وكان المبنى الرئيسى بينها يبلغ حجمه اربعة اضعاف حجم مبنى مارونوتشى فى اليابان . وكان فيها حوالى ٣ آلاف شخص . وفى هذا المبنى ربوا عشرات الآلاف من الجرذان . وبالاضافة الى ذلك كان لديهم ٤٥٠٠ محضن من طراز اشى ربوا فيها اعدادا فلكية من البراغيث وانتجوا ٣٠٠ كيلوغرام من جراثيم الطاعون الدبلى شهريا . وكان هناك سجن اعتقل فيه اربع او خمسمائة من اسرى الحرب او الوطنيين المعادين لليابان لاستخدامهم فى التجارب . وكان الاسرى من ابناء الصين والاتحاد السوفياتى وجمهوريا منغوليا الشعبية . ولم يكن يشار اليهم على انهم اناس بل "زناد خشب" . وستمائة منهم على الاقل كانوا يعذبون حتى الموت كل سنة ، وكانت التجارب التى تطبق عليهم على درجة من القسوة لا توصف . فيوضع بعضهم عاريا فى ثلاجة التجارب حتى يتجمدوا ثم ينتزع اللحم من عظام ايديهم وهى تهتز ؛ وآخرون كانوا يمددون على طاولة العمليات مثل الضفادع بينما يقوم عاملون يلبسون المآزر البيضاء بتشريحهم ؛ وغيرهم كانوا يربطون بجذوع الشجر عراة الا من سراويلهم الداخلية ثم تفجر امامهم القنابل الجرثومية ؛ وغيرهم كانوا يطعمون جيدا ثم يحقنون بالجراثيم ، واذا لم تقتلهم هذه التجربة فانها تكرر الى ان يموتوا .

وعندما كان مؤلف الكتاب يشتغل فى هذه الوحدة سمع ان الجراثيم التى كانت تتكاثر هناك افتك من اى سلاح آخر ويمكنها ان تقتل ١٠٠ مليون انسان ، وهذا ما فاخر به الجيش اليابانى نفسه .

وعندما كان الجيش الاحمر السوفياتى يقترب من هاربين حاولت هذه الوحدة ان تغطى كل اثر لجرائمها . فسمم اليابانيون جميع السجناء الباقين ، مخططين لاحراقهم وتحويلهم الى رماد ثم دفنهم بعد ذلك فى حفرة كبيرة . ونظرا الى ان الجلادين كانوا فى ذعر وهلع ، فانهم لم يحرقوا الجثث احراقا تاما ولم يستطيعوا نقلها كليا الى الحفرة . فسحبوا منها الجثث نصف المحروقة وفصلوا اللحم عن العظم ، ثم احرقوا اللحم الى ان اصبح رمادا ووضعت العظام فى مساحن لسحنها . وفى النهاية دمرت المبانى الرئيسية بالمفجرات .

وبعد مدة غير طويلة كان شخص من قرية مجاورة يمر بجانب ركام تلك المبانى فرأى بعض البراغيث تتقافز داخل جرة خزفية مكسورة . وقد عضه احد هذه البراغيث . ولم يدرك انه قد اصيب بعدوى الطاعون الدبلى الذى خلفه المجرمون عندما غادروا . وانتشر الوباء فى القرية وعلى الفور ارسلت الحكومة الشعبية جيشا من العاملين فى الطب لمعالجة هذا الوباء ولكن على الرغم من كل ما بذلوه من جهود مات ١٤٢ شخصا فى هذه القرية التى تعد حوالى مائة اسرة فقط .

وقد شهدت هذه الحادثة المروعة جيانغ شو تشينغ ، عضوة تعاونية وعاملة نموذجية كنا قد زرناها . وبعد ان اخبرتنا بهذه الجرائم التى ارتكبت ضد هذه القرية فى ايام "امبراطورية منشوريا" قالت : "لقد استسلم اليابانيون وتركوا اسلحتهم وهيأت لنا الحكومة الشعبية ان نعيش سعداء . فلدينا ارضنا ، واننا نحتفظ لأنفسنا بالمحاصيل التى نحصدها . ونحن فى غاية السعادة ونقول ان كل شيء رائع تماما لأن الحياة سائرة نحو الافضل ونحن تحت قيادة الحكومة الشعبية . لم نكن نعرف ان شرور اليابانيين لا نهاية لها وانهم تركوا هذا خلفهم عندما غادروا . يا للقساة ! "

ولاحظت شيئا متشابها فى بيت جيانغ شو تشينغ الصغير الانيق وفى المكاتب الواسعة التابعة للتعاونية الزراعية : كلما تحدث اعضاء تعاونية النجم

الذهبى عن الماضى تكلموا قليلا وفى تؤدة ، ولكن فى اللحظة التى يتحول فيها الموضوع الى الحديث عن الحاضر او المستقبل فان الجو يختلف تماما . فعندما تحدثوا عن القطاف الذى كانوا يقومون به فى ذلك الوقت ، ولا سيما لمحصول الخضار ، تكلموا بكل تباه ودخلوا فى ادق التفاصيل . ولتأييد ما قالوه اخذونا لمشاهدة دفيئاتهم والاشياء الجديدة التى اشتروها : معدات للرى والبزل ، وشاحنات ثقيلة واصناف متعددة من الاسمدة الكيماوية . ورأينا مدرسة وعيادة حديثتى البناء وكبلات كهربائية جديدة . وعندما تحدثوا عن اهداف السنة القادمة اصبحوا اكثر تحمسا . فقد اشار مسئول التعاونية الى صفوف من البيوت القرميدية الجديدة واختار كلماته بحذر شديد : " بعد الخريف القادم سنكون قادرين فيما اظن على بناء بضعة بيوت اخرى . " فلم يصدق اى منا ان كلمة " بضعة " تعنى عشرة او بضعة عشر بيتا فقط .

ولدى مغادرتنا هذه القرية جلب اعضاء التعاونية سلالا ملأى بالخيار والفجل ليقدموها لنا قائلين : " خذوا هذه معكم . لقد جنيناها لكم الآن ، وعلى الرغم من انها لا تستحق الذكر الا انها طازجة تماما . " وتجاهل مسئول التعاونية اعتراضاتنا والقاها فى عربتنا .

حدقت من النوافذ الى السطوح القرميدية التى كانت تتراجع امام عينى بسرعة فى تعاونية النجم الذهبى وفكرت فى الانطباع العميق الخارق للعادة الذى تركته فى نفسى كلمات مسئول التعاونية التى خرجت من فمه عادية جدا " بعد الخريف القادم فيما اظن . . . " ان هؤلاء الناس العاديين الذين احتقرتهم فى الماضى لكونهم غير متحضرين نهائيا قد عملوا بأيديهم بكل كد واجتهاد مؤدين عملا عاديا وعظيما فى آن واحد . لقد حولوا اكواخهم القشية الى بيوت قرميدية ليؤمنوا للناس حياة افضل . كان الامبرياليون اليابانيون الذين كنت اعتبرهم مع الخوف والتبجيل ممثلين لأمة بارزة ، قد استخدموا العلوم والتكنولوجيا الحديثة لايجاد الوباء ونشر الموت . وهم ايضا

كانت لهم مثلهم : استعباد وابادة امة مضطهدة .

ان ركام مصنع الجراثيم قد اظهر معنى الشر ، بينما اظهر كل شيء باق للشهداء فى قاعة شهداء الشمال الشرقى ماذا تعنى كلمة " خير " . كل معروض يحدثنا كيف ضحى صاحبه بآخر قطرة من دمه من اجل مثل انسانية اسمى ومن اجل حياة اكثر بهاء . لقد كانت آثار مصنع الجراثيم والملابس الملطخة بالدم ورسائل الشهداء الاخيرة مرايا استطعنا ان نرى فيها نحن السجناء ماضينا الكريه .

ان قاعة شهداء الشمال الشرقى هى مبنى مهيب على الطراز الرومانى كان مستخدما كمقر البوليس الرئيسى فى هاربين خلال سنوات " امبراطورية منشوريا " الاربع عشرة ، حيث استجوب اعداد لا تحصى من الصينيين الشجعان وعذبوا او سيقوا الى ساحة الاعدام فى ذلك العهد الدموى .

ان صور الشهداء ومخلفاتهم المعروضة هنا ليست الا غيضا من فيض . وجميع هذه المعروضات والتفاصيل المتعلقة بالازمنة والامكنة قد اعادت الى الذكريات المخجلة . فى ٢١ سبتمبر ١٩٣١ ، بعد ثلاثة ايام من نشوب القتال فى شنيانغ ، عقدت لجنة مقاطعة منشوريا للحزب الشيوعى الصينى اجتماعا طارئا دعت فيه جميع اعضاء الحزب وجميع الجنود الوطنيين فى الشمال الشرقى لحمل السلاح وخوض القتال ضد العدو . وقد ذكرتنى صور هذا القرار والبيت الذى كان مقرا رئيسيا للجنة بالفرق الشاسع بين ذلك وبين ايامى فى الحديقة الهادئة بتيانجين قبل عشرين سنة . فمن اجل انقاذ الوطن فى ساعة الخطر هب شعب الشمال الشرقى تحت قيادة الحزب وقاتل غير مبال بالعقبات التى وضعها تشيانغ كاى شيك فى طريقه . اما انا فقد كشفت خيانتى . لقد تذكرت دويهارا واتاجاكى وتشنغ شياو شيوى وابنه ولوه تشن يوى ؛ وتذكرت ايضا اقامتى فى تانغقانغتسى وليويشون .

وعندما حدثنا الدليل عن حياة يانغ جينغ يوى ، تذكرت " جولاتى

الامبراطورية " المتعددة الى دونغبيانداو — المنطقة التى تمت فيها عمليات الجيش الاول المتحالف ضد اليابانيين تحت قيادة يانغ جينغ يوى ولى هونغ قوانغ وغيرهما من القواد . كنت قد رأيت قمم جبال تشانغباى والشمس ترتفع فوق ضباب الصبح . ولكننى لم اكن اثار بجمال وطنى الام حيث كان اهتمامى مشدودا الى رجال الدرك اليابانيين والقوات العميلة والبوليس العميل على جانبى الخط الحديدى . كانت الصحف التى يديرها اليابانيون تقول دائما ان " قطاع الطرق " فى هذه المنطقة قد ابيدوا عن آخرهم ، ولكن عندما ذهبت الى هناك وجدت اليابانيين قلقين ومظهرهم يدل على انهم يواجهون خصما قويا . وعندما هربت الى تونغهوا وداليتسيقو فى نهاية " امبراطورية منشوريا " مباشرة ابلغت ان هذه المنطقة غير "آمنة " . لقد ظلت الجيوش المتحالفة ضد اليابانيين تشق طريقها فى القتال الى ان تم استسلام اليابانيين ، وعندها لم يكونوا هم الذين ابيدوا بل الجيش اليابانى الامبراطورى الذى كان غالبا ما يعلن عن نفسه انه منتصر . لقد جابهت القوات المعادية لليابان جيش قواندونغ القوى وقوات " امبراطورية منشوريا " التى كانت افضل منهم من حيث العتاد ، وكانت الصعوبات التى احاطت بهم لا يمكن تخيلها تقريبا ؛ ولكن لدى نظرى الى القدور واوعية الماء والفؤوس المصنوعة بأنفسهم وآلات الخياطة البالية التى استخدمها المقاتلون المقاومون بدا لى اننى ارى وجوه اصحابها الباسمة ، وجوها كوجه ذلك المدير الشاب فى منجم لونغفنغ ، مشرقة بالابتسامات التى لا تنبعث الا من الثقة والتصميم . وعندما نظرت الى حذاء مصنوع من لحاء البتولا تردد فى اذنى صدى هذه الاغنية :

احذية لحاء البتولا ،
بضائع صينية ،
صنعناها بأنفسنا من موادنا ،
الاشرطة من القنب البرى ،

والنعل من لحاء الشجر .

بأحذية لحاء البتولا ،
احذية الدرجة العالية ،
يتسلق الجنود قمم الجبال .
الفتيات الانيقات لا يستطعن شراءها .
والعجائز الثريات لم يسعفهن الحظ بلبسها .

احذية لحاء البتولا
احذية جيدة حقا .
يركض الجنود بها عبر التلال ،
متعقبين الشاحنات وهى تصيح مذعورة ،
حيث يفقد الشياطين صوابهم من الذعر .

لقد اضطرني اليابانيون الى الموافقة على دفعة اثر دفعة من القوانين التى مكنتهم من ان يحشروا اهل القرى ويفرضوا السيطرة على الحبوب ، ويحاصروا المناطق الجبلية ، ويستخدموا كل وسيلة لا يمكن تخيلها لقطع الروابط الاقتصادية بين المقاتلين المقاومين والعالم الخارجى . وبهذه الطريقة نجحوا فى تطويق الجنرال يانغ جينغ يوى وبعض القوات المعادية لليابانيين ، ولكن على الرغم من نقص التموينات لدى هذه القوات الا انها ظلت ماضية فى فى القتال — وقتا طويلا جعل اليابانيين يبدأون فى الشك فى تقارير مخابراتهم وفى معارف الناس العاديين . كيف استطاع هؤلاء الرجال ان يواصلوا القتال من دون حبوب ؟ ماذا كانوا يأكلون ؟ بعد ان استشهد الجنرال يانغ جينغ يوى فتح اليابانيون معدته ليحلوا هذا اللغز ، فكان كل ما وجدوه عشبا واوراق شجر .

وتذكرت زفرات يوشيوكا " الملحق الامبراطورى " : " ان الشيوعيين

مرعبون . " فحتى العشب فى نظر الجيش اليابانى الامبراطورى المسلح بالطائرات والدبابات كان مرعبا .

عندما كان الجنرال يانغ جينغ يوى ورفاقه فى السلاح يغنون تلك الاغنية حول احذية لحاء البتولا كنت انا مذعورا من ان يتركنى اليابانيون ومرعوبا من احلامى ؛ وفيما كانوا يأكلون العشب كنت متخما حتى سئمت من اكل اللحم وامضى ايامى كلها اقوم بالعرافة واتلو المحاورات البوذية .

وماجت امام عينى الخرائط والاختام والثياب الملطخة بالدم وكتابات الطفولة ، التى خلفها يانغ جينغ يوى . ومن خلفى انبعث نحيب زملائى السجناء الصينيين واليابانيين ، ثم اخذ يرتفع اعلى فأعلى . وعندما نظرنا الى صورة الشهيد تشاو يى مان شق احدهم طريقه الى الامام وركع امام الصورة منتحبا بمرارة وسجد لها .

" لقد كنت رئيس البوليس العميل . . . "

كان هذا الشخص هو يوى جينغ تاو وقد عمل رئيس بوليس هاربين قبل ان يصبح وزير العمل فى " امبراطورية منشوريا " . وعندما تم ايقاف تشاو يى مان فى هذا المقر الرئيسى للبوليس واستجوبت فى هذه الغرفة بالذات كان يوى جينغ تاو احد مستنطقيها . ولكن المستنطق قد حكم عليه التاريخ الآن وسجن . وغنى عن البيان ان يوى جينغ تاو لم يكن الانسان الوحيد الذى ينبغى له ان يبكى .

عمل وتفاؤل

بعد هذه الزيارة اقتنعت تمام القناعة بأن الابواب الى المجتمع الجديد مفتوحة امامى على مصاريعها وان المشكلات الوحيدة المتبقية تكمن فى داخلى .

وبدأت عام ١٩٥٨ مفعما بالامل . وقد كشف هذا الموقف التفاؤلى عن نفسه اول مرة عندما كنا ننقل الفحم فى خريف عام ١٩٥٧ . كانت سلطات السجن تنقل كل خريف مقادير ضخمة من الفحم ، بعضها للمحافظة على تدفئتنا وبعضها لصنع قوالب فحم للدفيئات التى كنا نزرع فيها خضارنا الشتوى .

وكانت هذه هى السنة الاولى التى نشترك فيها فى نقل الفحم وصنع القوالب الفحمية . وكنت حينذاك قد اصبحت اكثر قدرة مما انا عليه فى الماضى . وفى زنزانتنا كنا اربعة اشخاص اصغر سنا نسبيا ، نقوم بأثقل الاعمال : لاو وانغ ولاو تشنغ المنغولى وانا وجنرال شاب سابق لدى " امبراطورية منشوريا " . وكان هذا العمل نافعا جدا لى . فقد ازددت قوة واختفت امراضى السابقة . وعندما كنا نقوم بصنع القوالب الفحمية اخذت بنفسى العمل الثقيل نوعاما المتمثل فى حمل الفحم . ونظرا الى ان مدير السجن وبضعة كوادر آخرين كانوا يساعدون فى ذلك فقد مضى العمل فى نشاط . وقبيل ان ننتهى جلبت انا ولاو شيان ثلاث سلال ملأى .

وبينما نحن نسلم ادواتنا سمعت السجان وانغ يقول لأحد زملائه : " ارى بو يى يعمل بجد . ولا يسعى للفت الانظار بعمله . "

ووضعت انا ولاو شيان سلة الفحم التى كنا نحملها بعارضة كتف على اكتافنا ، واخذنا ملابسنا من الشجرة التى كنا قد علقناها عليها . فسألنى مدير السجن عن حالة كتفى مبتسما فنظرت الى كتفى واجبت :

— لم يصب بأذى ولم يتورم . بل احمر قليلا وهذا كل ما فى الامر .

— كيف شهيتك للطعام فى هذه الايام ؟

— ثلاث طاسات كبيرة من الارز او ثلاثين حبة كبيرة من جياوتسى .

— والارق ؟

— استسلم للنوم حالما يلامس رأسى الوسادة . وليس عندى اى مرض

اشكو منه مطلقا .

فضحك الآخرون جميعا ، ولكن ليس ضحك السخرية كما كان فى الماضى . اننى لم اعد اسمع ذلك التضاحك مطلقا .

ولقد احرزت كذلك تقدما فى مجالات اخرى . فلم اعد اجد اننى بحاجة الى ان ابذل جهدا كبيرا فى دراسة « الاقتصاد السياسى » و« المادية التاريخية » كما كنت افعل فى الماضى ، واصبحت ملابسى الآن نظيفة تقريبا كملابس اى شخص آخر . ولكن الشيء الذى كنت فى غاية الثقة ازاءه هو العمل الجسمانى . فما دمت لا يطالب منى تأدية اعمال دقيقة مثل صنع الازهار الورقية ، فقد كنت دائما فى الطليعة ، وحتى اولئك الذين كانوا ممتازين فى الدراسة النظرية اضطروا الى ان يشهدوا لى بالتفوق عليهم فى هذا الخصوص .

ان اعجاب رفاقى بى وتزايد ثقتى بنفسى لم يكونا ناجمين الى حد كبير عن ترسيخ موقف سديد من العمل بقدر ما كانا ناجمين عن الحماسة الجديدة للعمل التى توفرت فى كافة اوساط المجتمع . فمنذ اواخر عام ١٩٥٧ ونحن نلاحظ ذلك من الصحافة ورسائل الاهل وموظفى السجن انفسهم . لقد بدا ان كل واحد كان يتسابق الى الاشتراك فى العمل الجسمانى الذى رأوا فيه شيئا باعثا على الاعتزاز . فعشرات الآلاف من موظفى الحكومة ذهبوا الى الريف ، واضافت المدارس الى برامجها فترات للعمل الجسمانى ، وظهرت جميع اشكال فرق العمل الطوعى القصير الامد . وفى السجن نفسه ساعد الموظفون فى صنع القوالب الفحمية ، واعدوا الخضار فى المطبخ ، واعتنوا بفرن المطبخ ، بل جلبوا الطعام الى زنزاناتنا . وقبل ان نغادر فراشنا فى الصباح كنا نسمع اصوات عجلات العربات وقعقعة المعاول والمجارف المحملة فوقها ، فنعرف ان مدير السجن والموظفين قد توجهوا لاستصلاح الارض المقفرة خارج السجن . وهذا كله بين لنا ان العمل فى المجتمع الجديد هو المقياس الذى

يقاس به الناس . واولئك الذين كانوا قيد اعادة بناء انفسهم ليسوا استثناء . ولقد نسيت من الذى اخبرنى بأن كثيرا من الناس كانوا متوهمين بأن العمل عقوبة فرضها الاله على النوع البشرى وان الشيوعيين وحدهم هم الذين رأوا فيه حقا من حقوق الانسان . وكنت فى ذلك الحين قد فقدت كل اهتمام لى بالآلهة او ببوذا ، فلم افلح فى ملاحظة اية علاقة بين الاله والعمل . واستطعنا جميعا ان نرى ان العمل من وجهة النظر الشيوعية شيء طبيعى . واذكر مرة اننا كنا نزيل كومة من الفضلات ومر بنا الموظف المهذب لى . فتناول مجرفة وشرع يعمل بأكثر منا سرعة وفاعلية ، غير معتبر ان هناك شيئا غريبا فيما كان يفعله .

ان الاهمية المنوطة بالعمل والتحمس له عام ١٩٥٨ قد تركا فى انفسنا انطباعا اعمق . لقد علمت كثيرا من الاشياء الجديدة المذهلة من الرسائل التى جاءتنى من بكين . فالأخت الثانية التى كان من عادتها ان تمكث فى البيت غير ملتفتة الى شيء قد اشتركت الآن فى نشاطات لجنة الشارع ، وذلك بالمساعدة فى انشاء روضة لاطفال الامهات العاملات . والاخت الرابعة التى عملت فى القصر الامبراطورى السابق قد اشتركت فى مشروع طوعى لاعادة انشاء بحيرة خارج بوابة ده شنغ فى بكين وقد اعطيت لقب : " النشيطة الخماسية المزايا " والاخت الثالثة وزوجها اشتركا فى الدراسات السياسية التى نظمتها لجنة المؤتمر الاستشارى السياسى الشعبى فى منطقتهما . ولاو رون عمل فى خزان اضرحة اسرة مينغ للمياه سويا مع مسنين آخرين من المؤتمر الاستشارى السياسى الشعبى فى منطقتهم ، ولقد اشيد بهم على ابتكار فنى قاموا به . والاخت الخامسة وزوجها لاو وان اخبرانى مفتخرين ان ابنهما الاكبر الذى كان يدرس الجيولوجيا فى الجامعة يقوم الآن ببحث حول الاستفادة من الثلج والجليد وانه الآن مع بعثة استكشاف فى جبال الشمال الغربى . وكان بعض ابناء اشقائى ولى الكبير يعملون قادة فرق فى مزرعة للدولة فى ضواحى

العاصمة . ففى كل مكان كان هناك عمل وحماسة ، كما لو كانت طبول الحرب تدق ايذانا بالهجوم على الطبيعة . وفى هذه الحملة التاريخية للارتفاع بالبلاد عن تخلفها كان كل فرد يقوم بأداء نصيبه من العمل . ولقد خرج جميع زملائى السجناء من رسائلهم العائلية بنفس الانطباع . وعندما سمعنا ان الرئيس ماو ورئيس مجلس الدولة شو ان لاى والوزراء قد اشتركوا جميعا فى بناء خزان اضرحة اسرة مينغ للمياه لم يعد من الممكن ان نتمالك انفسنا عن الاندفاع الى العمل.وطلبنا من لجنة الدراسة وسلطات السجن ان ينظمونا فى القيام بعمل انتاجى .

واستجابت سلطات السجن لطلبنا . فأقاموا اولا معملا لصنع المحركات الكهربائية ، ولكن نظرا الى اننا كنا قليلين جدا فقد اسند هذا العمل الى مجرمى الحرب من اتباع تشيانغ كاى شيك فى اقسام اخرى من السجن . وقمنا بدلا من ذلك بالتدرب على تحقيق مهارات انتاجية ، فقسمنا الى خمس مجموعات بحسب كفاءاتنا : مجموعة لتربية المواشى ، واخرى لمعالجة الاطعمة ، وثالثة للبستنة ، ورابعة لزراعة الخضار ، بما فيها الدفيئات ، وخامسة للعمل الطبى وشكلت انا مع اربعة آخرين المجموعة الطبية . وربطنا العمل بالدراسة . فكان علينا ان ننظف العيادة كل يوم ، ونقوم بجميع الخدمات غير الطبية ، ونشترك فى العمل الطبى المساعد ؛ وكنا كذلك نمضى ساعتين يوميا فى قراءة الطب وعقد مناقشات بتوجيه من الطبيب ون ، احد موظفى السجن . وكان زملائى الاربعة اطباء قبل ذلك ، فأخذ ثلاثة منهم بمراجعة الطب الحديث بينما درس الآخر معى الطب الصينى التقليدى . وبالاضافة الى ذلك درسنا جميعا فن العلاج الوخزى والعلاج بالشيح المضطرم . وهذه الفترة من العمل فى مجموعة صغيرة اعطتنى ثقة بالنفس جديدة .

على انى لم اكن ماهرا كالآخرين فى هذا المضمار فى البداية . فمماسح القطن الطبى الجراحية التى صنعتها بدت مثل كتل من حشوة القطن ؛ وعندما

اخذت قياس ضغط الدم كنت اركز نظرى على المضغاط وانسى ان اصغى الى المسماع ، او اصغى وانسى ان انظر ؛ وعندما كنت اتعلم استخدام الجهاز الكهربائى لمعالجة ضغط الدم كنت دائما ما اصاب بتشوش ولا اتمكن من القيام بهذا العمل على نحو صحيح . ولم اكن افوق الآخرين الا فى الاعمال غير الطبية او العمل العضلى . فصممت على اتقان العمل الطبى . وعندما كان الطبيب او الممرضة يعلماننى شيئا كنت اطلب من زملائى الطلبة ان يشرحوه لى ثانية ، ومن ثم امارسه بنفسى دون انقطاع . وهكذا تعلمت تدريجيا اتقان مهنتى مساعدا طبيا . وكان احد مجرمى الحرب اليابانيين يأتى كل يوم لأخذ معالجة كهربائية ، وكان ينحنى لى بعد ذلك انحناءة شديدة ويقول : " شكرا ايها الطبيب " ، فأسر لذلك بالغ السرور . ونظرا الى اننى البس مئزرا ابيض ونظارات لم يكن امرا غريبا ان يخطئ هذا الخطأ ؛ وقد اظهر ذلك ان مهارتى كانت كافية لكسب ثقة المريض . وفى نهاية الدورة الاولى اجرى لنا الطبيب ون امتحانا فنلت الدرجات التامة كالآخرين .

عندما كنا نقوم بانتاج محركات كهربائية انتاجا تجريبيا خابت محاولاتى للاضطلاع بأى عمل سوى الاعمال البالغة السهولة التى كانت تسند الى ، وقد اعتبرت هذا اجحافا بحقى . ولكننى الآن تعلمت ان اكون مساعدا طبيا ، وقد اخطأ الآخرون فظنونى طبيبا مكتمل الخبرة ، وحصلت على الدرجات الكاملة فى امتحانى الاول . لقد اصبحت على ثقة بأننى لست بليدا تماما بل سأكون قادرا على اتقان هذه المهارة ؛ ولن اعود بحاجة الى مجوهراتى البالغة ٤٦٨ قطعة لاعالة نفسى .

وذات يوم طلبت ان ارى مدير السجن . وكان المدير السابق قد نقل الى وظيفة جديدة ، اصبح من خلالها مضطلعا بمسؤوليات اخرى عدا سجننا ، فلم يعد يأتى بانتظام ، لذلك رأيت نائبا له يدعى جين الذى اصبح الآن مسؤولا عن السجن . فقلت :

– يجب ان تقبل الحكومة تلك المجوهرات رسميا ، وعلى اية حال لقد فقدت الوصل الخاص بها منذ زمن طويل جدا .

وظننت انني يجب ان اشرح لنائب المدير موضوع المجوهرات ، ولكنني دهشت حين اجابني على الفور مبتسما :

– انني اعرف كل شيء عنها . حسنا اذن ، هل انت واثق من انك ستكون قادرا على اعالة نفسك من خلال عملك ؟

وامضيت بقية ذلك اليوم اقدم معلومات عن كل قطعة من الـ ٤٦٨ قطعة من المجوهرات وسكرتير يسجل ذلك كله . وعندما انتهيت من ذلك خرجت الى الفناء شاعرا بالاطمئنان ، ظانا ان كلمات نائب المدير كانت دليلا على انني احرزت تقدما ملحوظا . ترى هل اطل اليوم الذى سأغدو فيه انسانا حقيقيا ؟

الاختبار

قدرت نفسي تقديرا اعلى مما ينبغي ، وقد اكتشفت ذلك عندما ووجهت باختبار .

ففي الوقت الذى كانت تجرى فيه القفزة الكبرى الى الامام فى كافة انحاء البلاد اوضح لنا مدير السجن اننا بحاجة الى مراجعة افكارنا لنزيل بذلك العقبات الايديولوجية من طريق تقدمنا . وكانت الوسيلة التى اتبعت مع كل منا هى القيام فى اجتماعاتنا الدراسية بمناقشة التغيرات التى طرأت على تفكيرنا والمسائل التى لم نفهمها بعد .

وحين جاء دورى وقعت فى اضطراب . فبعد ان تحدثت عن ايديولوجيتى القديمة والتغيرات فى مواقفى سألني احدهم :

– شخص بخلفيتك يجب ان تكون له روابط وثيقة بالامبريالية اليابانية ،

وربما تكون الى الآن توقا اليها فى افكارك ومشاعرك الخاصة . ان صلاتك بها لم تكن اوهى من صلاتنا بها ، فلماذا انت الوحيد الذى لم تذكر هذا ؟ لا تقل لى ليس عندك مشاعر كهذه .

ــ ليس عندى مشاعر نحو اليابانيين سوى الكراهية . اننى اختلف عنك فى هذه الناحية .

واثار هذا عاصفة من الاعتراض : " لماذا لا تكون اكثر تواضعا ؟ انك ما تزال ترى نفسك اعلى منا منزلة ، أليس كذلك ؟ " " اية مشاعر لديك الآن ازاءهم ؟ هل انت اكثر تقدما منا نحن البقية ؟ " وضرب احدهم امثلة كثيرة من حياتى الماضية ، مثل القصائد التى نظمتها عندما ذهبت الى اليابان والطريقة التى ساعدت بها ام الامبراطور اليابانى فى رقى بعض درجات السلم ليوضح اننى كنت فى تلك الايام ممتنا لليابانيين اكثر من اى شخص آخر ؛ ووجد ان من الصعب قبول انكارى التام هذا . فأجبت اننى واليابانيين كنا نستفيد من بعضنا فى الماضى ، فلم يكن هناك مسألة مشاعر . اننى لم احاول طعن الآخرين عندما عبرت عن هذا الانكار الذى كان صحيحا تماما ، ولكن لم يكن احد مستعدا لقبول توضيحى . وعندما وصفت رعبى اثناء هروبى الى داليتسيقو سئلت :

ــ عندما كان اليابانيون عازمين على ارسالك الى طوكيو ارصدوا فيها باسمك ثلاثمائة مليون ين لتغطية نفقاتك التمهيدية . أ لم يجعلك هذا ممتنا للامبريالية اليابانية ؟

فقلت مندهشا :

ــ ثلاثمائة مليون ين ؟ اننى لا اعرف اى شيء عن ذلك .

ولم يكن هذا فى الواقع سرا كبيرا . فعندما اخذ جيش قواندونغ احتياطات الذهب الاخيرة من خزينة " امبراطورية منشوريا " اعلن للعالم انها ستنقل الى اليابان لـ " امبراطور منشوريا " . ولكننى لم ار فنا واحدا من هذه النقود ،

وكل شخص عرف ذلك ، ولهذا السبب لم توجه هذه المسألة ضدى . ان السبب الوحيد الذى اثار هذه المشكلة هو انهم ارادوا معرفة شىء عن حالتى الفكرية فى ذلك الوقت . ولو اننى رجعت بفكرى الى الوراء بهدوء او استمعت بتواضع لما قاله الآخرون لكنت قادرا على تذكر ذلك ؛ ولكننى بدلا من ذلك اكدت لكل ثقة اننى لا اعرف شيئا عن الامر . فبدأ كثير من الذين يعرفون هذا الامر يصيحون :

— انت لا تعرف شيئا عن ذلك ؟ هذا الامر قد عالجه تشانغ جينغ هوى وتاكيب روكوزو . هل تحاول التنكر لمسؤولياتك لأن تشانغ جينغ هوى قد مات مؤخرا ؟

وسألنى شخص آخر :

— أ لم تكتب عن هذا الامر فى اعترافك ؟

وعندما قلت اننى لم اكتب اصبحوا اكثر اندهاشا ، وقالوا :

— ولكن كل واحد يعرف هذا الامر .

— هذه ليست مسألة ثلاثمائة او ثلاثة آلاف بل ثلاثمائة مليون .

وفى ذلك المساء عدت بتفكيرى الى الوراء ، فتذكرت ان شى تشيا قد اخبرنى فى داليتسيقو بأن اليابانيين قد اخذوا الذهب كله من " مصرف امبراطورية منشوريا " معهم بحجة انه سيستخدم لنفقتى فى اليابان . فهذه يجب ان تكون الثلاثمائة مليون ين التى جرى الحديث بشأنها . ولكننى فى ذلك الوقت كنت فى غاية القلق بسبب التهديد المباشر لحياتى بحيث لم اعر هذه المسألة اى اهتمام . وفى اليوم التالى سألت ان كانت تلك هى النقود المعنية ، فقالوا لى انها هى المعنية . لذلك اخبرت مجموعتى الدراسية بشأنها . فسألنى عدد منهم بصوت واحد :

— لماذا اخفيت هذا من قبل ؟

— لم اخفه ، بل نسيته .

ـ أ ما تزال تصر على انك نسيته ؟

ـ لقد تذكرته الآن .

ـ لماذا لم تتذكره فى السابق ؟

ـ قلت لكم : اننى نسيت . ان من الطبيعى ان انسى اشياء فى بعض الاحيان ، أ ليس كذلك ؟

فأثار هذا عاصفة اخرى من الاعتراضات : "كلما تعمقت فى رجوعك الى الوراء اصبحت ذاكرتك افضل مما هى عليه ، وكلما كانت الاشياء اقرب ازددت بخصوصها نسيانا . وهذا غريب حقا ." "من الواضح انك خائف من شر مرتقب ، ولكنك لا تجرؤ على الاعتراف بذلك ." "اذا لم تكن لديك الشجاعة على الاعتراف بأخطائك ، فانك لن تتمكن ابدا من اعادة بناء نفسك ." "لا احد منا يصدقك . اننى اضمن ان الحكومة لن تنخدع بقصصك ثانية ." "انك مراوغ وكذاب." "كيف يمكن لمخادع مثلك ان يعيد بناء نفسه ؟"

وكلما اكثرت من محاولة الدفاع عن نفسى قل تصديق الآخرين لى ، فأصبحت قلقا : من الواضح انهم جميعا يرون اننى كاذب . فاذا اجمعوا كلهم على ذلك ، فهل سيصدقنى مدير السجن ويقف ضدهم ؟ غزت هذه الافكار ذهنى ، وتملكتنى كالشياطين ، فغدوت كالابله . اننى لم اقلق بصدد ذلك من قبل ، ولكننى قلقت الآن . ولدى تفكيرى فى انه من المحتمل ألا يصدق مدير السجن كلمتى ويقف ضد الآخرين جميعا خارت عزيمتى وعدت الى سابق طرقى التعسة ، واعددت نفسى لنسيان مبادئى ما دمت استطيع اجتياز هذه العاصفة . أ لن اكون قادرا على تلمس طريقى وسط هذه الازمة اذا انا قمت بالاعتراف ؟ حسن جدا اذن . وقلت اننى لم اجرؤ على ذكر هذا من قبل لأننى كنت اخاف ان تعاقبنى الحكومة ، ولكنهم الآن قد اقنعونى بالتغلب على مخاوفى .

وعلى الرغم من اننى قد نسيت حقا موضوع الثلاثمائة مليون ين ، الا انه بدا لى كأن شيئا كان يختفى فى اعماق نفسى ثم انكشف الآن .

لم يعد اعضاء مجموعتى يبدون المزيد من الاهتمام بمشكلتى هذه بعد ذلك ، ولكننى لم استطع ان انحى هذا الامر من ذهنى . وكلما ازددت تفكيرا فيه اصبحت اكثر اضطرابا ، واقتنعت اننى قد افسدت حالى كله . ومع انه لم يكن هناك ظل لشك فى اننى قد نسيت امر النقود ، الا اننى قلت اننى اخفيت الحقيقة . وخوفا من ان تظننى الحكومة مخادعا كذبت عليها . وسببت لى هذه المسألة شعورا بتأنيب الضمير ، واخذت اعانى مما فعلت .

لقد كنت فى الماضى ، عندما شككت فى ان كل تصرف لموظفى السجن يبطن عداوتهم لى ، احس بالهلع الشديد من الاعدام . اما الآن فقد عرفت ان الحكومة لا تريد قتلى ، بل تقوم بمساعدتى لكى اصبح انسانا جديدا . ولكن فى اللحظة التى اصبحت فيها مفعما بالامل واجهتنى هذه المحنة الجديدة ، وكلما ازداد التشجيع الذى لقيته من موظفى السجن ازددت شعورا بالاضطراب .

وذات يوم اخبرنى سجان بأن مدير السجن يريد ان يرانى . فظننت فى الحال ان هذا اللقاء سيكون حول الثلاثمائة مليون ين ، وقدرت انه قد يكون غاضبا منى لاستمرارى فى محاولة اخفاء جرائمى على الرغم من الطريقة التى يعاملوننى بها . وكان الاحتمال الآخر الذى وضعته انه ربما سر منى لاعترافى بجرائمى وكتابتى اعترافا بذلك ؛ وربما يمدحنى على هذا التصرف ، وهذا سيكون اسوأ . وذهبت الى غرفة الاستقبال الخاصة بمدير السجن خائفا مذعورا ، ولكننى اكتشفت انه طلبنى ليتحدث معى فى شىء آخر مختلف تماما .

وبعثت هذه المقابلة فى نفسى المزيد من الاكتئاب . ان مدير السجن السابق لم يحضر الى السجن منذ وقت طويل ، واليوم كان معه موظف آخر اعلى منه . وبعد ان سألانى عن دراساتى وعملى الجسمانى سألانى كذلك عما افعله اثناء حملة ابادة الحشرات . وقال المدير انه قد ابلغ بأننى قد احرزت بعض

التقدم فى قتل الذباب وقمت بواجبى ، ولكنه لم يعرف مدى نجاحى فى الحملة الحالية ضد الفئران . فأجبت بأننى لم اضع خطة بعد ، ولكننى رأيت ان كل واحد فى زنزانتنا سيقتل واحدا على الاقل منها . فقال الموظف الاعلى والجالس بجانب المدير :

ــ وماذا بخصوصك ؟

واصبت بالرعب حين عرفت انه الرجل الذى سألنى فى هاربين عن سبب عدم اعتراضى على المجازر التى ارتكبها اليابانيون . ودون ان ينتظر اجابتى سألنى سؤالا آخر :

ــ أ ما تزال ضد القتل ؟

ثم جلجل صوته بالضحك مما بعث الاطمئنان فى نفسى . واجبت بأننى قد تخليت عن هذه الافكار منذ فترة طويلة واننى مخطط لقتل فأر واحد على الاقل خلال هذه الحملة . فهز رأسه قائلا :

ــ ان خطتك هذه شديدة التحفظ . فحتى الاطفال فى المدارس الابتدائية يخطط كل منهم لقتل اكثر من فأر .

ــ سأبذل كل ما فى وسعى لقتل اثنين على الاقل .

فقاطعنى المدير قائلا انه لن يضع حدا لى بل سيدعنى اقتل اكثر ما استطيع . ثم صرفنى الى زنزانتى بعد ذلك مباشرة .

وعدت الى زنزانتى مثقل النفس . ولم يكن ذلك بسبب ذعرى من خبر اصطياد الفئران ، ذلك الشىء الذى لم افعله فى حياتى قط ، بل بسبب الافكار التى اثارتها هذه المحادثة . وتذكرت كيف فتش المدير عن خطتى على نحو خاص خلال حملة قتل ذباب وكيف شجعنى عندما تعلمت غسل ملابسى . لقد خصصت سلطات السجن جهدا كبيرا جدا لتعلمنى كيف اصبح انسانا ؛ ولكننى شعرت الآن اننى لو قتلت حتى مائة فأر لن اكون قادرا على التكفير عن خطئى .

وعندما رآني السجان جيانغ الذى كان قد انتهى لتوه من نوبته اجلس فى النادى وحدى ، سألنى ان كنت قد توصلت الى طريقة ما لاصطياد الفئران وعرض مساعدته لى فى صنع فخ . ولكننى من خلال جهلى المطبق لكيفية اصطياد الفئران لم اعرف كذلك اين تعيش . لذلك قبلت عرضه بسرور ، وفيما كنت اتعلم صنع افخاخ الفئران عاودنى القلق من جديد .

وتحدثنا ونحن نقوم بصنع الافخاخ فاستعرض لى السجان جيانغ طفولته ، فأتاح لى فرصة الاستماع الى معاناته التى مر بها . لم اكن اتخيل قط ان هذا الشاب الهادئ اللطيف قد عانى من الظلم الشديد فى ايام " امبراطورية منشوريا " . لقد كان ضحية نموذجية لسياسة دمج العوائل والقرى . فبعد ان اكرهت اسرته على الانتقال عدة مرات امضوا الشتاء فى كوخ ، واصيبوا جميعا بالتيفوئيد . فمات اخوته السبعة جميعا ، ولم يبق حيا الا هو . واضطروا الى دفن الاخوة السبعة عراة .

وانتهت قصته مع انتهاء صنع الافخاخ . واخذنى ليبحث عن جحور الفئران ، وتبعته فى صمت ، اتساءل كيف امكن لشاب قتل اخوته السبعة على ايدى نظام " امبراطورية منشوريا " ان يساعدنى اليوم . هل جميع السجانين الآخرين اللطيفين جدا فى معاملتهم لنا قد عانوا مثله فى الماضى ؟ وسألته :

— هل عانى السجان وانغ والسجان ليو مثل هذا الظلم من نظام " امبراطورية منشوريا " ؟

— كل واحد عانى فى تلك الايام . فالسجان وانغ اخذ الى العمل الالزامى ثلاث مرات ، والسجان ليو لم يبق امامه من خيار الا ان ينضم الى الجيش المتحالف المعادى لليابانيين .

وادركت دونما حاجة الى ان اسأله ثانية ان جميع موظفى السجن من اهل الشمال الشرقى قد اصطلوا بنيران " امبراطورية منشوريا " .

وتمكنت بارشاد السجان جيانغ من قتل ستة فئران . وعندما سمع السجانان وانغ وليو انني اصطدت بعض الفئران جاءا لرؤية "اسراى" كأنما ذلك انجاز معجز ، واشادا بي على تقدمي . ولكن تهنئاتهما لى جعلتني فى غاية الاضطراب : فبينما هؤلاء الناس من ضحايا نظام "امبراطورية منشوريا" ، يعلقون اهمية كبيرة على تقدمي كنت ما ازال اخدعهم .

وطفقت اذهب الى العيادة كل يوم كالمعتاد ، اكنس الغرفة ، واقيس ضغط الدم ، واقوم بالمعالجة الكهربائية ، وادرس الطب الصيني التقليدى ، واستمر مجرم الحرب اليابانى القصير ينحنى لى . ولكننى الآن لم اسمع ما كان يقوله ، واصبح من الصعب فهم «الخطوط العريضة فى الطب الصينى التقليدى» ، وكنت اضطر غالبا الى قياس ضغط الدم للمرضى عدة مرات . وكتبت لى اخواتى وازواجهن عن نجاحاتهم الجديدة ، وعبروا فى رسائلهم عن املهم فى ان اعيد بناء نفسى بسرعة واتمكن من مشاركتهم حياتهم السعيدة . وقد قرأت هذه الكلمات على انها توبيخ .

وعندما جاء الخريف قمنا بالمهمة الثقيلة المتمثلة فى صنع القوالب الفحمية وساعدنا نائب مدير السجن والكوادر فى اعداد الوقود الذى سيستخدم فى المدفيئات شتاء . وبذلت كل طاقاتى فى نقل الفحم متجنبا لفت انتباه المدير . انه اذا امتدحني فسيكون ذلك اسوأ على من توبيخى .

وذات يوم انشغلت بأمر آخر ، وعند الوقت الذى كنت سأقوم فيه بمعالجة كهربائية كان هناك اثنان ينتظران . احدهما اليابانى الذى كان ينحنى لى دائما ، وحيث انه مريض مواظب قررت ان اعالجه اولا . ولكنى دهشت حين رأيته يشير الى الرجل الآخر ويقول بالصينية :

ـــ ارجوك تفضل انت اولا . وانا لست مستعجلا .

فقال الرجل الآخر وكان مجرم حرب من اتباع تشيانغ كاى شيك :

ـــ انت جئت اولا ، لذلك يجب ان تعالج انت اولا .

واضاف شارحا :

— شكرا جزيلا ، ولكنني لست مستعجلا . يمكنني ان اجلس هنا وانتظر . ولسوف يطلق سراحي قريبا .

لم اكن اعرف من قبل انه يتكلم الصينية على هذا النحو الجيد . ونظرا الى انني رتبت الجهاز لمعالجة مجرم الحرب الكومينتانغي ، القيت في اتجاهه عدة نظرات . كان ينظر في اتجاه الجدار بجدية . وبعد لحظة اتجهت نظرته الى السقف وقال بصوت خافت ، لم اعرف معه أكان يتحدث مع نفسه ام معنا : " لقد كانت هذه الغرفة حجرة تعذيب في ايام ' امبراطورية منشوريا ' ؛ من يدري كم صينيا وطنيا عذب هنا ؟ "

وبعد لحظة صمت اشار الى السقف قائلا : " في تلك الايام كانت السلاسل تعلق من هنا ، وكانت الجدران مغطاة بالدم . " وطاف بصره بالجدران ثم استقر على الخزانة ذات الواجهة الزجاجية . وبعد فترة صمت اخرى قال ثانية : " عندما كان الاسياد الصينيون يصلحون هذا المبنى ظننا انه سيعاد من جديد حجرة للتعذيب حيث ينتقمون منا فيها . وفيما بعد ، عندما رأينا اطباء بمآزر بيضاء ظننا انهم سيجرون علينا تجارب تشريحية . ولم نتخيل قط انه ستقام فيه عيادة لشفائنا من امراضنا . " واختلط صوته بالنحيب .

وانصرف مجرم الحرب الكومينتانغي ، فطلبت من الياباني ان يأتي لتلقي علاجه . فوقف وقال باحترام :

— لا ، شكرا . لقد جئت لأنظر الى هذه الغرفة . ونظرا الى انني لم ار الطبيب ون فهل لك ان تخبره انني ما دمت لا املك الحق في ان اشكره فأود ان اشكره باسم امي . وشكرا لك انت ايضا ايها الطبيب .

— انا لست طبيبا ؛ انا بو يي .

ولم اعرف ان كان سمع او لا . ثم انحنى واستدار خارجا من الغرفة . لم اعد اطيق الاحتمال اكثر من ذلك . يجب ان اضع حدا لكذبي

مهما كان من الصعب على مدير السجن ان يفهم ذلك .

وصادف ان كان مدير السجن السابق فى السجن فى ذلك الوقت فطلب منى ان اذهب من اجل التحدث معه . وفتحت باب غرفة الاستقبال التى يجلس فيها فرأيت الشخص المألوف الاشيب يجلس خلف مكتب وينظر الى رزمة من الاوراق . فطلب منى ان اجلس وبعد لحظة وضع الاوراق جانبا ونظر الى قائلا :

— كنت اقرأ محاضر اجتماعات زنزانتك . كيف اموركم ؟ هل لديك مؤخرا اية مشكلات ايديولوجية ؟

وترددت الآن وقد جاءت اللحظة الحاسمة . ونظرت الى محاضر جلسات اجتماعات زنزانتنا وفكرت فى الهجوم الاجماعى الذى شنه على الآخرون . ولم يسعنى الا ان اتساءل ان كان هناك مجال للبوح بالحقيقة حيث ان كلمتى ستكون ضدهم جميعا . ولكنى لم استطع ان اظل متمسكا بالخداع اكثر من ذلك .

— قل لى كيف كانت اجتماعات مجموعتكم .

— جيدة . لقد لخصت تفكيرنا تلخيصا صحيحا .

فرفع المدير حاجبيه وقال :

— حدثنى بمزيد من التفصيل .

وادركت اننى اتنفس غير طبيعى ، واجبت :

— لقد قلت الحقيقة عندما اخبرتك بذلك . ان الاستنتاج الذى يملى على بأن اكون قلقا جدا فلا اذكر الاشياء صحيح تماما . ولكن هناك حالة او حالتان . . .

— تابع . انت تعرف مدى رغبتى فى ان افهم تفكيرك .

وعرفت اننى لا بد ان اصرح الآن بما فى داخلى ، فأدليت ، وقلبى يخفق ، بوصف عاجل للمشكلة بكاملها . واصغى المدير بانتباه شديد .

وعندما انتهيت من حديثى قال :

— لماذا كان من الصعب جدا ان تقول ذلك ؟ مم كنت خائفا ؟

— كنت مذعورا لأن كلمتى هذه ضدهم جميعا .

فقال المدير بمنتهى الجدية :

— ما دمت تقول الحقيقة فليس هناك ما تخافه . هل تظن ان الحكومة لا تستطيع ان تستقصى هذه المسألة بنفسها وتصل الى حكمها الخاص ؟ انك ما تزال لا تدرك حقا انك تحتاج الى الشجاعة كى تصبح انسانا حقيقيا . يجب ان تكون لديك الشجاعة لقول الحقيقة .

فبكيت ولم اتخيل انه سيكون قادرا على رؤية كل شيء بوضوح كبير . وما الشيء الآخر الذى كان امامى كى اقوله ؟

عفو خاص

اقتراح من اللجنة المركزية
للحزب الشيوعى الصينى
الى
اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب

تقترح اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى على اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب انه فى الاحتفال بالذكرى السنوية العاشرة لتأسيس جمهورية الصين الشعبية العظيمة يجب ان يمنح عفو خاص لعدد من مجرمى الحرب والمعادين للثورة والمجرمين الجنائيين العاديين الذين تم اصلاحهم حقا .

لقد حققنا انتصارا عظيما فى الثورة الاشتراكية والبناء الاشتراكى فى بلادنا . ان وطننا الام فى ازدهار ، والانتاج والبناء ماضيان قدما ، ومستوى معيشة ابناء الشعب يرتفع فى اطراد . ان السلطة السياسية لدكتاتورية الشعب

الديمقراطية راسخة وقوية على نحو لم يسبق له مثيل . والشعب فى كافة انحاء البلاد اكثر وعيا على الصعيد السياسى وافضل تنظيما من السابق . والوضع السياسى والاقتصادى لوطننا رائع جدا . وسياسة الحزب والحكومة الشعبية فى الربط بين العقوبة واللين وسياسة ربط الاصلاح من خلال العمل الجسمانى بالتثقيف الايديولوجى فى معاملة المعادين للثورة والمجرمين الآخرين قد حققتا نجاحا عظيما . ان غالبية السجناء المحتجزين الآن قد اعيد بناؤهم على درجات متفاوتة ، والعدد غير القليل منهم قد تم اصلاحهم على نحو حقيقى .

وفى هذه الظروف تعتقد اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى انه فى الوقت الذى نحتفل فيه بالذكرى السنوية العاشرة لتأسيس جمهورية الصين الشعبية العظيمة سيكون من الملائم ان نعلن ونضع موضع التنفيذ عفوا خاصا لعدد من مجرمى الحرب والمعادين للثورة والمجرمين الجنائيين العاديين الذين تم اصلاحهم حقا . ان اتخاذ هذا الاجراء سيساعد على تحويل العوامل السلبية الى عوامل ايجابية وسيلعب دورا تثقيفيا هاما فى اصلاحهم المستمر ، وكذلك فى اصلاح المجرمين الآخرين الذين ما يزالون محتجزين . انه سيمكنهم من ان يدركوا ان مستقبلهم فى ظل نظامنا الاشتراكى العظيم يكمن فى الاصلاح .

وتطلب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى من اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب ان تنظر فى هذا الاقتراح وتصل الى قرار ملائم .

ماو تسى تونغ
رئيس اللجنة المركزية للحزب
الشيوعى الصينى
١٤ سبتمبر — ايلول — ١٩٥٩

وصدر قرار بشأن هذا الاقتراح عن اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب ، وفى ١٧ سبتمبر اعلن الرئيس ليو شاو تشى العفو الخاص .

ان الابتهاج باقتراح الرئيس ماو وامر الرئيس ليو اللذين هلل لهما فى

السجن لا يمكن ان ينسى . فبعد ان قرأ المذيع الجملة الاخيرة سادت لحظة صمت حول الراديو تبعها انفجار من الهتافات والشعارات والتصفيق . وكان ذلك شبيها بانفجار عشرة آلاف خيط من المفرقعات (٢٣) فورا ، وقد استمر وقتا طويلا .

ومنذ تلك اللحظة من صباح ١٨ سبتمبر عمت البهجة والهياج السجن كله . وتوالى التعبير عن كافة الآراء ووجهات النظر : ان الحزب والحكومة صادقان دائما مثل كلمتهما ؛ ان لنا الآن مستقبلا ولن يمضى وقت طويل على خروجنا ؛ سوف يتم العفو عنا على دفعات ؛ سوف يسمح لنا جميعا بالخروج دفعة واحدة . من سيكون فى المجموعة الاولى التى سيطلق سراحها ؟ وادرك معظمنا ان العفو سيعتمد على اصلاح السجين او عدم اصلاحه ، وندم بعضنا على التوانى الذى اظهره مؤخرا . وكان هناك من قالوا بتواضع انهم لم يصلوا الى المستوى المطلوب بينما اخذوا فى الخفاء بحزم ملابسهم واحراق مذكراتهم المنبوذة والقاء جواربهم المهترئة .

واصبح الفناء يضج بالصخب فى فترة الاستراحة وسمعت لاو يوان يسأل لاو شيان :

— من سيكون فى الدفعة الاولى ؟

— من المؤكد انهم الذين اتقنوا دراساتهم مؤخرا . فأمامك فرصة جيدة .

— لا ، انا لست جيدا بما فيه الكفاية ؛ ولكننى متأكد من انك انت جيد تماما .

— انا ؟ اذا سمحوا لى بالخروج فسأذهب الى بكين وارسل اليك بعض منتجات بكين المحلية . اننى احلم ببلح بكين (٢٤) .

وسمعت صوت الفم الكبير من ناحية اخرى فى الفناء :

— عليهم اما ان يطلقوا سراحنا جميعا واما ألا يخرجوا احدا .

فقال له احدهم :

ـ انك لست واثقا بنفسك . انك خائف من ان تترك فى السجن :
ـ اترك فى السجن ؟ انهم ما لم يحتفظوا ببو يى هنا لن يحتفظوا بى :

وحتى انا كنت متأكدا تماما من انه يجب ان يكون مصيبا . وفى اليوم التالى ، على ما اظن ، سألنى نائب مدير السجن عن رأيى فى العفو الخاص . فقلت :

ـ اظن اننى سأكون حتما آخر من يخرج ـ هذا اذا استطعت ان اعيد بناء نفسى . ومع ذلك سأحاول بذل اقصى جهدى .

ان العفو والافراج قد عنيا بالنسبة لمعظم السجناء اجتماع شملهم مع عوائلهم من جديد ، ولكن هذا لم يكن له فى نفسى اثر . فأمى قد ماتت منذ زمن طويل وابى مات عام ١٩٥١ وزوجتى الاخيرة طلقتنى عام ١٩٥٦ . وحتى لو كانوا ما يزالون احياء فلا احد منهم سيفهمنى كما يفهمنى الناس هنا . لا احد ممن عرفتهم سابقا يمكن ان يعلمنى كيف اصبح انسانا حقيقيا كما فعل موظفو السجن هنا . يمكن للمرء ان يقول ان الافراج يعنى استعادة الحرية والنور ، ولكن هنا داخل السجن وجدت نور الحقيقة ، وكسبت حرية الاطلاع على العالم . فالعفو من وجهة نظرى يعنى اننى قد اهلت لأكون انسانا واستطعت ان ابدأ حياة جديدة يكون لها مغزى حقيقى .

تسلمت رسالة من لاو وان مؤخرا ، اخبرنى فيها ان ابنه الذى كان يدرس الجيولوجيا قد قاد فرقة من متسلقى الجبال لارتياد جبال تشيليان . وبعد ذلك ذهب الى التبت فى نفس الوقت الذى تمرد فيه ملاك الاقنان ، حيث قاتل هو وزملاؤه الطلبة الى جانب الاقنان . وبعد اخماد التمرد مضوا فى اقتحام قمم جديدة . وكثيرا ما ذكر لاو وان فى رسالته هذه الملأى بالفخر والسعادة مدى سروره بأن ابنه قد نشأ فى هذا الوقت الحاضر وليس فى الماضى البغيض . ان لابنه اليوم مستقبلا مشرقا . فلو لا فضل هذا اليوم لما كان له ابن كهذا ، ولما كان هو نفسه يعمل جنبا الى جنب مع المواطنين الصينيين الحقيقيين

الأخرين مترجما وبانيا للاشتراكية . وعبر عن امله فى ان اشاركه قريبا هذه السعادة التى لم نعرفها من قبل وعن اعتقاده بأننى ماض فى هذا الطريق .

بعد شهر من اعلان العفو الخاص ذهبنا فى زيارة اخرى ، وهذه المرة الى خزان داهوفانغ للمياه بالقرب من شنيانغ . عندما جئنا الى هنا فى المرة الماضية عام ١٩٥٧ رأينا حشدا لا يحصى من الناس يعملون فى هذا الوادى ، وعلمت من نموذج محطوط على الطاولة انه ستكون له سعة ٢ر١١٠ ملايين متر مكعب — تكفى لايقاف فيضان يمكن ان يحدث مرة كل الف سنة — وسيروى ٨٠ الف هكتار من الاراضى . وعندما قمنا بزيارتنا الثانية كان هذا المشروع العظيم قد مضى على اتمامه سنة ، وظهر امام اعيننا بحر واسع من صنع الانسان ، محاط بسد ارتفاعه ٤٨ مترا وعرضه ٨ امتار من الاعلى و ٣٣٠ مترا من الاسفل وطوله ١ر٣٦٧ مترا . وبعد ان عاد فورومى تادايوكى ، مجرم الحرب اليابانى الذى كان نائب رئيس مكتب الشؤون العامة فى " مجلس الدولة لامبراطورية منشوريا " من زيارته حدثنا جميعا عن انطباعاته فى النادى . وجاء قسم من حديثه على النحو التالى :

" عندما وقفت على السد عند خزان داهوفانغ اخذت بعظمته وجماله وهدوئه . واحسست ان هذا انتصار على الطبيعة ومصدر فخر وابتهاج للشعب الصينى وهو يواصل فتوحاته فى الطبيعة . . . ان مشهد هذا الخزان قد ذكرنى بوقوفى على سد خزان شويفنغ للمياه فى الماضى بوصفى رئيسا لقسم التخطيط فى مكتب الشؤون العامة ونائب وزير للاقتصاديات ، ونائب رئيس لمكتب الشؤون العامة فى ' امبراطورية منشوريا ' . لقد ظننت فى تلك الايام بكل كبرياء ان الشعب الوحيد فى آسيا الذى يستطيع ان يشن النضالات ضد الطبيعة ويبنى مشروعا كبيرا هو الشعب اليابانى ؛ واحتقرت الصينيين ورأيت انهم عاجزون تماما عن تحقيق شىء كهذا . كان العمال الصينيون يلبسون اسمالا بالية ، واعتبرت نفسى نوعا من البشر مختلفا عنهم كل الاختلاف . ونظرت

اليهم فى عجرفة كأنما انا عظيم والمعى وعالى الشأن .

" ولكن الناس الذين عملوا فى خزان داهوفانغ قد اصبحت لهم اليوم طاقة هائلة لأنهم مفعمون بالثقة . لقد كدحوا بنكران ذات . وكانوا مفعمين بالحيوية ، وكانت وجوههم مشرقة بالزهو والسعادة . وكنت ، وانا اقف عند زاوية من السد اتملى هذا المشهد ، مجرم حرب قد ارتكب اشد الجرائم خطورة ضد الشعب الصينى . من كان مصيبا ؟ "

على احد الجانبين كان الشعب الصينى ، " وجوههم مشرقة بالزهو والسعادة" ، وعلى الجانب الآخر مجرم حرب . وفى ذهنى كنت اغادر احد الجانبين واعبر الى الجانب الآخر ، الجانب المصيب . وهذا كان الحل الوحيد الذى وجدته بعد عشر سنوات من التفكير فيه .

ان السنوات العشر الماضية قد علمتنى كيف افرق بين الحق والباطل . وان الانتصار فى الحرب الكورية ، واعترافات مجرمى الحرب اليابانيين ؛ ونجاحات الصين الدبلوماسية ومكانتها التى ليس لها نظير من قبل لدى الرأى العام العالمى ؛ والتغيرات التى طرأت على البلاد والمجتمع وقوميتى وعشيرتى ونفسى ، كل هذه قد حدثت تحت قيادة الحزب الشيوعى الذى كنت انظر اليه بعين الكراهية والتحامل والخوف قبل عشر سنوات . ان احداث هذه السنوات العشر وتاريخ القرن الماضى او نحو ذلك قد علمانى ان القوة الحاسمة فى التاريخ هى الشعب العادى الذى كنت فى السابق احتقره اشد الاحتقار . لقد كان من المحتوم ان ينتهى القسم الاول من حياتى بكارثة ، وان تنهار الامبريالية وسلطة بيبانغ الرجعية اللتان اعتمدت عليهما . لقد ادركت الآن ان تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى ويوشيوكا والآلهة وبوذا غير قادرين على اخبارى بحقيقة مصيرى . فمصيرى هو ان اكون انسانا يعيل نفسه من خلال عمله ويقدم نفعا للبشرية . ان افضل مصير هو ذلك الذى يرتهن بمصير الشعب .

" على المرء ان يأخذ الجانب الذى يكون مصيبا . "

وهذا يتطلب الشجاعة ، واعلان العفو الخاص قد زودني بالشجاعة ، كما حصل بالنسبة للآخرين .

وبذلنا جهدا اكبر في عملنا ودراستنا ، واخذ الكثير منا ينتظرون بكل تشوق التقييم القادم لدراساتنا . واصبحت فرقة معالجة الاطعمة تصنع الآن جبنة فول الصويا طرية وبيضاء ، وفرقة تربية المواشي توصلت الى انتاج خنازير سمينة بحيث اصبحت افضل من السابق وفي فرقة العمل الطبي توقفنا عن ارتكاب الاخطاء . وحتى الفم الكبير قد بدأ يتصرف على نحو ملائم ، ولم يعد يتشاجر مع الآخرين .

ومضى شهر آخر . وذات مساء جاء نائب مدير السجن ليحدثني عن العفو الخاص . فسألني :

ـ بم كنت تفكر خلال الشهرين الماضيين ؟

فأخبرته بما ذكرته آنفا ، وقلت له ايضا ان بعض الناس على ما يبدو لي قد اعاد بناء نفسه على نحو جيد . وذكرت فرقة معالجة الاطعمة وفرقة تربية المواشي وبعض الافراد الذين اشيد مؤخرا بجهودهم في الدراسة .

فقال نائب المدير مبتسما :

ـ انك تجد الآن من السهل تماما ان تفكر في النقاط الايجابية لدى الآخرين . فما رأيك اذا كنت مشمولا بينهم بالعفو الخاص ؟

فأجبته ضاحكا :

ـ هذا غير ممكن .

غير ممكن . هذا كان ما فكرت فيــه وانا عائد الى زنزانتي . " ولكن اذا . . . ؟ " وجعلتني هذه الفكرة اتوتر . وفيما بعد استنتجت ان من الممكن ان يعفى عني في المستقبل ، ولكن من المحتوم ان يكون ذلك بعد وقت طويل . ولم يكن مستقبلي غائما جدا . وتخيلت نفسي مع لاو وان وروى الصغير والآخرين نأخذ مكاننا بين الناس العاديين ونقوم بأشياء عادية . وفي هذه الاحلام

رأيت نفسي احصل على عمل كمساعد طبي في مستشفى ، ذلك النوع من العمل الذي قرأت عنه في الصحف . ولكنني تأكدت من انه سيمضي وقت طويل حتى يعطيني الشعب موافقته ويقبل بي واحدا بين ابنائه . ولدى تفكيري في سعادة المستقبل كدت لا استطيع النوم .

في اليوم التالي امرتنا الادارة بالاحتشاد في النادي . وكان يواجهنا شريط عريض من قماش قرمزي ممتد عبر المسرح الذي جعلني الهث . وقد كتب على هذا الشريط "اجتماع عفو خاص لسجن فوشون الخاص بمجرمي الحرب" .

كان يجلس على المنصة ممثل عن المحكمة الشعبية العليا ، ومدير السجن واشخاص آخرون . وتحت المنصة كان الجميع صامتين ما عدا الوجيب في قلبي .

وبعد بضع كلمات من مدير السجن اتجه ممثل المحكمة الشعبية العليا الى وسط المسرح وقرأ من ورقة في يده : "آيشين — جيولوه بو يي" .

ووثب قلبي . فذهبت ووقفت امام المسرح وسمعت شيئا يتلى :

مذكرة عفو خاص
من المحكمة الشعبية العليا في
جمهورية الصين الشعبية

وفقا لأمر العفو الخاص الصادر عن رئيس جمهورية الصين الشعبية في ١٧ سبتمبر ١٩٥٩ تقصت هذه المحكمة حالة مجرم الحرب لامبراطورية منشوريا العميلة آيشين — جيولوه بويي .

ان مجرم الحرب آيشين — جيولوه بو يي ، ذكر ، عمره ٥٤ سنة ، من قومية المانتشو ، ومن بكين ، قد امضى حتى الآن عشر سنوات من الاحتجاز . ونتيجة لاعادة تكوين نفسه عن طريق العمل الجسماني والتثقيف الايديولوجي خلال احتجازه فقد اظهر انه قد اصلح اصلاحا اصيلا . ووفقا لشروط المادة ١

من امر العفو الخاص يطلق سراحه .

المحكمة الشعبية العليا فى
جمهورية الصين الشعبية
٤ ديسمبر ١٩٥٩

وقبل الفراغ من قراءة القرار انفجرت بالبكاء . لقد حولنى وطنى الام الى انسان حقيقى .

فصل جديد

وركبت القطار وفى الخارج كان منتشرا امام عينى سهل يغطيه الثلج ، واسع مشرق كمستقبلى . وداخل القطار كنت محاطا بعمال عاديين . هذه كانت المرة الاولى فى حياتى التى اركب فيها معهم واشاركهم القطار . وانا فى طريقى لأعيش معهم وابنى معهم ؛ فى طريقى لأصبح — لا ، فقد اصبحت لتوى — واحداً منهم .

وفور ركوبى القطار فى فوشون حدث شيء اظهر لى فى الحال صفة المجتمع الذى كنت قادما اليه والشعب الذى كنت بين ابنائه . فقد جاء واحد من عمال القطار ومعه امرأة الى عربتنا يبحثان عن مكان لبنت صغيرة كانا يحملانها . وكان هناك مقعد فارغ خلفى كما اخلى مسافر يجلس ورائى مقعده لهما ايضا . فقادت المرأة البنت الى المقعد ووقفت هى بجانبها وقد بان عليها قلق شديد . وسألها راكب آخر ان كانت الطفلة مريضة ، واذا كانت كذلك فلماذا هى خارج البيت . فأذهلنى جواب المرأة . كانت معلمة فى مدرسة ابتدائية بالقرب من المحطة ، والبنت تلميذة عندها ، شعرت فجأة بألم شديد فى بطنها خلال الدرس . وقد شك الموظف الصحى فى المدرسة انها مصابة بالتهاب

الزائدة الدودية واوصى بوجوب اخذها الى المستشفى فورا . ونظرا الى ان والدى البنت يعملان فى منجم بعيد ، لم يكن هناك وقت لمطالبتهما بالمجيء واخذ البنت الى المستشفى ، كما ان اخذها الى مستشفى المنجم سيستغرق وقتا طويلا فقررت المعلمة ان تأخذها مباشرة بقطار شنيانغ . وسمح لها مسؤول الرصيف ان تدفع ثمن التذاكر فى القطار نفسه وقال لها انهم سيخبرون شنيانغ هاتفيا ويطلبون منهم العناية بهما . لقد جعلتنى هذه الحادثة افكر فى كلمات تاو يوان مينغ (٢٥) : " منذ ولادتنا ونحن اخوة ، لسنا بحاجة الى آصرة اللحم . " ان هذا التفكير يشترك فيه اليوم اناس كثيرون . ثم خطر لى ان ما قاله منشيوس (٢٦) بخصوص العناية بمسنى وصغار الاسر الاخرى كما يعتنى المرء بأسرة نفسه قد تحقق فى الوقت الحاضر . ولقد اوضح لى هذا المثال ان المجتمع الذى كنت منتقلا اليه اروع مما تخيلته .

فى ٩ ديسمبر وصلت الى بكين ، مسقط رأسى الذى تركته منذ خمس وثلاثين سنة . وعلى رصيف محطة القطار الرائعة رأيت الاخت الخامسة والاخ الرابع اللذين لم اقابل الاولى منهما منذ اكثر من ثلاث سنوات ، ولم اقابل الثانى منذ اكثر من عشرين سنة . وفيما كنت اصافحهما سمعتهما يخاطباننى بعبارة " الاخ الكبير " تلك الصيغة المألوفة للمخاطبة ، التى لم يستخدمها اخوتى واخواتى قط فى التحدث معى سابقا . وشعرت ان حياة جديدة قد بدأت فى اسرتنا .

وودعت الموظف لى الذى جاء معنا وكذلك لاو منغ . لقد كان منغ واحدا من مجرمى الحرب الكومينتانغيين الثمانية فى سجننا الذين تسلموا عفوا خاصا ، مع قوه ون لين وهو جنرال مانشوى عميل سابق وانا . وذهب مع زوجته التى جاءت للقائه . وحمل الشقيق الرابع حقيبتى الجلدية السوداء وانطلقت امشى مغادرا الرصيف مع شقيقتى الخامسة وزوجها لاو وان ، احدهما عن يمينى والآخر عن يسارى . وعندما غادرنا الرصيف نظرت الى ساعة المحطة

واخرجت ساعة جيبي . قبل ان اغادر فوشون اختار مدير السجن هذه الساعة من كومة الاشياء التي قدمتها الى الحكومة في السجن وطلب مني ان احتفظ بها . فاعترضت قائلا انها قد اشتريت بنقود تم الحصول عليها بالاستغلال ولذلك لا اريدها . ولكن المدير اجاب بأن الشعب قد قدمها لي الآن ، لذلك يجب ان احتفظ بها . وكانت هذه الساعة هي الساعة الفرنسية التي اشتريتها من المتجر الذي في طرف حي المفوضيات في بكين عندما كنت احاول التخلص من قهرمان والدي الرئيسي وانا في طريقي الى المفوضيات الاجنبية عام ١٩٢٤ . وفي ذلك اليوم بدأ سجلي المخزي . ولكن هذه الساعة نفسها تحدد الآن بداية حياتي الجديدة بعد ان ضبطتها وفقا لتوقيت بكين .

لقد قال مدير السجن في ذلك اليوم الذي اعطاني فيه هذه الساعة لنا نحن العشرة الذين اطلق سراحنا انه عندما نعود الى بيوتنا يجب ان نعتذر لأهلنا وجيراننا عن الاخطاء التي ارتكبناها في الماضي . واضاف : " واعتقد ان جيرانكم واقاربكم سيصفحون عنكم شريطة ان تتصرفوا جيدا وتخدموا الشعب باخلاص . " ولقد تأكدت هذه الكلمات تماما عندما ذهبت الى بيت الاخت الخامسة ولاو وان . اذ كان كل واحد في مربعهم السكني لطيفا معي . وفي الصباح التالي اردت ان افعل شيئا للجيران ، وعندما رأيت بعض الناس يكنس الممر اخذت مكنسة وانضممت اليهم في العمل . وبعد ان كنسنا من المدخل الى نهاية الممر لم استطع ان استدل طريقي لأعود الى البيت ، فدخلت الى بيت غريب . فحزروا ما حدث واخذوني الى بيتي . وقالوا انه ليست هناك حاجة الى ان اشكرهم حيث اننا جميعا من زقاق واحد ، وحتى اذا لم نكن في نفس الزقاق ، فلا غرابة في ان يساعد الناس بعضهم بعضا في المجتمع الجديد .

وذهبت لرؤية عمي تساي تاو واسرته ، حيث عرفت ان عشيرتنا قد ازدهرت . وقد تحدث هو في المجلس الوطني لنواب الشعب عن نتائج بحثه خلال رحلاته

الى انحاء الاقليات القومية . وسمعت ابن عمى بو جين يعزف على اداته الموسيقية " قو تشين " ، وراقبته وهو يخط لى كلمات بدت افضل من السابق . ورأيت كذلك رسوما للازهار والطيور رسمها بو جيان مؤخرا . وذهبت لزيارة الاخت الثانية فوجدتها تدير روضة للاطفال . واخبرنى زوجها ، وهو مهندس بريد ، بأنها مشغولة جدا بحيث اختفى الصداع الذى كانت تشكو منه دائما . وزرت كذلك كلا من الاخت الرابعة والثالثة والسادسة والسابعة وازواجهن . فوجدت الاخت الرابعة تعمل فى ارشيف القصر السابق ، والاخت الثالثة وزوجها يشتركان فى دورة دراسية لدى المؤتمر الاستشارى السياسى للمنطقة والاخت السادسة وزوجها يعملان فى الرسم ، والاخت السابعة وزوجها معلمين .

ودهشت اكثر من ذلك بالجيل الثانى . ففى يوم عيد الربيع احتشد عدد لا حصر له من الاولاد والبنات ، وحول اعناقهم ربطات حمراء ، فى منزل عمى . ومن بين افراد هذا الجيل الذين شبوا للتو قابلت واحدة من متطوعى الشعب ابلت فى القتال بلاء حسنا ، وبطلة الدراجات النارية للنساء فى بكين ، وقائد فرقة متسلقى الجبال ، وطبيبا وممرضة ومعلما وسائق سيارة . اما الصغار فمعظمهم كانوا يقومون بتدريب مهنى او يدرسون فى المدرسة المتوسطة . وقد انضم بعضهم الى الحزب الشيوعى وعصبة الشبيبة ، وبعضهم يواصلون جهودهم لاحراز هذا الشرف .

وقابلت ايضا كثيرا من اصدقاء الماضى . فوجدت شانغ يان ينغ عضوا فى معهد الادب والتاريخ . وعند لقائى معه كان مضطجعا على اريكة . فقد كان طاعنا فى السن ومريضا بحيث لم يعد قادرا على التكلم بوضوح . لكن قسماته عبرت عند رؤيتى عن اهتمام شديد، وقد حاول ان ينهض ، فأخذت يده وقلت : " انك مسن ومريض ، لذلك يجب ان تستريح . اننا الآن افراد فى المجتمع الجديد ، وبوسعنا ان نتمتع بعلاقة طبيعية . وعندما تتحسن حالتك سنخدم الشعب سويا . " فاختفى التعبير الرسمى من وجهه وهز رأسه لى مبتسما

ابتسامة خفيفة ، وقال : " سأذهب معك . " فأجبته : " انا ماض مع الحزب الشيوعى . " فأجاب : " وانا كذلك . " وقابلت بعض اصدقائى ممن كانوا خصيانا فى القصر ، واستطلعت احوالهم . لقد اقامت لهم السلطات المحلية بيتا خاصا يمضون فيه بقية سنواتهم فى اطمئنان .

ان كل واحد قابلته فى اليوم الاول قال : " الآن وقد عدت ينبغى لك ان تلقى على ما حولك نظرة متفحصة — انك لم تكن قادرا على التجول فى بكين سابقا . " فأخبرتهم بأن الشيء الاول الذى اريد رؤيته هو تيان آن من ، بوابة السلام السماوى .

وكنت قد عرفت ساحة تيان آن من من الافلام والصحف والرسائل . فعلى الشاشة رأيت المواكب التى استعرضها الرئيس ماو ، وشاهدت الاحتفالات بالاعياد . ورأيت صورا فى الصحف لشرطة المرور يقومون بمساعدة الاطفال على عبور الطرق ، وصورا لسيارات " العلم الاحمر " و" الريح الشرقية " الصينية الصنع الرابضة هناك . وعرفت ان قاعة الشعب الكبرى قد بنيت فى عشرة اشهر ، وسمعت عن انطباعات الضيوف الاجانب من كافة انحاء العالم عن هذه الساحة . واخيرا وجدت نفسى فى المكان الذى كنت احلم به منذ وقت طويل .

كانت بوابة تيان آن من المهيبة التى انتصبت امامى شاهدا على التغييرات التى طرأت على الوطن الام من البؤس الى السعادة ، والتغير من بو يى القديم الى بو يى الجديد . على يسارى قاعة الشعب الكبرى الفخمة التى تقرر فيها شؤون الوطن ، بما فى ذلك العفو الخاص الذى سمح لى بموجبه ان ابدأ حياة جديدة . وعلى يمينى المتحف الثورى وخلفى النصب التذكارى للابطال الثوريين . وقد اخبرتنى كل هذه الاشياء بالنضال المر الذى خاضه كثير من الابطال والشهداء عبر قرن من الزمان لتحقيق ازدهار اليوم الذى استفدت منه انا ايضا .

وفى ساحة تيان آن من هذه قمت بأول جولة لى شاعرا بالحرية والامن والسعادة والافتخار . واخذنا انا وشقيقتى الخامسة وشقيقى السادس نتمشى ببطء نحو الغرب . وعندما وصلنا قصر الثقافة للأقليات القومية بجدرانه البيضاء وسطحه الازرق سألتنى اختى باهتمام : " ايها الاخ الكبير ، هل تعبت ؟ هل هذه هى المرة الاولى التى تمشى فيها مسافة طويلة جدا ؟ " فأجبتها قائلا : " لست متعبا ، والسبب فى ذلك ان هذه هى المرة الاولى حقا . "

" المرة الاولى " كانتا الكلمتين اللتين برزتا على نحو دائم مع شروعى فى حياتى الجديدة . " المرة الاولى " كانت صعبة دائما ، ولكننى كنت فى غاية الانفعال بحيث لم اشعر بأى اضطراب بخصوصها .

وذهبت الى الحلاق للمرة الاولى ، او على وجه التحديد ، للمرة الثانية ، حيث ذهبت مرة الى شركة تشونغيوان لقص شعرى قبل ثلاثين سنة فى تيانجين . وعلى ايه حال فان ما حدث لى الآن قد حدث للمرة الاولى . وجلست فى الكرسى فرأيت شيئا غامضا كنت قد لحظته فى متجر منوعات فى هاربين . وكان هذه المرة يحدث نعيرا عند المقعد الثانى فسألت عنه الحلاق ، فقال لى انه مجفف شعر . وسألته : " أتجفف الشعر اولا ام تقصه ؟ " فدهش لسؤالى وقال : " أ لم يسبق لك ان قصصت شعرك ؟ " وظن اننى احاول ممازحته ، فانفجرت ضاحكا ، وحين سمعت مجفف الشعر ينعر فوق رأسى شعرت بالسرور اكثر من السابق .

وفى المرة الاولى التى ركبت فيها الباص العمومى افزعت شقيقى السادس . فبينما كنت انتظر داخل طابور المنتظرين رأيت اناسا يقفون جانبا ليصعد المسنون والاطفال اولا فأفسحت مجالا لامرأة كانت تقف بجانبى كى تصعد الباص قبلى . ولم اتحقق من انها قاطعة التذاكر . ولما رأتنى واقفا قفزت الى الباص ؛ ثم اغلق الباب خلفها وتحرك الباص . وبعد بضع لحظات رأيت شقيقى عائدا بسرعة من وقفة الباص التالية ، وشرعنا نقهقه من بعضنا بأعلى

اصواتنا وهو ما يزال بعيدا عني بعض الشيء . وقلت له بثقة تامة : " لا تقلق ، لا شيء يمكن ان يحدث . " فما دام الناس يهتمون ببعضهم فما الداعي للقلق ؟ وفي ذلك الصباح نفسه استرددت محفظة جيب جلدية من دكان بجانب منزل الاخت الثالثة كنت تركتها هناك سهوا . وكان من غير الممكن بالنسبة لي ان اضيع .

ونظمت سلطات بكين عددا من الزيارات لنا نحن الذين خرجنا من السجن بموجب عفو خاص ، ومن بيننا جنرالات الكومينتانغ السابقون دو يوى مينغ ووانغ ياو وو وسونغ شى ليان وغيرهم . وكان هذا من اجل مساعدتنا على معرفة بكين معرفة افضل وتعود الحياة اليومية . فرأينا بعض المصانع الجديدة ، وجميع اصناف المرافق العامة التي اخذت تتوسع منذ التحرير ، وبعض الكومونات الشعبية داخل المدينة واماكن اخرى ؛ واستمرت هذه الزيارات قرابة شهرين . وفي النهاية اصر الآخرون على ان نذهب الى القصر السابق واكون انا دليلهم الوقت .

واكثر ما ادهشني هناك ان سيماء البلاء والانهيار التي عرفتها عند مغادرتي قد اختفت . وتمت اعادة الدهن في كل مكان . فستائر الابواب والنوافذ والاسرة ، والاراثاث ، واغطية الطاولات ، وكل شيء آخر كانت جديدة . وسمعت فيما بعد ان هذه الاشياء كلها قد صنعت في معمل متحف القصر تقليدا للنماذج الاصلية . ولم يكن قد بقي من مجموعة تحف القصر الا القليل من اليشب والخزف والكتابات الخطية والرسومات وبعض الاشياء الاخرى بعد اعمال السلب التي قامت بها حكومة امراء الحرب التابعين لزمرة بييانغ وحكومة الكومينتانغ وانا كذلك . ووجدت مع ذلك مجموعة لا بأس بها من الاشياء التي استردها المتحف عن طريق شرائها او التي قدمها جامعو التحف . فرسم " مشهد شاطئ النهر في عيد تشينغ مينغ " للفنان تشانغ تسه دوان من اسرة سونغ ، مثلا ، والذي كنت قد سرقته انا وبو جيه ، قد استعيد الآن بالشراء .

وفى الحديقة الامبراطورية رأيت اطفالا يلعبون تحت اشعة الشمس ومسنين يرشفون الشاى . واستنشقت شذا الربيع المنبعث من اشجار السرو القديمة ، وشعرت ان الشمس تشع هنا اكثر مما كانت تشع من قبل ، وكنت على يقين بأن القصر السابق قد فتح صفحة جديدة فى تاريخه .

فى مارس ١٩٦٠ نسبت الى حديقة بكين للنباتات ، التابعة لمعهد النباتات التابع لأكاديمية العلوم الصينية . وهناك امضيت نصف وقتى اعمل ونصفه الآخر ادرس . وكانت هذه مرحلة تمهيدية لتسلمى الوظيفة التى سأخدم الشعب من خلالها . وتحت ارشاد الفنيين تعلمت غرس البذور والعناية بالشتلات وغير ذلك . وكنت امضى النصف الثانى من اليوم اما فى الدراسة واما فى كتابة هذا الكتاب .

لم اكن فى الشطر الاول من حياتى اعرف ماذا تعنى " الاسرة " ، ولم تتكون لى بعض المشاعر العائلية الا خلال سنواتى الاخيرة فى فوشون . وبعد مجيئى الى مشاتل بكين بوقت قصير كنت اشعر ان لى بيتا ثانيا ، اذ كنت اعيش فى جو ودى وتعاونى . وذات مرة تبينت ، وانا عائد من نزهة ، اننى فقدت ساعتى وحسبت انى قد ابتعدت كثيرا فلم اتشجع على العودة للبحث عنها . وتخليت عنها مغموما . وعندما سمع لاو ليو ، زميلى فى غرفتى ، بذلك سألنى بالتفصيل عن الطريق الذى سلكته ، ومشى فى الحال على الرغم من انه كان فى وقت استراحة من العمل . ولقد وقعت فى حيرة كبيرة عندما علمت ان كثيرا من الناس قد اكتشفوا ايضا ما حدث ، وان جميع الذين كانوا فى الاستراحة خرجوا يبحثون عن الساعة . وفى النهاية وجدها لاو ليو امام مطعم تابع لفيلق انتاج فى كومونة الخضرة الدائمة (٢٧) ، وعاد بها منشرح الاسارير . وشعرت انه قد اعيد الى شىء اكبر من الساعة بكثير .

وفى ذلك الصيف شكلت وحدة ميليشيا فى المشتل ، واخذت تتدرب

كل يوم . فقدمت طلبا للانضمام اليها ، ولكن الآخرين قالوا انني قد تجاوزت السن المحددة ، فأجبت معترضا : " انني فرد في الاسرة الكبيرة لوطننا الام ، لذلك يجب ان يسمح لى ايضا بالدفاع عنها . " والححت على ذلك ، فسمح لى بالانضمام الى التدريب بصفة رجل ميليشيا فوق السن المحددة . وسرعان ما اصبحت قادرا على تحقيق طموح آخر ، فتظاهرت فى ساحة تيان آن من . وكانت المناسبة هي التجمع لدعم نضال الشعب اليابانى ضد " معاهدة الامن اليابانية — الامريكية " .

وكان هذا هو الوقت الذى بدأت فيه اباشر نشاطات اجتماعية جعلتنى اشعر اننى على نفس الجانب الذى يقف فيه شعب الصين كلها وبقية شعوب العالم المكافحة من اجل السلم والديمقراطية والاستقلال الوطنى والاشتراكية .

فى ٢٦ نوفمبر ١٩٦٠ تسلمت بطاقة انتخاب عليها اسمى . وبدت لى هذه البطاقة اثمن شيء امتلكته فى حياتى . وعندما وضعت ورقة الاقتراع داخل الصندوق الاحمر شعرت اننى اسعد انسان على وجه الارض . فأنا الآن ، مع ٦٥٠ مليون مواطن ، نمتلك ٩٫٦٠٠٫٠٠٠ كيلومتر مربع من الارض . ان العون الذى قدمته هذه الارض للشعوب والامم المضطهدة فى العالم هى من الجسامة بحيث يمكن الاعتماد عليها .

وفى مارس ١٩٦١ انهيت مرحلتى التمهيدية وتسلمت الوظيفة التى بدأت اخدم من خلالها الشعب : فقد اصبحت عضوا عاملا فى لجنة المواد الادبية والتاريخية التابعة للجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى .

وفى هذه المهنة عملت فى المواد الادبية والتاريخية المختصة بأواخر اسرة تشينغ وفترة امراء حرب بيبانغ . وكثيرا ما كنت امر بأسماء مألوفة واحداث تاريخية كانت لها علاقة بى . ومعظم مؤلفى هذه المواد كانوا ممن اشتركوا فى هذه الاحداث او شهدوها ، وانا وهم كنا جميعا شهودا على تاريخ تلك الفترة . وتم لى التوصل الى رأى اكثر وضوحا فى تطورات ذلك التاريخ من خلال

هذه المعطيات الغنية . فالسيدة يهونالا (الامبراطورة الارملة تسى شى) ويوان شى كاى ودوان تشى روى وتشانغ تسوه لين وجميع تلك الشخصيات التى نبذها التاريخ قد بدت فى ايامها تتمتع بسلطة قاهرة على كل شيء ، بينما الشعب الذى كان يجزر ويضطهد على ايدى هؤلاء الاشخاص قد بدا عاجزا . ان كتابا من امثال هو شى قد هللوا لهؤلاء الاشخاص ؛ والمحافظين على القديم علقوا عليهم آمالهم فى اعادة الملكية ؛ وقد انتفخوا هم انفسهم زهوا وغرورا معتقدين ان القوى التى دعمتهم ستظل تدعمهم الى الابد . ولكنهم تكشفوا فيما بعد عن مجرد نمور من ورق ، وذلك عندما اجتاحهم لهيب التاريخ ، والتاريخ هو الشعب . " ان الرجعيين يبدو مظهرهم مخيفا ، لكنهم ليسوا فى الحقيقة بتلك القوة الجبارة . واذا نظرنا الى الامور من زاوية المستقبل ، وجدنا ان القوة الجبارة حقا ليست فى يد الرجعيين ، بل فى يد الشعوب . " لقد جعلتنى تجاربى اقر بهذه الحقيقة ، ورحت اعلنها على الناس من خلال عملى وقدرتى بوصفى شاهدا .

وواصلت ايضا تأليف هذا الكتاب .

وساعدنى مكتبى بطرق كثيرة وزودنى بكثير من المواد القيمة ، وبالمساعدة الحماسية التى قدمها لى كثير من الاصدقاء الآخرين تمكنت من استخدام كثير من الكتب والوثائق التى حصلت عليها من الارشيف كما استخدمت المعلومات التى التقطت خصيصا لهذه الغرض . ومن هذه المعلومات ما انتسخه لى اصدقاء لم يسبق لى ان رأيتهم ، ومنها ما تفحصه رفاق فى دور النشر قاموا برحلات طويلة لهذا الغرض ، ومنها ما سجله مسنون شهدوا الاحداث بأم اعينهم . وكثير من تلك المواد التى يتعذر الحصول عليها قد حصلت عليها من الارشيف والمكاتب ؛ وينبغى لى ان اذكر على نحو خاص الارشيف الوطنى ومتحف التاريخ ومكتبة بكين ومكتبة العاصمة ، حيث قام الرفاق بأبحاث وتصنيفات خاصة لى . ولقد دهشت لهذا القدر الكبير من الاهتمام والمساعدة

الذى تلقيته ، ولكن هذا فى الواقع ليس غريبا فى بلادنا ، حيث ان كل من يفعل شيئا نافعا للشعب ، او يعلن عن الحقيقة يحظى الاهتمام والمساعدة فى كل مكان ، ناهيك عما يحصل عليه من الحزب والحكومة .

وشد كتابى اهتمام كثير من الاصدقاء الاجانب . ولقد زارنى صحفيون وضيوف اجانب سألونى عن تجاربى ، ولاسيما الاصلاح الذى مررت به خلال السنوات العشر الماضية . وقال لى واحد من امريكا اللاتينية ان تجربتى قد بينت له ثانية مدى عظمة افكار ماو تسى تونغ ، وحثنى على انهاء كتابى بسرعة . وقال صديق آسيوى : " آمل ان ترسل لى نسخة من الطبعة الانكليزية لكتابك فور صدوره حتى استطيع ترجمته الى لغتى وافسح المجال امام ابناء بلدى لقراءة قصتك المذهلة . "

وفى عام ١٩٦٢ نجح نضالنا المر ضد الصعوبات الناشئة داخل بلادنا وخارجها نجاحا رائعا ، وحققت لى تلك السنة المزيد من السعادة . ودعيت لحضور اجتماع اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى ولسماع تقارير المجلس الوطنى لنواب الشعب حول بناء الوطن الام . وفى ١ مايو — ايار — انشأت انا وعروسى لى شو شيان بيتنا الصغير ، وكان هذا البيت العادى بالنسبة لى شيئا خارقا للعادة .

هذا هو الفصل الجديد . هكذا بدأت حياتى الجديدة . وحين افكر فى بيتى وبطاقتى الانتخابية والبشائر التى تمتد امام عينى الى ما لا نهاية لن انسى مطلقا كيف حققت لنفسى هذه الحياة الجديدة .

وهناك قصة اخرى يجب ان ارويها . ويجب ان اوردها فى هذا الكتاب كما قال ابن شقيقى روى الصغير . وهى المتعلقة بسياسة اعادة بناء المجرمين ، تلك السياسة التى اوصلتنى الى هذه الحياة .

فى صيف ١٩٦٠ ذهبت الى منتزه التل العطرى مع روى الصغير ، وتحدثنا

عن التغيرات الاولى المبكرة فى تفكير كل منا وعما حركنا فى البداية .

فتحدث روى الصغير عن قو الصغير وشيو الصغير اولا . لقد اهتز قو الصغير عندما رأى قطارا صينيا فى محطة سويفنخه بينما لم تكن هناك فى السابق الا قطارات اجنبية ، وان الذى جعل شيو الصغير يشعر ان حياته الماضية كانت لا طائل تحتها انما هو الاحتفاء الذى قوبلت به العاملة التى فقدت احدى يديها . ثم تحدث روى عن نفسه . " هناك اشياء كثيرة لم انساها . اولها انى كسرت زجاج نافذة وانا انظفه بعد ان بدأت العمل مباشرة . وفى اللحظة التى تساقط فيها الزجاج على الارض جاء احد السجانين يركض . فذعرت ، ولكنى دهشت حين سألنى ان كنت قد اذيت نفسى . فقلت له اننى بخير ، علما اننى حطمت لوح زجاج . فقال ان قطعة زجاج ليس مهمة ، فالمهم ان اكون اكثر حرصا فى ان لا اسبب الاذى لأى انسان . "

فأجبته : " ان اشياء كهذه قد حدثت لى ايضا . كنت فى البداية منشغل الذهن فى مسألة ان كانوا سيقتلوننى ام لا ، وشككت فيما اذا كانت سياسة اللين ستطبق على ام لا . ولكن الشيء الذى جعلنى ارى الفرصة امامى ، ومن ثم بعث فى نفسى تدريجيا المزيد من التفاؤل ، هو الطريقة غير المتوقعة التى عوملت بها بعد تسليم المجوهرات التى كنت اخفيها فى كعب الحقيبة . وبمناسبة الحديث عن ذلك يجب ان اشكرك على المساعدة التى قدمتها لى حينذاك . "

فقال روى الصغير وقد جحظت عيناه :

— المساعدة ؟ أ لم يخبرك مدير السجن بما حدث حقا ؟

— بلى ، لقد اخبرنى . فخلال فترة توجيه الاتهامات والاعتراف بالذنب كتبت نقدا ذاتيا حول ذلك وقدمته لمدير السجن بعد ان اعترفت من خلال استجواب قو الصغير لى فى الاجتماع الكبير . وبعد عيد رأس السنة اخبرت مدير السجن بأننى لم اذكر المذكرة التى ارسلتها لى مخافة ان اسبب لك

المتاعب . فأخبرني بأنه يعرف كل شيء عن ذلك وانه طلب منك ان تكتب المذكرة كي تساعدني على تسليم المجوهرات بمبادرة مني . لقد كان المدير حي الضمير ، ولكنك انت قد ساعدتني ايضا .

— انت اذن ما تزال تجهل التفاصيل . انني لم اكن اريد كتابة تلك المذكرة ، بل كنت اؤيد تفتيشك ومصادرة هذه الاشياء منك ومعاقبتك . وهذا شي لا بد ان اخبرك به ، ويجب ان توردە في كتابك .

والآن فقط علمت القصة بكاملها . لقد افشى روى الصغير سرى الى مدير السجن ، وطلب منه ان يصادر تلك المجوهرات . فرفض المدير قائلا : " سيكون من السهل جدا ان نجد هذه الاشياء ، ولكن ذلك لن يساعده على اعادة بناء نفسه . كن صبورا . سيكون افضل بكثير له ان يبادر شخصيا الى تسليمها عندما يصبح اكثر وعيا على الصعيد السياسي . " وبعد وقت طويل طلب روى الصغير من المدير ان يقوم بتفتيش . فكان جواب المدير بأن تفكير مختلف الناس يتطور بسرعات مختلفة وانه لا فائدة في التسرع . لقد كان الحزب الشيوعي متأكدا من ان الغالبية العظمى من المجرمين يمكن ان يعيدوا بناء انفسهم عندما يكونون تحت سلطة الشعب على الرغم من تنوع اوجه العملية . كان المهم ليس المجوهرات او لوائح السجن بل ما هي افضل طريقة تساعدني على اعادة بناء نفسي . وذكر لي روى الصغير ان المدير قال له بخصوصي : " يجب ان تدرك انه بسبب خلفيته الفريدة يجد من الصعب ان يصدق على الفور سياسة اللين التي تنتهجها الحكومة الشعبية ازاء اولئك الذين يعترفون . اذا كنا سنقوم بتفتيش فسيفقد فرصة تفهم هذه السياسة . اترك المبادرة له . وبدلا من القيام بتفتيش مستعجل يجب ان تفكر بطريقة ما لتعجيل استيقاظه . " ففكر روى الصغير حينذاك في كتابة المذكرة . وعندما لم يحدث شيء بعد عدة ايام من تسليمها لي عاد الى المدير يستعجله وقال له : " بو يي لن يستيقظ ، وليس عنده ادنى ادراك . لماذا لا نفتشه ؟ "

فكان جواب المدير : " ان عدم التعجل فى هذه الفترة اهم بكثير من عدم التعجل فى السابق . " وفى النهاية سلمت المجوهرات وانا يائس ؛ ومنذ تلك اللحظة بدأت ارى امامى طريقا جديدا .

وقال روى الصغير باهتياج : " منذ ذلك الحين ادركت ان المدير قد آمن حقا بأن غالبية المجرمين يمكن ان يعاد بناؤهم . وانت نفسك تعرف انك كنت ما تزال تقاوم وتصر على خداع الحكومة ، ولقد عرفت سلطات السجن كل ذلك . وحتى قبل ان يأتى المحققون كنا قد اخبرنا الحكومة بكل شىء . ولكن منذ ذلك الوقت اقتنعت سلطات السجن بأنك يمكن ان تعيد بناء نفسك ، فاهتمت اهتماما شديدا بأن تضمن قيامك بالدراسة والاصلاح . "

كنا نقف على منحدرات التل العطرى ، نرسل ابصارنا الى مدينة بكين التى كانت تستحم تحت اشعة الشمس . وفكرت فى شىء تلو آخر من الاشياء التى حدثت فى السنوات العشر الماضية ، لقد استعدت ذكرى مدير السجن المسن الاشيب والخطاب الحيوى الذى القاه نائبه الاصغر . فكرت فى جميع السجانين والاطباء والممرضات وفى افراد آخرين من العاملين فى السجن . عندما حاولت خداعهم ؛ عندما استخدمت جميع الوسائل المخزية لمقاومتهم ؛ عندما كشف جهلى وعدم صلاحيتى وغبائى ؛ عندما كنت فى يأس تام بخصوص حياتى وشعرت اننى لا احتمل ان اعيش اية لحظة اخرى ، فى تلك الاوقات كان هؤلاء الاعضاء فى الحزب الشيوعى متشبثين باعتقادهم بأن فى وسعى ان اعيد بناء نفسى ، كما كانوا يقودوننى بكل روية لأصبح انسانا جديدا .

ان كلمة " انسان " هى الكلمة الاولى التى تعلمت ان اقرأها فى كتاب قراءتى الاول « كلاسيكيات المقاطع الثلاثة » ، ولكننى لم افهم معناها فى السابق مطلقا . اما اليوم ، وبمساعدة الحزب الشيوعى وسياسة اعادة بناء المجرمين ، فقد عرفت مغزى هذه الكلمة الرائعة واصبحت انسانا حقيقيا .

ملاحظات

(١) هذا القسم يعالج الشؤون السياسية والعسكرية فى الشمال الشرقى .

(٢) هذه قائمة بالخونة الرئيسيين الذين تسلموا مناصب فى نظام " امبراطورية منشوريا " :

رئيس الوزراء ووزير الثقافة والتربية : تشنغ شياو شيوى
وزير الشؤون المدنية وحاكم مقاطعة فنغتيان : تسانغ شى يى
وزير الخارجية : شيه جيه شى
وزير الدفاع ورئيس المجلس الاستشارى : تشانغ جينغ هوى
وزير المالية وحاكم مقاطعة جيلين : شى تشيا
وزير الصناعة : تشانغ يان تشينغ
وزير المواصلات : دينغ جيان شيو
وزير العدل : فنغ هان تشينغ
حاكم مقاطعة هيلونغجيانغ : تشنغ تشى يوان
رئيس المجلس التشريعى : تشاو شين بوه
رئيس مجلس الرقابة : يوى تشونغ هان
رئيس المحكمة العليا : لين تشى
رئيس مكتب المراقبة الاعلى : لى بان
نائب رئيس المجلس الاستشارى : تانغ يوى لين
اعضاء المجلس الاستشارى : تشانغ هاى بنغ ، يوان جين كاى ، لوه تشن يوى ، قوى فو
رئيس سكرتارية مكتب الرئيس التنفيذى : هو سى يوان
اعضاء سكرتارية مكتب الرئيس التنفيذى : وان شنغ شى ، شانغ يان ينغ ،

لوه فو باو ، شيوى باو هنغ ، لين تينغ تشن

رئيس مكتب الشؤون الداخلية : باو شى

موظفو مكتب الشؤون الداخلية الخاصون : تشانغ يان تشينغ ، جين بى دونغ ، وانغ جى ليه ، دونغ جى شيوى ، وانغ دا تشونغ ، شانغ يان ينغ

رئيس مكتب الامن : تونغ جى شيوى

قائد الحرس : تشانغ هاى بنغ

سكرتيرا مجلس الدولة : تشنغ تشوى ، تشنغ يوى

(٣) المدير السابق لسكة حديد جنوبى منشوريا وكان وقتذاك وزير الخارجية اليابانية .

(٤) هذه المقاطعة الغيت عام ١٩٥٥ وقسمت اراضيها بين خبى ومنغوليا الداخلية ولياونينغ .

(٥) الهة الشمس اليابانية آما – ثيراسو – او – مى – كامى . وتشكل عبادتها جزءا من ديانة شينتو اليابانية .

(٦) ديانة شينتو اليابانية .

(٧) كلاهما بقيادة الحزب الشيوعى .

(٨) تمتع موظفو " امبراطورية منشوريا " المدنيون بمنزلة محتجزين ، بينما الضباط العسكريون اعتبروا مجرمى حرب .

(٩) طبق صينى تقليدى يتناوله ابناء شمالى الصين فى عيد رأس السنة الصينية ، يتألف من عجينة رقيقة تحشى باللحم والخضار المفرومين وتغلى بالماء .

(١٠) من مؤلفات ستالين – المترجم .

(١١) طريقة قديمة لمعرفة البخت عند الصينيين – المترجم .

(١٢) من الكتب البوذية المقدسة – المترجم .

(١٣) حركة المكافحات الخمس حملة ضد رشوة العاملين الحكوميين والتحايل على الضرائب وسرقة املاك الدولة والغش فى المقاولات الحكومية وسرقة المعلومات الاقتصادية من المصادر الحكومية لاستخدامها فى المضاربات وكانت حركة المكافحات الثلاث حملة ضد الاختلاس والاسراف والبيروقراطية .

(١٤) لاو تعنى كبير السن ، وهى لقب خطاب غالبا ما يستعمل لمن هم

فوق الاربعين — المترجم .

(١٥) من المكاييل الصينية — المترجم .

(١٦) لقب الحكم الذى كنت استخدمه وانا " امبراطور فى منشوريا " .

(١٧) لاو تسى : هو مؤسس المدرسة التاوية فى الفلسفة وأحد الرواد فى تاريخ الفلسفة العام . وقد حول المشعوذون تعاليمه الفلسفية من بعده الى دين يقوم على الخرافة والسحر — المترجم .

(١٨) لقب للنبيل المانشوى .

(١٩) اعتبر المنهاج المشترك دستورا موقتا قبل اقرار المجلس الوطنى لنواب الشعب الدستور فى سبتمبر ١٩٥٤ .

(٢٠) اطلق سراحه فى فبراير ١٩٦٣ قبل ان يمضى مدة حكمه الكامل .

(٢١) يشير الى استخدام الجيوش الاستعمارية لفتيات مغلوبات على الرهن لاجل الترفيه — المترجم .

(٢٢) سياسة " حرق الكل وسلب الكل وقتل الكل " التى طبقها الغزاة اليابانيون فى الصين .

(٢٣) الالعاب النارية فى الصين تنظم فى خيوط فتنفجر بالتعاقب محدثة دويا متسلسلا — المترجم .

(٢٤) صنف من التمر ينتج فى الصين يختلف طعمه قليلا عن التمر العادى ونواته نحيفة وغير مشقوقة فى الوسط — المترجم .

(٢٥) شاعر من اسرة جين الشرقية ، عاش فى آواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس بعد الميلاد .

(٢٦) مفكر ومربى (٣٧٢ — ٢٨٩ق.م.) .

(٢٧) كومونة الخضرة الدائمة ، او كومونة الفصول الاربعة ، تقع فى ضواحى بكين ، سميت بذلك لأنها تزرع الخضروات فى جميع الفصول دون ان تتقيد بالمواسم — المترجم .

مطبعة اللغات الاجنبية بكين
توزيع
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب
(كوزى شوديان)
ص . ب ٣٩٩ بكين - الصين

从皇帝到公民
——我的前半生——
下 册
爱新觉罗·溥仪著
阿卜杜·卡里姆译
*
外文出版社出版
（中国北京百万庄路24号）
外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司
（中国国际书店）发行
北京399信箱
1985年（大32开）第一版
编号：（阿）11050—173B
00455
11—A—619PB

دار النشر باللغات الاجنبية بكين

صدر منها

قصص لو شيون المختارة

ديدان القز الربيعية وقصص اخرى

طلوع الشمس

عاصفة رعدية

الاسرة

الغانية وصندوق المجوهرات

الخنجر السحرى